جيليان كروس

حيث أنتمي

ترجمة: سمر طلبة



2647

المركز القومى للترجمة

سلسلة الإبداع القصصي

حيث أنتمي

رواية

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2647
- حيث أنتمى
- جيليان كروس
- سمر طلبة
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة:

Original title: Where I Belong

Author: Gillian Cross

Where I Belong was originally published in English in 2010.

This translation is published by arrangement with

Oxford University Press.

حيث أنتمى، نشرت هذه الطبعة فى الأصل باللغة الإنجليزية عام ٢٠١٠،
ونشرت هذه الترجمة بالاتفاق مع مطبعة جامعة أكسفورد.

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

حيث أنتمي

رواية

تأليف : جيليان كروس
ترجمة : سمر طلبة

2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

كروس ، جيليان ، ١٩٤٥

حيث أنتمى : رواية / تأليف: جيليان كروس ؛ ترجمة : سمر طلبة

ط ١ – القاهرة – المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٦

٣٦٨ص ، ٢٠ سم

١ – القصص الإنجليزية

(أ) طلبة ، سمر (مترجمة)

(ب) العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع / ١٧٠٢٧ / ٢٠١٤
الترقيم الدولى : 7 - 822 - 718 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

هذه قصة عن الأسلحة والعصابات وعارضات الأزياء .. وهى أيضًا عن الجفاف والمجاعة.

هل يزعجكم هذا؟ هل تتساءلون كيف يمكن أن يجتمع كل هذا فى قصة واحدة؟

إذن دعونى أقل لكم إن هذا حال الحياة فى أيامنا هذه. لا تحدث الأشياء بنظام محدد بحيث يقع كل حدث فى مكان منفصل. إننا جميعًا مرتبطون ببعضنا بعضًا عن طريق البريد الإلكترونى والهواتف وتلك الشبكة الإعلامية التى تغطى العالم كله كشبكة عنكبوت عملاقة.

أحداث هذه القصة إذن مسرحها العالم.. إنها قصة "عابدى" و "خديجة" وقصتى أنا

أيضًا .."فيريا".. قصة ما حدث لنا جميعًا بسبب الصومال.

عابدى

كان والدى يقول لى دائمًا: «أدر الكرة الأرضية» فكنت أديرها، فيقول: «جيد. والآن أعطنى إصبعك»، ثم يتناول إصبعى ويرفعه عاليًا فى الهواء، ثم تقل سرعة دوران الكرة وتبدأ أشكال البلاد المرسومة عليها فى التمايز والاتضاح، وإذ بأبى يطعن بإصبعى الكرة فى موضعٍ ما منها فجأة.

ولم يكن يخفق قط، ففى كل مرة كانت الكرة الأرضية تصدر صريرًا وهى فى سبيلها للتوقف عن الدوران لأجد إصبعى وقد استقر تمامًا فى منطقة القرن الإفريقى.. بالضبط فى النقطة التى كتبت فيها كلمة «الصومال» بامتداد الساحل.

وعندئذ كان أبى يقول: «هنا.. هذا هو موطنك.. حيث تنتمى».

وعندئذ كنت أنظر إلى شكل الخريطة غير المنتظم فيتراءى لذهنى القادة العسكريون والقراصنة، وأرى صبية يجوبون الشوارع حاملين المدافع فوق أكتافهم، وحاملات مدافع فوقها الأسلحة الثقيلة، ورجالاً يساومون فى أسعار الذخيرة فى سوق السلاح فى مقديشيو.

ينبغى أن تكون قويا كى تظل حيا فى مكان مثل هذا. ينبغى أن تكون من عائلة كبيرة تدعمك وممن لهم الحق فى الفخر بهويتهم. والصوماليون مشهورون بهذه الأشياء، حتى هنا. الناس هنا يرون كيف نهب للدفاع عن بعضنا بعضًا فى المدرسة فيقولون: «إياكم والشجار مع فلان فهو صومالى».

إن هذا كله متأصل بداخلى، ففى كل مرة أنظر إلى كرة أرضية ..وفى كل مرة أنظر إلى خريطة فأقرأ اسم بلدى أو أراه فى أى مكان يغمرنى شعور لا أستطيع وصفه، وأقول فى نفسى: «هذا أنا..هذا المكان هو حيث أنتمى».

وقد أرانى والدى الطريق إلى هناك مرات كثيرة. كان يقول: «كى تذهب إلى هناك فعليك أن تركب الطائرة إلى دبى أو إلى جيبوتى، ومن هناك تستقل طائرة أخرى إلى الصومال مباشرة » إنه أمر سهل، والناس يسافرون إلى هناك كل يوم، رغم المخاطر والمدافع والأسلحة.. رغم هذا كله لا يزال الصوماليون فى جميع أنحاء العالم يعودون إلى بلادهم لزيارة عائلاتهم وذويهم، ما عدا أنا.. أنا لم أذهب قط إلى هناك.

ولدتُ فى هولندا التى فرت إليها والدتى حين ساءت الأحوال فى الصومال. وصدقونى.. لقد ساءت الأحوال هناك أكثر مما تتخيلون.

بادئ ذى بدء كان يحكم البلاد ديكتاتور يؤثر عشيرته على سائر العشائر. هذا ما تقوله أمى. وقد قام بتحجيم الجميع، حتى بدأت البلاد الغربية تلعب ألعابها فى منطقة القرن الإفريقى، ثم انهار كل شىء.

وسيطر القادة العسكريون.

كيف كانت الأمور آنئذ؟ مممم.. تخيل أنك تعيش فى لعبة من ألعاب البلاى ستيشن، لكنها لعبة حقيقية، أو هذا تصورى للوضع على أية حال. مبانٍ تنفجر فتصير حطامًا، وقنابل يدوية تلقى هنا وهناك وأنت تسير فى الشارع، ورصاصات تتطاير من المدافع لتخترق أجساد كل من تصادف وجوده فى مرمى نيرانها. وتقول أمى إن العنف ساد، والفساد، والفوضى.

كنت جنينًا فى رحمها آنذاك، وكان كل شغل والدى الشاغل أن ينقلها إلى مكان آمن، لكن أبويه كانا طاعنين فى السن، كما كان المرض قد اشتد بهما، ولم يكن بوسعه أن يتركهما ويرحل، لذا سافرت أمى وحدها لاجئة، ووعدها والدى بأن يأتى ويعيدها إلى الوطن حين تتحسن الأحوال وتهدأ الأمور.

وطوال طفولتى لم يُقِم والدى معنا. كان يأتى لزيارتنا فيملأ المنزل حياة وحيوية، إذ كان يعرف ألعابًا لا حصر لها، وكان يحب أن يروى لى القصص، لاسيما عن المقالب التى اعتاد هو وصديقه «سليمان» أن يوقعا الآخرين فيها فى صغرهما.

ولم نكن نعرف لزيارته موعدًا محددًا، بل كنت أستيقظ فى الصباح لأجده يبتسم لى وأنا أفتح عينى. وحين أحاول تذكر تلك الزيارات الآن أجدها اندمجت جميعًا فى زيارة واحدة فى ذهنى. أتذكر أننى رأيت وجهه حين فتحت عينى فصحت فى فرح وهو يحملنى بسرعة خاطفة من الفراش

ثم يلقينى فى الهواء ثلاث مرات.. أربع.. خمس..وفى كل مرة يلتقطنى بذراعيه القويتين.

وكان من عادته أن يعابثنى قائلا: «أنت لم تكبر. اعتقدت أنك كبرت منذ زمن وصرت قادرًا على الاعتناء بوالدتك، لكن خاب ظنى فأنت لا تزال صغيرًا جدا».

فكنت أصيح بصوتى الحاد: «لا، لست صغيرًا. فلتقم بقياس طولى يا أبى».

وكنت أتملص فأفلت من بين ذراعيه منزلقًا نحو الأرض ثم أشده معى إلى الجدار الذى يضع عليه العلامات التى تحدد طولى. كانت الخطوط المرسومة بالقلم الرصاص تبدو كدرجات سلم خشبى، تزداد درجة جديدة مع كل زيارة من زياراته.

فى البداية لم يكن هناك سوى سلم واحد، أما الآن فهناك ثلاثة سلالم إلى جوار السلم الأول، واحد لكل أخت من أخواتى الثلاث: «فوزية» و«ماريان» و«زهرة»، لكن سلمى هو الأطول وهو يزداد طولا بسرعة كبيرة وهو شىء يسعدنى جدا لأننى أنتظر بفارغ الصبر اليوم الذى سأصير فيه فى طول والدى، الذى أعرفه من تلك العلامة التى رسمها على الجدار كى أقارن دائمًا.فهل اقتربت؟

لن أعرف أبدًا، فقد تركنا ذلك المنزل وانتقلنا إلى إنجلترا حين بلغت العاشرة من عمرى ولم يعد والدى يزورنا.

لكنه ظل على اتصال بنا بعد أن أرسلنا إلى ذلك المكان الذى يعيش فيه «سليمان عثمان» وأسرته، والكثير من الصوماليين. كان مكانًا فى لندن يسمى «باتل هل». وكان «عثمان» مشغولا جدا فقد كان يفتتح كل فترة مقهى جديدًا من سلسلة مقاهى الإنترنت التى يملكها، وكنت أذهب أسبوعيا إلى المقهى الأقرب من منزلنا فأجد دائمًا رسالة بريد إلكترونى فى انتظارى. «أهلا يا «عابدى».كيف حالك؟ سرنى كثيرًا ما كتبته لى عن مباراة كرة القدم التى شاركت فيها.. إلخ إلخ» كان والدى يتذكر دائمًا كل ما أقول له إننى أفعله، وكل ما أحبه وأهتم به. وكان ينهى رسائله دائمًا بالجملة ذاتها: «استمر فى الاعتناء بأمك وأخواتك حتى آتى وأراك مرة أخرى. أنا فخور بك. إمضاء: والدك»

لكنه لم يأتِ قط.

وكانت أمى تقول: «لا يزال يحبنا، لكن الأمور صارت أكثر صعوبة ولم يعد بإمكانه السفر من هناك إلى هنا والعكس بحرية كما كان يفعل فى الماضى. علينا أن ندخر مالا كثيرًا حتى نتمكن من إحضاره إلى هنا، وعندئذ سيبقى معنا ولن يغادر أبدًا، حتى نعود جميعًا إلى الصومال».

وبسبب مسألة ادخار المال تلك كنت أضطر إلى قراءة بريدى الإلكترونى فى مقهى الإنترنت الذى يملكه «سليمان عثمان» إذ لم يكن معنا مال يفيض عن حاجتنا مما يسمح بشراء جهاز كمبيوتر خاص بنا فقد كنا مضطرين لتوفير كل بنس لإحضار والدى إلى إنجلترا.

وفى كل يوم أحد كنا نجلس أنا وأمى لنحصى ما استطعنا ادخاره طوال الأسبوع، وكنا نضع العملات المعدنية الواحدة فوق الأخرى فتبدو كأبراج صغيرة جميلة فوق منضدة المطبخ. وكنت أحتفظ بكراسة أسجل فيها المبلغ الجديد ثم أجمعه على ما لدينا من الأسابيع الماضية، ثم تقوم أمى يوم الاثنين بأخذ المال إلى منزل عمى «عثمان هيرسى» ليحتفظ لنا به. وظللنا نفعل هذا كل أسبوع لمدة ثلاث سنوات.

وأخيرًا، حين بلغت الثالثة عشرة من عمرى اكتمل المبلغ المطلوب، وزارنا عمى «عثمان هيرسى» ليخبرنا بأنه أرسل المال إلى أبى، وحين غادر أخذت أمى ترقص وتدور فى أنحاء المطبخ وهى تشدو بأغانٍ صومالية.

وطبعًا كنا نتوقع أن يرسل إلينا أبى رسالة على بريدى الإلكترونى يخبرنا فيها بموعد وصوله، لكنه لم يفعل. فى الواقع انقطعت رسائله تمامًا، فبعد أن أرسل إلى رسالة عادية حافلة بالأخبار والقصص المضحكة والأسئلة والنكات لم يرسل أى شىء.

وظللت أتفقد بريدى الإلكترونى كل يوم، من المدرسة، كما كنت أذهب كل ليلة إلى مقهى الإنترنت لعل وعسى. ولابد أن «سليمان» قد خمن سبب ترددى على المكان، إذ ظل المسؤول عن المقهى يمنحنى–بناءً على أوامر من «سليمان»– عشر دقائق مجانيّة كانت هى كل ما أحتاجه (إلا إذا كان لدى واجب يحتاج إلى الإنترنت)، فالرسالة التى كنت أنتظرها لم تصل قط.

في البداية حاولت أمي أن تعرف ما حدث، وقد طافت تساؤلاتها العالم كله، منتقلة من صومالي إلى آخر. «أين أحمد موسى علي؟»، لكن اتضح أنه ما من أحد كان يملك إجابة لهذا السؤال.

ثم عدت من المدرسة ذات يوم فأخبرتني أن والدي قد مات.

لم تحاول أن تهيئني لتلقي الخبر، بل ألقته في وجهي مباشرة ودون تمهيد.

«مات والدك!»

وحين سألتها الأسئلة الطبيعية في مثل هذه الحالة: متى؟ وأين؟ ومن السبب؟ خلا وجهها من أي تعبير سوى تعبير الذهول، وكأن القصة كانت مؤلمة إلى حد يجعلها غير قابلة لأن تروى. رفضت أمي تمامًا التحدث عما جرى.

بعدها، وكلما كنت أحاول تخيل وجهه كنت لا أتخيله إلا وهو يقول: «استمر في الاعتناء بأمك وأخواتك حتى آتي وأراك ثانية . أنا فخور بك».

وكنت أشعر بوقع الكلمات كحمل ثقيل فوق كتفي.

بعد حوالي ستة أشهر عدت إلى شقتنا من المدرسة فوجدت ضيوفًا. وجدت عمي «عثمان»، والد «سليمان»، وزوجته عمتي «صفية» يشربان الشاي مع أمي وكانت الشقة مرتبة وهادئة جدا ولم يكن هناك أثر لأخواتي.

وصبت لي أمي بعض الشاي وأشارت لي أن أجلس بجوار عمي «عثمان» ، وظلت تتحدث مع عمتي «صفية» بينما كان عمي «عثمان» يبتسم لي ثم قال: «أنت تقوم بواجبك على خير وجه، فأخواتك قد كبرن وصرن

فتيات عاقلات مهذبات» فدرت ببصرى فى الشقة متسائلا عن مكان وجودهن وعندئذ ابتسم عمى «عثمان» وقال: «لقد ذهبن لزيارة بناتى».

لم يكن لهما سوى ابن واحد هو «سليمان»، لكن كان لهما ثلاث بنات كلهن أكبر منى، وكنا نراهن كثيرًا فى السابق فقد اعتدن على معاونة عمتى «صفية» فى المتجر، لكنهن لم يعدن يظهرن هناك فهن يذاكرن بجد لاجتياز الامتحان. لابد أن هناك شيئًا مهما لا أعرفه وإلا ما اقتطعن أبدًا من وقتهن الثمين لاستقبال أخواتى.

لابد أن عمى «عثمان» أتى ليقول شيئًا مهما.

أخذ عمى «عثمان» يرمقنى بينما كنت أدير الأمر فى رأسى، ثم قال بهدوء: «طبعًا لو كان لك أخت كبرى لكان من الممكن أن تعتنى بفوزية و«ماريان» و«زهرة». الفتيات يحتجن إلى أخت كبرى حين يكبرن».

وسكتت أمى وعمتى «صفية» عن الكلام برهة، وحين عادتا إلى الحديث لم يكن من الصعب أن أدرك أنهما لم تكونا تصغيان إلى بعضهما بعضًا وإنما كانتا تتظاهران بالإصغاء. كانتا تريدان أن تسمعا ردى على عمى «عثمان» فقد كان هذا هو سبب الزيارة.

وقلت: «لكن الأخوات الكبريات لا يأتين من العدم».

فتفرس عمى «عثمان» فى وجهى ثم قال بأناة وحرص شديدين: «هناك رجل فى الصومال.. رجل صالح مجتهد فى عمله، يريد أن يرسل ابنته إلى

إنجلترا لتستكمل دراستها، لكن ليس لديه أقرباء هنا لإيوائها. وقد طلب منى أن أبحث له عن أسرة تستضيفها وتعاملها كابنة لها، أو كأخت».

وما إن نطق بتلك الكلمات حتى حدقوا جميعًا فى وجهى فى ترقب. لابد أن الثلاثة قد ناقشوا الأمر فى غيابى، لكن يبدو أن القرار قرارى. يبدو أنهم كانوا ينتظرون إذنى.

وقلت: «كم عمر الفتاة؟» فهز عمى «عثمان» كتفيه ثم قال: «ربما أربعة عشر عامًا».

«ربما» كانت تعنى أنها كانت أكبر من ذلك. أنا لا أعلم الكثير عن مثل هذه الأمور لكننى أعلم أنه كلما كان الإنسان أصغر سنًا كانت المسائل أفضل، إذ سيكون أمامه وقت كافٍ للتعلم، كما أن الدولة تمنحه المال اللازم لفترة أطول.

وقلت: «من هى؟ إلى أى عائلة تنتمى؟»

فقطب عمى «عثمان» تقطيبة خفيفة، وقال: «ليس شيئًا حسنًا أن نصنف الناس بهذه الطريقة. اسمها «خديجة» وهى أختك. لقد صرنا عائلة واحدة الآن. والدك كان يتفهم هذه الأمور».

إذن كيف يمكننى أن أرفض؟ لم يقع اختيار عمى «عثمان» علينا للاعتناء بالفتاة؛ لأننا كنا نحتاج المال بل اختارنا لأنه يعرف أننا الأسرة المناسبة لمثل هذه المهمة. زوجة «أحمد على موسى» وأبناؤه خير من يقوم بتلك المهمة.

وقال عمى «عثمان»: «ما رأيك؟»

فرفعت رأسى ونظرت فى عينيه وقلت: «يمكنها أن تعيش معنا. أخبر والدها أننا سوف نعتنى بها».

خديجة

عندما ينطق أحدهم كلمة الصومال أمامى يتراءى لمخيلتى المطر وهو يتساقط على الصحراء الحمراء، والغبار وهو يتطاير فيغطى ساقى، والأطفال و هم يصيحون من الفرحة حين يرون أول قطرات المطر الضخمة تصطدم بالأرض، والإبل وهى ترفع رءوسها وتفتح أنوفها على اتساعها وترتعش فتحاتها، وأشم رائحة الأرض حين تنفلق البذور وتخرج منها البراعم.

حين يحل موسم المطر يتغير كل شىء بين عشية وضحاها، ويتحول الأحمر إلى أخضر..تتحول البلاد من أرض للمجاعة إلى مراعٍ بكر، وتظهر البراعم فى الشجيرات التى تحولت أغصانها إلى أشواك، وتبسط الأشجار أوراقها، وتستعيد الحيوانات قوتها وبدانتها، وتبدو الأشياء جميعًا وكأنها كانت تحبس أنفاسها-مثلنا- ثم أطلقتها فجأة فى صورة حياة متفجرة تفجر الينابيع، فيحيا كل شىء.

لم أعتقد قط أنه سيأتى يوم أكره فيه المطر.

ليس اسمى «خديجة»، وهذا شىء ينبغى أن تعرفوه قبل أن تسمعوا قصتى. لقد صرت مشهورة، ولعلكم تعتقدون أنكم تعرفون كل شىء عنى، لكنكم مخطئون. أنتم لا تعرفون عنى أى شىء. وكل ما سمعتموه ليس صحيحًا.

أخى الصغير «محمود» يسمينى «جى-رى» أى الزرافة بسبب عينىّ الواسعتين جدا وساقى شديدتى الطول، لكن هذا ليس اسمى الحقيقى أيضًا. اسمى الحقيقى عبارة عن قائمة طويلة تضم أسماء أسلافى-ثلاثة عشر جيلا من الأسلاف، وإذا سمعتموه فستعرفون بالضبط من أنا، هذا إذا ما كنتم من الصومال.

لكن لعله ليس من الحكمة أن أخبركم باسمى، فلا تهدروا وقتكم فى التساؤل عنه، بل أصغوا إلىّ وحسب.

فى طفولتى كان والدى ثريا يملك قطيعًا كبيرًا من الإبل والخراف والماعز، وكان له أيضًا منازل كثيرة وتجارة كبيرة فى مقديشيو وبلدوين، وكان يسافر دائمًا بين المدينتين، وإلى أوجادين أيضًا. وكانت له زوجة ثانية فى مقديشيو لكن كنا نادرًا ما نراها. وقد تربيت مع شقيقاتى وأخى «محمود»، حيث كنا ننتقل من مرعى إلى آخر مع أمى وأقربائنا. كانت حياتنا جميلة.

لكنها تغيرت، فجأة وبدون سابق إنذار.

أو ربما كان هناك إنذار لكننى لم أحسن تفسيره. كنت بريئة ساذجة فلم أفهم معناه. كنت أثق بالناس أكثر من اللازم.

كانت البداية حين جاء أبى إلى مقديشيو فأخذ ثلاثة من الإبل. وكنا نعلم أنه سيبيعها لكننا لم نكن نعرف ما سيفعل بثمنها، وعلى أية حال فالإبل إبله وهو حر فيها، كما أن المطر لم يهطل فى تلك السنة فظننت أنه سيبيعها بسبب الجفاف.

ثم عاد أبى ومعه كاميرا، ولم يرق ذلك لأمى، إذ رأيتها تتحدث معه وقد بدا عليها الغضب، لكنهما كانا بعيدين جدا فلم أستطع تبين كلمة مما كانا يقولان. وحين نادانى أبى ابتعدت أمى وذهبت.

غطى أبى أحد جوانب سيارته بملاءة، ثم أجلسنى أمامها وأخذ يلتقط الصور لى. حين كان على وشك التقاط الصورة الأولى ابتسمت ولوحت بيدى لكنه هز رأسه وقال: «اثبتى وانظرى إلى العدسة. لا أحتاج إلا صورًا لوجهك».

بعد أن انتهينا قال لى أخى «محمود» معلقًا: «ربما يبحث لك عن عريس».، ثم ضحك وهو يرى التعبير الذى ارتسم على وجهى وعرفت أنه كان يعابثنى ويحاول إغاظتى، فهو أصغر بكثير من أن يتحدث عن موضوع الزواج بجدية، لكننى وجدتنى أسأل نفسى إذا ما كان ذلك الاحتمال صحيحًا.

لم يخطر ببالى قط أن تكون تلك صورًا لجواز السفر.

وحين عاد أبى للمرة الثالثة كان الظلام قد حل تقريبًا، وجلس هو وأمى بجانب النار وتحدثا طويلا. ولم يقل «محمود» أى شىء بصوت عالٍ ولكنه كان ينظر إلىّ من حين لآخر بطرف عينه ويرقّص حاجبيه ليجعلنى أضحك، وحين قمنا كى ننام كنا لا زلنا نسمع أبى وأمى يتكلمان.

وحين استيقظت فى الصباح وجدت أن أمى قد جمعت كل أشيائى فى بقجة. لم تكن أشياء كثيرة أو ثقيلة، فحين تنفق عمرك كله مرتحلا تتعلم ألا تحمل معك سوى الأشياء المهمة.

وقالت لى أمى: «سوف تذهبين إلى منزل والدك فى مقديشيو. كونى مهذبة مطيعة وافعلى ما تؤمرين به».

فقلت:«ماذا هنالك؟ لماذا سأذهب لمنزل والدى الآخر؟»

فربتت أمى على ذراعى وهى تبتسم ابتسامة صغيرة وقالت: «سرعان ما ستعرفين. أمامك فرصة ممتازة».

لماذا لا تخبرنى أمى بالأمر؟

كنت أريد أن أسألها المزيد من الأسئلة، لكن لم يكن هناك وقت. كان أبى يناديني، وكان الجميع متحلقين حول سيارته فى انتظار أن آتى فأستقل السيارة. كان «محمود» جالسًا أمام عجلة القيادة وهو يتظاهر بأنه يقود أما «زينب» و«ساجال» فقد كانتا تنظران إلىّ بحسد، إذ تحدث معهما «محمود» كما تحدث معى، وها هما تعتقدان أن هناك زيجة فى الطريق.

وعانقنى الجميع، ثم أخرج أبى «محمود» من السيارة وفتح لى الباب وقال: «هل أنتِ مستعدة؟»

فرفعت رأسى ونظرت إليه وقلت: «مستعدة!»، ثم ركبت السيارة.

وما إن انطلقت السيارة بنا حتى أخذت أحاول معرفة ما يجرى. بدأت بالتلميح لكن أبى لم يستجب لتلميحاتى وعندئذ سألته بصراحة:

– أبى..هل ستقوم بتزويجى؟

فاندهش أبى دهشة بالغة وقال: «تزويجك؟ من قال لكِ هذا؟»

فقلت: «لم يقل لى أحد هذا ولكن «محمود» يعتقد أن».

فضحك أبى وقال: «محمود؟ يا له من مؤلف حكايات بارع! هل تذكرين تلك الأغنية التى ألفها عن الماعز؟ يا معزتى الصغيرة..يا نجمة منيرة.. يا أجمل المعزات.. أنتِ التى بالذات.. تحبك الجِمال.. لأنكِ الجَمال.. والكل يرغبونك.. لما رأوا عيونك».

كان أبى يجيد التقليد، وكان يغنى الأغنية بصوت رفيع كصوت «محمود» فكان من المستحيل ألا أضحك، لكننى لم أنس سؤالى، فقلت: «فإذا كنت لا تأخذنى إلى مقديشيو لتزويجى فلماذا تأخذنى؟»

فصمت أبى قليلا ثم قال: «لستِ ذاهبة إلى مقديشيو»، ثم أشاح ببصره عنى وقال: «لقد وجدت لكِ مكانًا فى إنجلترا»

-إنجلترا!

كان صوتى شبيهًا بنقيق ضفدعة وأنا أصيح بالكلمة، فقد كنت أشعر بأن يدين قد أطبقتا على عنقى، ثم قلت: «لماذا ستبعدنى هكذا؟ ما الخطأ الذى اقترفته؟»

فقال: «لم تقترفى أى خطأ، ولو كنتِ فتاة غير صالحة لما جرؤت على إرسالكِ إلى هناك. إنها فرصة رائعة، فستتعلمين تعليمًا ممتازًا».

-لكننى كبرت جدا على الذهاب إلى المدرسة.وكيف سأفهم كلامهم؟

-سيكون لديك فرص لـ..

-لا أريد فرصًا. أريد أن أبقى هنا.. معكم كلكم.

وظللنا طوال الطريق الذى قطعناه عبر الصحراء نتجادل حتى وصلنا إلى الطريق السريع. ولا أذكر أى شىء آخر عن تلك الرحلة، ما عدا ضوضاء جدالنا الذى طال، واليأس الذى حاصرنى كذلك السياج الشوكى الذى نغلقه على الماشية فى الليل.

حين أتذكر تلك الأحداث أتمنى لو أننى التزمت الصمت ونظرت إلى بلادى بدلا من ذلك الجدال العقيم. لن تتاح لى فرصة الترحال عبر صحراء كتلك الصحراء مرة ثانية ، أو على الأقل لن يمكننى أن أجول فيها كابنة من أبنائها بعد الآن. كانت تلك الرحلة نهاية كل شىء عرفته واعتدته فى حياتى السابقة، لكننى لم أفهم هذا آنذاك، فظللت أصيح وأجادل.

وأخيرًا أوقف أبى السيارة ثم التفت فنظر إلىّ لأكف عن الشكوى والتذمر وقال: «توقفى!». وعرفت من نبرة صوته أنه خير لى أن أطيعه. ثم قال: «سنقابل رجلا الآن، ولا أريد أن تظهرينى فى صورة سيئة أمامه. لا تجعلينى أخجل من وجودك. اهدئى وافعلى كل ما تؤمرين به، فالرجل الذى سنقابله هو الذى سيأخذك إلى إنجلترا».

ثم أدار السيارة ثانية ، وظل يقود دون أن ينطق بكلمة، بل أغلق فمه فى صرامة وركز عينيه على الطريق الممتد أمامنا. وكانت تلك المرة الأولى فى حياتى كلها التى ينتابنى فيها خوف حقيقى. أدركت أن أبى لن يغير رأيه أبدًا، وأن ما قاله سيحدث لا محالة.

وقابلنا المهرب خارج حدود المدينة. كان يجلس ساكنًا على جانب الطريق مدخنًا سيجارة. وحين توقفت السيارة أطفأ سيجارته ثم استوى واقفًا وأمرنى أبى أن أغادر السيارة.

وقال المهرب: «إذن هذه خديجة».

ففتحت فمى كى أخبره بأنه مخطئ وأن اسمى ليس «خديجة»، لكنه لم ينتظر أن أتحدث بل قال: «هذا جواز سفرك».

لكنه لم يسلمه لى. بل رفعه فى الهواء بحيث يمكننى رؤية صورتى التى التقطها لى والدى فى الصحراء، وكان الاسم المكتوب تحتها بأحرف واضحة هو «خديجة أحمد موسى»، ثم قال: «هذه أنتِ. وأنا عمك «جوليد موسى على» وسوف آخذكِ إلى عائلتك فى إنجلترا».

–أى عائلة؟

عندئذ نزل أبى من السيارة وأحاط كتفى بذراعه وقال: «أصغى إلى عمك وتذكرى كل حرف مما سيخبركِ به، فما لم تنتبهى وتحفظى هذا الكلام جيدًا قد تقعين فى ورطة».

وقطب المهرب وهو ينظر إلى البقجة التى أحملها وقال: «ما هذا؟»

ولم أفهم سر هذا السؤال الغبى فقلت: «إنها أشيائى التى سآخذها معى».

فنظر إلى أبى وقد بدا عليه الضيق وقال: «لا يمكن أن تأخذ تلك الأشياء معها إلى الطائرة. هل اشتريت ما أخبرتك بأن تشتريه؟»

فأومأ أبى بالإيجاب، ثم فتح باب السيارة الخلفى وأخرج حقيبة سفر رخيصة من البلاستيك. وقبل أن أتمكن من تخمين ما سوف يحدث انتزع منى البقجة–بكل محتوياتها التى هى كل ما أملك فى هذه الدنيا– ثم ألقاها فى صندوق السيارة، ووضع الحقيبة البلاستيكية عند قدمىّ، وقال وقد بدا عليه نفاد الصبر: «افتحيها. ينبغى أن تعرفى جيدًا ما بداخلها».

ففتحت الحقيبة ونظرت. لم يكن بداخلها الكثير. لم يكنْ بها سوى بعض الثياب الكئيبة الألوان، وكيس صغير يحوى صابونًا ومواد للاغتسال والاستحمام، وغطاء رأس كالذى كنت أضعه على رأسى. مجرد قطعة من قماش أسود خفيف.

وقال أبى: «لستِ فى حاجة إلى أشياء كثيرة فستقيمين عند أسرة طيبة سيعتنى أفرادها بكِ جيدًا ولن يعوزك شىء».

ولوح المهرب بيده وكأنه لم يعد يطيق الانتظار وأمرنى أن أحمل الحقيبة، وبينما كنت أمد يدى لأمسك بها صاح بصوت كالنباح: «ما اسمك؟»

فعرفت أنه يختبرنى، وكنت متأهبة فقلت: «خديجة»

– «خديجة» من؟

– «خديجة أحمد موسى».

كان الاسم قد التصق بذهنى بمجرد رؤيتى إياه.

– ومن أنا؟

– «جوليد موسى على».

– «جوليد موسى على»؟

ولبرهة لم أفهم قصده، لكنه ظل هو وأبى ينظران إلىّ منتظرين أن أفهم. كنت أعرف أنهما لا زالا يختبراننى ، فقلت ببطء: «جوليد.. موسى.. على»

ثم فهمت، فقلت: «عمى ..عمى «جوليد موسى على».يجب أن أناديك بعمى ».

فقال: «لا تنسى ذلك».

لم يكن يبتسم على الإطلاق، ثم قال: «والآن احملى حقيبتكِ ولنذهب. حان وقت ركوب القارب»

وبدأ يسير، ونظرت إلى أبى على أمل أن يكون لا يزال هناك مهرب من هذا كله، لكن هيهات فقد رأيت أبى يهز رأسه وكأنه يقول: «لا تحاولى». ثم قال: «إننى أفعل ما فيه الخير لك. لقد دفعتُ نقودًا كثيرة كى أضمن أن تصلى إلى إنجلترا فلا تضيعى هذا كله الآن».

– لكننى لم أطلب منك أن..

ولم أتم جملتى فقد قبض أبى على ذراعى ونظر إلىّ قائلا: «اسمعى. ليس بإمكانكِ أن تحققى أى شىء، هنا. إن الأوضاع تزداد سوءًا خاصة لمن كان مثلنا من الرُحّل وعما قريب لن يبقى لنا أى شىء. إذا ذهبتِ إلى إنجلترا فعما قريب سيكون بوسعكِ إنقاذ العائلة كلها، وربما– فى يومٍ ما– تستطيعين العودة وإنقاذ الصومال كله أيضًا».

منذ أسبوع لم أكن سوى فتاة ترعى الأغنام وتتوقع أن تحيا حياة لا تختلف كثيرًا عن حياة أمها. كنت أعتقد أننى سوف أتزوج يومًا ما وأنجب أطفالا وأربيهم وأعلمهم، أما الآن فقد صرت فجأة مسؤولة عن العائلة كلها، وعن مصير بلدى أيضًا.

ولدقيقة انتابنى خوف ألجم لسانى فعجزت عن الرد على أبى، لكننى كنت موقنة أنه لن يغير رأيه. لقد اختارنى لتلك المهمة وليس أمامى

إلا الانصياع لإرادته، فشددت قامتى ونظرت فى عينيه وقلت: «حسنًا.. سأفعل».

ولم يكن هناك وقت لأى شىء آخر. كان المهرب ينادينى فى نفاد صبر وهو يحث الخطى على الطريق. كان قلقًا من احتمال أن يفوتنا القارب. وربت أبى على ذراعى ثم قفز إلى داخل السيارة وبينما كان يديرها لينطلق رأيت وجهه وقد خلا من أى تعبير فصار كالقناع.

وحملت الحقيبة وانطلقت أسير لألحق بذلك الرجل الذى كان سيأخذنى إلى بعيد.

أخذنى الرجل أولا إلى كينيا بالقارب. عادة ما تكون الرحلات من هذا النوع شديدة الخطورة؛ إذ إن القوارب تكون دائمًا مكتظة بالبشر الذين تفوق أعدادهم حمولتها، كما أن البحر يعج بأسماك القرش. مات المئات ميتات بشعة وهم يحاولون فعل ما أفعله الآن، لكننى لم أعرف ذلك إلا بعد أن انتهت الرحلة كلها بوقت طويل. أما حين كنا فى عرض البحر فقد كان لدىّ أشياء أخرى لأقلق بشأنها.

كان القارب صغيرًا. وكنت محشورة أكاد أنسحق بين رجال لا أعرفهم. وكانت تلك المرة الأولى التى أركب فيها قاربًا. لم يكن «عمى» قد أخبرنى بأن القارب سيظل يتأرجح بين الأمواج المتلاطمة على هذا النحو. كنت أشعر برعب فظيع يملؤنى، ولم تكن تمر لحظة دون أن أشعر بأننى سأتقيأ.

وحاولت أن أشغل نفسى عما أشعر به، فأغمضت عينى وأخذت أركز ذهنى على حفظ ما لقننى عمى إياه، وأكرره المرة تلو الأخرى فى رأسى.

«أنا خديجة أحمد موسى. عمرى ثلاث عشرة سنة وأنا ذاهبة إلى إنجلترا حيث أمى وأخى وشقيقاتى. شقيقاتى هن «فوزية» و«زهرة» و«ماريان».. «فوزية» فى الحادية عشرة من عمرها، و«ماريان» فى السابعة، و«زهرة» فى الرابعة. وأخى «عابدى» عمره أربعة عشر عامًا.

ولم أحاول أن أتخيل وجوههم وأشكالهم. لم يكونوا بالنسبة لى بشرًا على الإطلاق، بل مجرد كلمات علىّ أن أحفظها، فإذا ما أخطأت فلن يسمح لى بدخول إنجلترا وستذهب النقود التى دفعها أبى هدرًا.

«أنا خديجة..».

كانت الساعات التى قضيتها فى القارب أسوأ ساعات فى حياتى كلها. لم أنج إلا بإغماض عينى عن كل ما يجرى حولى، وحين رسا القارب فى كينيا شعرت فعلا بأننى إنسانة مختلفة.

كان عمى مسؤلاً عن نقلى إلى إنجلترا بهذه الطريقة- طريقة التنقل من بلد إلى بلد- مقابل الأموال التى دفعها أبى. كان هذا عمله الذى يحترفه. وقد فعل كل ما كان يفترض به فعله حرفيا، بلا زيادة أو نقصان.

وما إن غادرنا القارب حتى ركبنا سيارة، ثم طائرة، وفى كل مرة كنا نصل إلى نقطة تفتيش فيبتسم عمى لى ابتسامة حانية. كان هذا جزءًا من

...ا. وكانت الابتسامة تختفى بمجرد اجتيازنا نقطة التفتيش ويعود إلى ... اهلى فى الحال، حتى ونحن جالسان جنبًا إلى جنب.

كان بإمكانى أن أهرب حين هبطنا بالطائرة فى «دبى» استعدادًا لاستقلال طائرة أخرى فقد قادنى عمى إلى مقعد فى المطار وأمرنى أن ألزم مكانى حتى يعود، لكن إلى أين كان يمكننى أن أهرب؟ لم أكن أعرف أى شيء عن ذلك المكان، ولم يكن معى جواز سفر سوى ذلك الذى كان عمى يحمله فى جيبه. لقد دفع أبى نقودًا كى أذهب إلى إنجلترا إذن ينبغى أن أذهب إلى إنجلترا. وهكذا ظللت جالسة فى المقعد وأنا أرتجف بسبب المكيف الذى كان ينشر الهواء البارد دون توقف، وركزت اهتمامى على ترديد الكلمات إياها فى ذهنى: «اسمى خديجة..إلخ».

حين هبطت طائرتنا فى لندن كانت السماء ملبدة بغيوم رمادية وكان المطر يهطل. لم يكن مطرًا نظيفًا غزيرًا كمطر بلادى، بل كان رذاذًا كئيبًا لا يتوقف. ولما كان كل شيء حولى من الخرسانة فقد شككت فى إمكانية أن يتسبب ذلك المطر فى نمو أى نباتات.

شعرت بأننى قاسية باردة وكأننى صرت جزءًا من الأرضية الخرسانية. ربما اختلف كل شيء لو لم أكن أشعر بذلك.. ربما لو وقفت أمام ضباط المطار بعينين يبدو فيهما الشعور بالذنب وقد أخذ قلبى يخفق بسرعة لمنعونى من دخول إنجلترا وأعادونى إلى وطنى، لكننى كنت أشعر داخلى بجمود وصلابة وسيطر علىّ صمت وثبات. وهكذا نظر الضباط إلى وجهى ثم إلى جواز سفرى ثم سمحوا لى بدخول البلد.

فى المطار كان هناك أناس من مختلف البلدان، وكانوا جميعًا حريصين على عدم النظر إلى بعضهم بعضًا. نفس الشىء لاحظته فى الحافلة التى ركبناها بعد ذلك. وسألت نفسى: «هل المدينة كلها هكذا؟ هل تكتظ بآلاف الناس الذين يتظاهرون بأنه لا وجود لأحد سواهم؟»

ومضينا نتنقل عبر شوارع حافلة بمبانٍ عالية رمادية مصفرة، وظل المطر الذى لا فائدة له يهطل طوال رحلتنا. وحين نظرت إلى السماء لم أجد أثرًا للشمس. هل الشمس مختفية دائمًا هنا هكذا؟

وظننت أن عمى كان سيأخذنى إلى منزل أسرتى الجديدة مباشرة وأنه سرعان ما سيقدمنى إلى «عابدى» وأخواتى والمرأة التى ستصير أمى، لكن ما حدث كان مختلفًا كل الاختلاف عما ظننت.فحين ترجلنا من الحافلة أخرج عمى حفنة من العملات المعدنية من جيبه وأعطاها لى وقال: «هل تستطيعين استخدام الهاتف العمومى؟»

فرفعت رأسى وقلت: «بالطبع».

فأشار بإصبعه إلى مكانٍ على الطريق وقال: «هل ترين كابينة الهاتف تلك؟ ضعى العملات فى الفتحة ثم اتصلى بالرقم الذى سأعطيه لكِ ثم ابقى فى الكابينة بعد انتهاء المكالمة وسوف يأتى الشخص الذى ستتصلين به ليأخذكِ».

وكانت دهشتى شديدة حتى إننى عجزت عن فعل أى شىء سوى الحملقة فى وجهه، فقال وقد نفد صبره: «لا تضيعى الوقت فستثيرين شكوك الناس إذا ما ظللتِ تتصرفين بهذه الطريقة. اذهبى!»

ووضع بطاقة صغيرة فى يدى ثم دفعنى لأتحرك نحو الكابينة.

وببطء حملت حقيبتى وبدأت أسير فى اتجاه الهاتف، وحين وصلت التفتُ خلفى فوجدت أن «عمى» قد اختفى تمامًا. انتهت الرحلة.. انتهت مهمته، وها أنا أسير وحدى على قدمىّ فى طريقٍ لا أعرفه.

كان الهاتف يختلف عن الهواتف العمومية التى أعرفها لكن استخدامه لم يكن صعبًا. وضعت المال فى الفتحة ثم ضغطت الأزرار بتأنٍ وأنا أنظر فى البطاقة بين الحين والآخر لأتأكد من الرقم، فليس معى أى نقود أخرى وهكذا فلن يمكننى إجراء معاودة الاتصال إذا حدث أى خطأ.

دق جرس الهاتف مرتين فقط قبل أن أسمع صوت ولدٍ يقول: «ألو».. كان يتحدث الصومالية ولكن لكنته كانت غريبة جدا. قال لى: «هل أنتِ فى كابينة الهاتف؟» فقلت: «نعم ولكننى لا أعرف أصلا أين كابينة الهاتف». فقال: «انتظرى وحسب وسوف آتى لآخذكِ».

ووضع السماعة، وظللت واقفة داخل الكابينة ممسكة بالسماعة أقطع الطريق الممتد أمامى ببصرى وأتساءل كيف سأميز ذلك الولد حين يأتى؟ لكن لم يكن هناك داعٍ للقلق لأن الأمر كان أسهل مما تخيلت. عرفته بمجرد أن ظهر. كان فتى صوماليا طويلا يتجه إلى الكابينة مباشرةً.

وفتح الباب ثم حدق فى وقال: «أنا عابدى». وترددت ولم أقل شيئًا فكرر ما قاله، لكنه هذه المرة قال اسمه كاملا: «عبد الرحمن أحمد موسى».

وكان أكبر بكثير من «محمود»، وكان مثله طويلا ولكنه كان ولدًا أكثر منه رجلا، بعكس «محمود». وفى تلك اللحظة فقط أدركت كم ابتعدت عن الصومال، وعن نفسى.. كنت فى مكان يتحول فيه الصوماليون إلى أناس مختلفين، و علىّ أن أتعلم العيش هنا.

ورفعت رأسى وحدقت فيه بدورى وقلت: «وأنا خديجة أحمد موسى».

فيريا

لم أكن أعرف «عابدى» أو «خديجة» وقتذاك، ولم تكن الصومال سوى اسم ضمن قائمة أسماء تعلمت ترديدها طيلة حياتى، فقد اعتدت أن أتحدث عن نفسى فأقول إن أبى كان مصورًا حربيا فى دارفور وأفغانستان ورواندا والصومال. وكانت لدينا صور يمكننى عرضها وأنا أردد تلك الكلمات بالطبع، فالمصور-كما تعلمون- عمله التقاط الصور، لكنها لم تكن صورًا من النوع الذى يصلح لأن يراه طفل صغير. وحين كبرت بما فيه الكفاية كى أراها كانت رحلات أبى قد صارت ماضيًا، وصار من الصعب أن أعرف أين التقطت كل منها بالتحديد. كانت كلها صورًا للعنف والحزن والغبار الثائر فى كل مكان، واختلطت الأماكن جميعا فى ذهنى فلم أعد أستطيع التمييز بينها.

أعتقد أنه كان قد مضى على قدوم «خديجة» إلى إنجلترا حوالى خمسة أو ستة أشهر حين عرفت بالتحديد أين تقع الصومال. قفزت الصومال من الخريطة فجأة فدخلت حياتى. أتذكر لحظة حدوث هذا بوضوح فقد كنت حينئذ أتناول الإفطار مع «ساندى».

ربما لا يبدو ذلك أمرًا مميزًا يستحق التذكر فى نظركم فربما أنتم من الذين يتناولون إفطارهم مع أمهاتهم يوميا، لكن إذا كان الأمر كذلك فلابد أن أمهاتكم لسن «ماركة عالمية»..لا يمكن أن يكنَّ من الذين يعملن أربع عشرة ساعة فى اليوم ثم يعدن منهكات من مكان عملهن وهن يحملن كومة هائلة من التصميمات، ورءوسهن تكاد تنفجر من الصداع.

فى الأيام العادية لا أرى «ساندى» إلا فى المساء، وأحيانًا لا أراها حتى فى المساء، لكن ذلك الصباح كان استثنائيا؛ إذ كانت قد عادت للتو من باريس بعد حضور فعاليات أسبوع الموضة ومعرض الأقمشة الضخم هناك، وكانت تجلس فى مواجهتى وقد رصت أمامها كومة ضخمة من الكتب.

كانت باريس دائمًا تجعل رأسها يطن، وحين تصل إلى الوطن تكون الأفكار قد ملأت رأسها بالفعل.. أفكار عن مجموعة أزيائها القادمة، وكانت عادة تعرض تلك الأفكار على مائدة الإفطار، على هيئة قطع قماش وصور كانت تظل تحركها هنا وهناك، لا كتب، لذا لم أفهم ما تنويه.

فى الليلة السابقة كانت قد أتت إلى شقة أبى لتأخذنى معها وهى عائدة من المطار. وكان أبى قد أعد لنا طعامًا بالطبع لكنها لم تأكل شيئًا فقد كانت مشغولة بالتنقيب بين كتبه، دون تفسير لما تفعل، ثم أخذت ما وقع اختيارها عليه من كتب، وها هو يرقد الآن فوق مائدة الإفطار على هيئة كومة عالية. كانت كتبًا ضخمة ألوانها كابية وبعضها مستعمل ذو أغلفة بالية. وانحنيت

وأنا أمضغ قطعة من خبز البيجل لأقرأ بعض العناوين، أذكر منها «تاريخ الصومال الحديث» و«أنا ضد أخي: يوميات الحرب في الصومال والسودان ورواندا» (ترى هل لأبي علاقة بهذا الكتاب؟) و«ما الذي حدث للصومال؟».

ولم تبد الكتب من النوع الذي قد تقرؤه «ساندي»، فما الذي تخطط له يا ترى؟ ومددت عنقي للأمام أكثر في محاولة لرؤية الكتب التي كانت تمسك بها، لكن قبل أن أتمكن من قراءة أسمائها نظرت إليّ «ساندي» فجأة وكان وجهها متوردًا ينطق بالحماس، وقالت: «هل تعلمين أن الصومال تنتج المر؟» فرمشت بعيني وقلت: «حقا؟ وماذا عن اللبان والذهب؟» فقلصت وجهها في استخفاف وقالت: «لا داعي لهذا الهوس بالدين».، ثم نظرت إلى الكتاب ورفعت حاجبيها وقالت: «ياه! اسمعي. أنا لست متأكدة من وجود الذهب لكنها بالفعل تزرع اللبان، وانظري إلى الأقمشة! كنت واثقة أنني قد رأيت تلك الأقمشة في مكانٍ ما قبل الآن». ، ثم مالت إلى الأمام فاقتربت من الكتاب أكثر وأخذت تدقق النظر في صورة فوتوغرافية، ثم أزاحت الكتاب نحوي كي أنظر بنفسي.

كانت الصورة لخرائب وأنقاض.

أي إنسانة أنتِ يا «ساندي نكستر»؟ كانت المرأة التي تقف أمام الأنقاض تغطي رأسها بإيشارب كبير منقوش، حملت فوقه كومة من المر، لكن هل كانت «ساندي» تنتظر مني فعلا أن أركز على الإيشارب؟

وماذا عن المبنى الذى تقف المرأة أمامه والذى تحول إلى ما يشبه المصفاة من كثرة ما أصابه من الرصاص؟ وماذا عن ذلك الصبى الذى يظهر فى الخلفية حاملا بندقية آلية؟

وقلت: «من يهتم بالأقمشة اللعينة؟»

فهزت رأسها فى نفاد صبر وقالت: «انظرى! إن هذا الإيشارب هو الشىء الوحيد الملون فى الصورة كلها. لماذا فى رأيكِ اختارت المرأة هذا اللون الفاقع؟ دعينى أقل لك: لأن هذا ما يحتاجه الناس حين تسوء الأحوال. الألوان والنقوش».

ثم لوحت بيدها وشرعت تلقى خطبة غاضبة عن أهمية الثياب.

أنا أكره الموضة.. أكره تلك الطريقة التى تمضغ بها صناعة الأزياء الحياة ثم تبصقها فى هيئة تى شيرتات وأزياء وحقائب يد لا حصر لأنواعها. إذا أردتم رأيى فإننى أرى أن صناعة الموضة تافهة لا نفع فيها، لكن رأى «ساندى» مختلف تمامًا؛ فحين تتكلم عن الأزياء تتشنج عضلات وجهها وتبدو عليها الجدية الشديدة وهى تقول: «إن الموضة طريقة لفهم هذا العالم. إنها جزء من إنسانيتنا وحضارتنا».

مممم.. حسنًا. إذا كانت الموضة سكينًا فإن مكان «ساندى» على النصل، وهى تقطع كل شىء.. كل ما عداها.. بثقتها الرهيبة بنفسها، وتعاليها، ورضاها عن نفسها إلى حد مستفز، بالطبع هذا ما يجعلها رمزًا

من الرموز، حتى صديقتى «روبى» جحظت عيناها دهشة حين اكتشفت أن «ساندى» أمى. وقالت: «هل تقصدين أن أمكِ هى.. هى «ساندى دكستر بنفسها؟»

نعم. هذا صحيح.. صحيح أننى لست ملكة الأناقة فى المدرسة لكننى ابنة «ساندى دكستر» الشهيرة غريبة الأطوار، أيقونة الموضة..التى يمكنها تحويل أى شىء تتخيلونه إلى موضة.. أى شىء. وهى لا تبذل مجهودًا كبيرًا كى تحقق هذا، بل لديها القدرة على تنفيذ أفكارها بدقة واحترافية كما تراها فى ذهنها تمامًا. فتخرج إلى الحياة تمامًا كما أرادت لها أن تكون.

وكانت أفكارها هذه المرة تدور حول تلك الصورة.

ظلت تحدق فيها حتى بردت قهوتها، ثم وقفت وغمغمت قائلة إنها تريد كراسة. وقالت: «يمكننا أن نخرج لاحقًا. أليس كذلك يا «فيريا»؟ أريد أن أدون بعض الملاحظات أولا».

وكنت أعرف ما يعنيه هذا. كنت أدرك أننى لن أراها لبقية اليوم وحتى يحين العشاء. أمس فى المساء خططنا لقضاء اليوم بأكمله معًا وفعل أشياء سخيفة لذيذة كالتزحلق على الجليد وتناول الدجاج والفراولة فى المتنزه، لكننى لم أحسب حساب ما يحدث الآن.

وحين انتهيت من احتساء قهوتى خرجت لشراء بعض اللوازم الأساسية، فلم يكن هناك أى جدوى من الاعتماد على ذاكرة «ساندى» فيما

يتعلق بشراء لوازم المنزل، أما أنا فعلى الأقل يمكننى أن أوفر الحد الأدنى من الطعام الذى نحتاجه بأن أذهب للتسوق.

لكننى غبت فى الخارج لمدة أطول مما كنت أنوى! ففى طريقى إلى السوبر ماركت اتصلت بى «روبى» فتقابلنا وتناولنا الغداء معًا، ثم سرنا معًا نتفرج على واجهات محلاتنا المفضلة، واشتريت أسطوانة دى فى دى لفيلم «القبعة العالية». أحب الأفلام القديمة، وليس هناك ما هو أفضل من فيلم من بطولة «جنجر روجرز» و «فريد إستر» حين يكون المرء مكتئبًا.

وحين عدت إلى المنزل كانت «ساندى» قد خرجت، وكانت هناك رسالة على جهاز الرد الآلى تقول: «كيف حالك يا «فيريا»؟ طلبت منى «ساندى» أن أتصل بكِ». لم يكن لى أن أخطئ ذلك الصوت المتردد بلهجته الأستونية. إنه «ستيفان» نجم الأزياء الجديد الذى تعده «ساندى». وسعل «ستيفان» وهو يقول وكأنه يعتذر: «لقد..آآآه... لقد اضطرت «ساندى» إلى السفر لبضعة أيام. أرجو ألا يكون لديكِ مانع أن تبقى فى منزل والدكِ.. و.. وإذا ما كانت هناك أى مشاكل اتصلى بى على الفور».

تقولون إن أمهاتكم لا تسافر هكذا فجأة أبدًا؟ إذن فاعلموا أن هذا ما كان يحدث طوال حياتى. فحين تراود «ساندى» فكرة جديدة لا يمكنها أبدًا أن تتوقف عن التفكير فيها، وإما أن تحبس نفسها فى ورشتها طوال الليل أو تسافر.

فى طفولتى كان هناك دائمًا من يعتنى بى. كن دائمًا فتيات أجنبيات ممن يقمن فى البلاد للتعلم. وغالبًا كن حديثات الوصول إلى البلاد، ولا يعرفن أى شىء عن أى شىء. وكانت الأمور تسير بشكل لا بأس به، لكن ليس ممتازًا بالطبع، إلا أن الأمور تحسنت كثيرًا بعد أن اعتزل أبى عمله بوصفه مصورًا صحفيًا وبدأ العمل بالتدريس. فى الحقيقة لا يزال يقوم بالتصوير أحيانًا، لكن أغلب صوره الآن لا علاقة لها بالحروب. إنها صور يلتقطها هنا فى إنجلترا، وشقته ليست بعيدة.

أعددت لنفسى بعض القهوة ثم اتصلت به، وقلت له: «لقد سافرت «ساندى» ثانية . أنا آسفة».

–انتظرى لحظة.

قالها أبى ثم غمغم بشىء ما باقتضاب موجهًا حديثه إلى شخص ما، ثم عاد إلى الهاتف وقال: «هل تحتاجين إلى مساعدة فى حمل أشيائك؟»

فنظرت إلى أكياس البقالة التى اشتريتها للتو وأدركت أنها ستفسد إذا تركتها فى شقة «ساندى» فقلت: «نعم، لكن لا داعى للعجلة».

– إذن ما رأيكِ فى أن آتى لآخذكِ فى خلال ساعة.

فقلت: «جيد. لن يأخذ جمع أشيائى وقتًا طويلا ».

هل ما يحدث لى طبيعى؟؟ أنا حتى لم أكن قد تمكنت من إفراغ نصف حقيبتى. ليس علىّ إلا أن أضع ما أخرجته بالأمس من الحقيبة فى مكانه

ثانية وسرعان ما سأكون مستعدة للمغادرة فى أقل من ربع ساعة. وكان علىّ أن أجد شيئـًا أفعله حتى يحين موعد المغادرة، لذا فقد ذهبت وجلست أمام منضدة المطبخ وأخذت أتصفح الكتب التى تركتها «ساندى»، ولم أكد أندمج حتى رن جرس الباب.

بالضبط بعد ساعة من مكالمتى مع أبى.

أنا أحب أبى لأسباب كثيرة، من أهمها كونهَ إنسانـًا يعتمد عليه إلى أبعد الحدود.

حين فتحت الباب كان واقفـًا فى الممر يبتسم ثم قال وهو يحمل الحقائب عنى: «كان ينبغى أن أحاول معرفة نوعية الكتب التى استولت عليها «ساندى» من مكتبتى. ما الأمر هذه المرة؟»

لكن ما تفعله «ساندى» يظل دائمًا سرًا حتى يحين يوم العرض فيرى الجميع العارضات يتبخترن وهن يرتدينه. وحتى لو كنت أعرف أى شىء فليس مسموحًا لى الحديث مع صديقاتى خشية إفشاء الأسرار، لكنها تسمح لى بالحديث مع أبى فى مثل هذه الأمور فعلى الرغم من انفصالهما لا تزال ثقة «ساندى» فيه أكبر من ثقتها فى أى إنسان.

فقلت: «الصومال».

عندئذ رفع أبى حاجبيه حتى كادا يقفزان من وجهه، وقال: «الصومال؟ ماذا ستفعل هناك؟ هناك لا يمكنها أن..» فقلت فى امتعاض ومرارة: «بل

يمكنها»، ثم رفعت حقيبتى وعلقتها فى ذراعى وقلت: «إنها شديدة التبلد واللامبالاة. كانت تقرأ كتابًا هذا الصباح وتقول لى انظرى إلى الأقمشة! وكأن لا شىء فى الموضوع كله له أهمية سوى الأقمشة. لا يعنيها أى شىء فى الحياة سوى الموضة». فقال أبى: «صحيح؛ إنها شديدة الاهتمام بالموضة، كالجميع، لكنها تبالغ وتتمادى فلا ترى أى شىء سوى الظلال والنسيج والألوان. هذه طبيعتها يا «فيرى». هل يمكنكِ أن تتخيليها تفعل شيئًا آخر، كأن تكتب إلى أعضاء البرلمان مثلا عن مشاكل الناس، أو أن تسير فى المسيرات؟»

وخرجت من الشقة وصفقت الباب خلفى وأنا أقول: «سيكون هذا أفيد. ربما اقترحت عليها.هذا حين تعود».

عندئذ تبددت الابتسامة التى كانت مرتسمة على وجه أبى وقال: «هل تقصدين أنها ذهبت إلى الصومال بنفسها؟» كان يحاول أن يبدو هادئًا مطمئنًا، لكنه فشل فى ذلك. ونظرت إلى وجهه وقلبى يخفق وينتفض وقلت: «لا أعتقد هذا. لماذا؟ هل السفر إلى هناك خطر؟»

فأشاح بوجهه عنى وحث الخطى نحو المصعد وهو يقول: «إلى حد ما». ولم يزد حرفًا على ذلك. أبى ليس من النوع الثرثار (وهذا سبب إضافى يزيد من حبى له)، لكن صمته ونحن نغادر المكان كان فوق المعتاد.

وحاولت أن أصرف ذهنى عما يطوف به من مخاوف فقلت: «هل تعلم؟ لقد بدأت للتو أقرأ كتابًا من الكتب التى استعارتها «ساندى» منك. حزر فزر ما الذى أخذه الصينيون من الصوماليين فى القرن العاشر؟»

فقال أبى وهو شارد الذهن: «البخور؟». كنت واثقة أنه غير منتبه، لكننى هززت رأسى نفيًا وقلت: «لا.. خمن ثانية».

فرسم على وجهه تعبير الاستغراق فى التفكير ثم هز كتفيه وقال: «لا أعرف. غلب حمارى. ما الذى أخذه الصينيون من الصوماليين فى القرن العاشر؟»

فقلت وأنا آتى بحركة درامية: «الزراف!»

لم يأت أبى بأى رد فعل على الإطلاق. وانتظرت أن يدرك غرابة الإجابة لكنه استمر يسير دون حتى أن ينظر إلىّ.

وعجزت عن الاحتمال أكثر من ذلك فقلت: «أوه. بالله عليك ألا يدهشك ما قلت؟ لماذا قد يحتاج الصينيون أصلا إلى الزراف؟»

كان هذا النوع من التحديات الطفولية يروق له عادة. فمثلا لو كان فى حالته الطبيعية لأخذ يفكر فى خمسة عشر شيئًا يمكن للمرء أن يستخدم الزراف فيها، لكن ليس اليوم، إذ نظر لى وابتسم ابتسامة شاحبة وحسب. وعلمت أنه كان يحاول التفكير فى شىء مضحك ليقوله، لكن ذهنه لم يسعفه سوى باقتراح هزيل إذ قال: «ربما كانوا يستخدمونها فى تقليم الأشجار».، ولم أضحك، لكن لا أعتقد أنه لاحظ ذلك، بل ظل مستغرقًا فى قلقه ومخاوفه وهو يخطو إلى داخل العمارة التى فيها شقته، ثم يستقل المصعد دون أن يتفوه بكلمة. وظل صامتًا هكذا حتى دلفنا إلى الشقة.

كانت شقته هادئة غير نابضة بالحيوية، بعكس شقة «ساندى» المليئة باللوحات ومراجع الموضة وقصاصات القماش المكدسة فوق المناضد التى تعمل عليها، والتى تتدلى من فوق المناضد على الأرض. أبى لا يحب إلا المساحات الواسعة والضوء والهواء وليس فى شقته أى ديكور سوى ذلك الجدار الذى تحتله من أعلاه إلى أسفله نافذة ضخمة، تطل على منظر رائع، إذ يرى المرء منها المدينة كلها.

كانت الشقة شبه مظلمة حين دخلناها، وأعد لى أبى كوبًا من الشوكولاتة الساخنة مع المارشميللو وأخذت أحتسيه وأنا أتطلع إلى زرقة السماء الدكناء، وأحدق فى أضواء المدينة الملونة الجميلة التى طغى سطوعها على ضوء النجوم الحقيقية.

حين فرغت من احتساء مشروب عدت إلى الغرفة، حيث وجدت أبى واقفًا وقد أمسك بالحقيبة التى تحوى كاميرته، وكان ينظر إلىّ وإلى النافذة وكأنه يفكر فى شىءٍ ما.

أنا أكره أن تلتقط لى الصور، فالتصوير لعارضات الأزياء ذوات السيقان الطويلة، وللنجمات الجميلات. هذه هى الصور التى يلتقطها أبى حاليًا منذ ترك العمل الصحفى، أما أنا فلا.. أنا أكره أن «يصوب» الكاميرا نحوى هكذا.

وقال أبى محاولا إغرائى: «هيا يا «فيرى».. ثقى بى.. ستكون صورة رائعة».

أردت أن أرفض لكن–على الأقل– لو وافقت فسيشغله ذلك عن التفكير فى موضوع «ساندى» ولو قليلا، فأومأت موافقة ، على مضض، وعدت إلى الوراء حتى اقتربت من النافذة وقلت: «هل أقف هكذا؟» فهز رأسه نفيًا وقال: «لا تجبرى نفسكِ على اتخاذ وضع معين، بل انسينى تمامًا وانظرى إلى القمر وحسب».

لم أكن قد لاحظت وجود القمر أصلا، لكنه كان موجودًا، أعلى المبانى. لم يكن سوى هلال نحيل شاحب، وكأنه سحابة فضية توشك أن تتبدد. ورفعت رأسى أحدق فيه، وفجأة–ولسبب أجهله–وجدت نفسى أفكر فى الصومال ثانيةً. إن التوقيت هناك يسبق توقيتنا بثلاث ساعات، أى إن منتصف الليل قد حل هناك. ترى هل ثمة فتاة صومالية تنظر إلى القمر كما أنظر الآن؟ لو كانت هناك مثل هذه الفتاة فلربما كان عدد النجوم التى تراها يفوق عدد النجوم التى أراها..

لكنه كان القمر نفسه.

وحين انتهينا أشار إلىّ أبى كى أقترب وأنظر قائلا: «إنها صورة جميلة. إذا أعجبتكِ فسوف أطبعها لكِ».

لم يكن أبى يصورنى صورًا مباشرةً مطلقًا، وكانت الصورة غير مباشرة هذه المرة أيضًا كسابقاتها، إذ كان قد صور زجاج النافذة وقد انطبع عليه وجهى. كنت أبدو فى الصورة وكأننى أسبح فى سماء الليل كأننى شبح شفاف. كانت صورة جميلة فعلا.

لكن الوجه كان وجهى.. وجهى المربع الشاحب الذى تغطى جبهته خصلة شعر مجعدة قليلا.

وقلت: «إننى أشبه البقرة».

فقلص أبى وجهه استنكارًا وقال: «معظم الناس يفضلون البقرة على الزرافة!»، فقلت: «ليس إن كانوا من أهل الصومال. هناك إما الإبل وإلا فلا».

أخيرًا نجحت فى جعله يضحك، وقال: «إذن فلن تكونى نجمة هناك أبدًا». ثم ربت على خدى وقال: «اذهبى للنوم يا «فيريا». أنتِ فعلا جميلة».

* * * * * * * * * * * * * *

و«محمود» كان معه صورة أيضـًا.. صورة لأخته «جى-رى» وهى ترحل فى سيارة أبيهما. كانت ملتفتة تلوح للباقين وكانت هناك ابتسامة عريضة على وجهها. كان يرى الابتسامة بوضوح رغم كل الغبار الذى أثارته السيارة وهى تنطلق.

لم تكن الصورة حقيقية، فلم تكن موجودة إلا فى رأسه، لكنها كانت كما هى، لا تتغير أبدًا، فكلما فكر فى «جى-رى» تتراءى له مبتسمة ملوحة، وسط كل ما حدث فى الشهور التى تلت رحيلها.

ظلت تبتسم بينما كان الجفاف يقضى على المرعى.. وظلت تبتسم وهم يبيعون الماعز والخراف لشراء الطعام للإبل.

وكانت لا تزال تبتسم حين بدأت الإبل تنفق.

كان الجفاف السبب وراء نفوق الإبل، إذ أخذت تتساقط- الواحدة تلو الأخرى- أثناء رحيل العائلة من مكان إلى مكان. كانوا يعثرون على الماء فى

بعض الأماكن لكن سرعان ما كان يأتى آخرون فينازعونهم عليه، فقد كان الناس على استعداد لفعل أى شىء لإنقاذ حيواناتهم.

كان أعمام «محمود» ينفقون نهارهم كله فى مراقبة السماء، لعل وعسى أن يلوح لهم أى بشير بقرب هطول المطر، غير أن السماء الزرقاء الحارقة لم تجد عليهم ولو بقطرة ماء واحدة. وكانوا يتحلقون ليلا حول النار يتشاورون حول مكان محطتهم التالية، وهو ما لم يكن يسهل تحديده أبدًا.

وظلوا سائرين لمدة أسبوع، دون أن يجدوا ماءً، قاصدين المحطة الوحيدة المتبقية. كان «محمود» يسير خلف القافلة، وسط الماعز، وكان يدرك أنه لا جدوى من رحلتهم تلك قبل أن يصلوا إلى البئر بكثير، فقد كانت الأرض متربة جافة، وعلى البعد رأى أعمامه متحلقين حول البئر يهزون رءوسهم أسفًا، ورأى أمه تشد قامتها وتستعد لحمل البقج الثقيلة ثانية .

لا ماء.

ماذا يفعلون؟

وتحدثوا مرة ثانية فى ذلك الموضوع فى المساء، وظلوا يعيدون طرح الأفكار نفسها غير المجدية، المرة تلو الأخرى.. نفس الأفكار التى استمروا فى مناقشتها طوال شهور، لكن كلماتهم كانت خاوية، تمامًا كالبئر، لأنهم جميعًا كانوا يعرفون الخيارات المتاحة، والتى إما أن يلجأوا إليها وإمَّا أن يصيبهم الجفاف كتلك الأشجار التى صارت أشواكًا، ويموتون.

كان الحل المتاح كالتالى: إن لم يعثروا على ماء فعليهم الاستسلام والكف عن البحث. كانوا مضطرين إلى أن يقصدوا المخيم ويطلبوا الطعام.

عابدى

كانت «خديجة» هادئة جدا حين جاءت. أعتقد أنها كانت تجاهد لتفهم حديث المدرسين فى المدرسة بالإنجليزية، ولم أكن أراها كثيرًا هناك، فقد كانت ترافق الفتيات الصوماليات طوال الوقت، وكانت دائمًا على هامش «الشلة». أما فى المنزل فقد كانت دائمًا مشغولة بمساعدة أمى، ونادرًا ما كانت تتحدث معى طوال الأشهر الستة الأولى من إقامتها معنا.

ثم وصلتنا أنباء عن الجفاف الذى حل بالصومال.

بالطبع لم يُذكر شىء عن الجفاف فى نشرة الأخبار التى يبثها التليفزيون، ولو اعتمدنا على تلك النشرة فقط لما عرفنا أى شىء عما يحدث فى الصومال أصلا، لكن هناك على شبكة الإنترنت مواقع إخبارية صومالية كان الكبار يهتمون بمتابعتها. كانوا يجتمعون فى مقهى الإنترنت الذى يملكه «سليمان» ويتحدثون ويشربون القهوة وهم يتصفحون تلك المواقع ثم يخبرون الآخرين بما قروه.

وكنت كلما ذهبت إلى المسجد سمعت الرجال يتحدثون عن فظاعة ذلك الجفاف. كانت الجدية تبدو على وجوههم، والقلق فى أصواتهم، لكنهم

كانوا يتحدثون بسرعة بالغة فلم أكن أفهم كل ما يقولون، لكننى مع ذلك لم أحاول تصفح تلك المواقع الإخبارية بنفسى.

لا شك أنه شىء محزن أن تتعرض بلادنا لمثل تلك الأزمة، لكن الصومال معظمها صحراء على أية حال. الجميع يعرفون ذلك، وأذكر أن المطر كان يهطل دائمًا فما المشكلة الآن؟ لم أفهم ما يحدث.

لم أفهم حتى جعلتنى «خديجة» آخذها معى إلى مقهى الإنترنت.

عادة ما نستخدم أجهزة الكمبيوتر الموجودة فى المدرسة لأنها متاحة مجانًا، لكن يوم الجمعة كان الزحام شديدًا على الأجهزة، ولابد أن «خديجة» لم تتمكن من الانفراد بجهاز، كما أن إنجليزيتها لا تساعدها على التصرف فى مثل تلك المواقف، لذا فحين انتهى اليوم الدراسى وجاءت الحافلة لتقلنا لمنازلنا أتت «خديجة» فجلست بجوارى وقالت: «هل معك نقود؟»

فنظرت إليها من طرف عينى وقلت: «لماذا؟»

– لم أستطع الاطلاع على بريدى الإلكترونى اليوم وأنا فى حاجة للذهاب إلى مقهى الإنترنت.

كان معى شىء من المال، كالعادة، لكن كان عندى خطط أخرى لإنفاقه فقلت: «ألا يمكنكِ الانتظار إلى يوم الاثنين؟»

فلم تقل أى شىء بل ارتسم على وجهها تعبير عنيد وهى تهز رأسها نفيًا وحسب.

ومددت يدى إلى جيبى وأخذت أعبث بالعملات المعدنية بداخله ثم قلت: «هل الأمر ملح إلى هذا الحد؟»

فزمت شفتيها ثم هزت كتفيها بطريقة غريبة، إذ رفعت كتفًا فصارت أعلى من الأخرى، : ثم قالت: «إذا كنت لم تعرف فلن تفهم».

ونهضت لتجلس إلى جوار «فوزية» التى تزحزحت فأفسحت لها مكانا لكنها لم تتوقف عن الثرثرة مع الفتيات اللواتى كن يجلسن أمامها فلم تقل «خديجة» شيئا بل ظلت جالسة متصلبة القامة، وأخذت أنظر إليها وقد أولتنى ظهرها متسائلا عما يجدر بى فعله.

وحين ترجلنا من الحافلة مضت «فوزية» مبتعدة مع صديقاتها وأشارت إلى «خديجة» كى تنضم إليهن، لكن «خديجة» هزت رأسها وظلت تسير خلفهن وحدها. وظللت أراقبها وهى ترفع قدمها ثم تضعها فوق الأرض بتمهل وعناية شديدة وكأنها صُنِعَت من زجاج وتخشى على نفسها الانكسار.

وبعد دقيقة كنت أتوجه إليها، ثم أقول: «حسنا. سأدفع لكِ ثمن نصف ساعة فى مقهى الإنترنت إذا قلتِ لى لماذا تحتاجين إلى الذهاب إليه؟»

ولثانية توقعت أن ترفض، لكنها نظرت إلىّ من طرف عينها وقالت: «لا يمكننى أن أخبرك بالكلمات لكنك سترى بنفسك إذا جئت معى».

ففكرتُ قليلا ثم قلت: «ليس لديّ وقت الآن فهل يمكن أن نؤجل هذا لحين عودتى من المسجد؟»، فترددت قليلا ثم أومأت وقالت: «لا بأس».

وحين عدت من المسجد وجدتها مستعدة مرتدية معطفها، وقالت لى أمى وأنا أفتح الباب: «لا تجلس. إذا كنت ستذهب إلى «سليمان» فالأفضل أن تذهب الآن قبل أن نأكل. وخذ «فوزية» معك فهى تحتاج شيئًا ضروريا لإتمام واجبها المدرسى».

وشرعت «زهرة» و«ماريان» تثرثران فى صخب وهما تتوسلان إلى أمى أن تدعهما تذهبان معنا، لكننى لم أكن على استعداد للسير فى الشارع وسط هذا الجمع من الفتيات فقلت لخديجة: «هيا نذهب».

وأسرعنا نغادر بينما كانت «فوزية» تهرول للحاق بنا. كان المقهى مكتظًا بالناس الذين كان بعضهم يستخدم الكمبيوتر بينما كان الآخرون يسرون عن أنفسهم بالحديث وحسب. واعتقدت أننا سننتظر لساعات، لكننى اكتشفت أن «سليمان» بنفسه كان هناك فى تلك الليلة. لم يغد «سليمان» يسمح لى باستخدام الكمبيوتر مجانا كما كان يفعل فى السابق، لكنه لا يزال يعاملنى معاملة خاصة بسبب علاقته بوالدى وهكذا فقد ابتسم حين رآنا ثم نادى أحد الجالسين وقال: « يا «وارسيم». أنت تستخدم هذا الجهاز منذ ساعة، فتعال واشرب القهوة على سبيل الاستراحة» فأشار «وارسيم» إليه بيده ولم تفارق عيناه شاشة الكمبيوتر ثم قال: «خمس دقائق فقط».، لكن «سليمان» لم يكن ليسمح بهذا، فذهب إلى حيث يجلس «وارسيم» وجذبه من أذنه حتى وقف. بالطبع كان يهدده فقط لكن الصبى كان يعلم أنه من الأفضل له ألا يقاوم.

وقال «سليمان» وهو يمد يده ليتناول النقود منى: «تفضلا» وسحب بعض المقاعد لنجلس ثم تركنا وذهب.

وفى خلال ثوانٍ كانت «خديجة» قد فتحت ثلاثة مواقع إخبارية صومالية، وأخذت تتصفحها وقد اقتربت من الشاشة وقطبت جبينها.

وقلت: «لقد قلتِ إنكِ تريدين المجىء إلى هنا للاطلاع على بريدك الإلكترونى!»

فغمغمت بشىء غير مفهوم وكان واضحًا أنها لا صبر لديها على الجدال والشرح والتفسير وهى تقول: «لقد قلت إنك تريد أن تفهم، وها أنا أحاول أن أجعلك تفهم. فلماذا لا تنظر؟»

وأكيد أنكم تعرفون هذا الشعور الذى ينتاب المرء وهو يرى غيره منهمكًا فى استخدام الكمبيوتر. إنه شعور محبط إلى أبعد الحدود، لكننى اقتربت من الشاشة وأخذت أحاول فهم العناوين التى أمامى، لكننى لم أكن ماهرًا جدا فى قراءة الصومالية، كما أن «خديجة» كانت تتنقل بسرعة بالغة بين الأخبار فلم أفهم نصف ما رأيت.

وكانت «فوزية» تنقل بصرها بين وجه «خديجة» وشاشة الكمبيوتر، ثم قالت: «هل الأمور سيئة؟»

فغمغمت «خديجة»: «سيئة جدا، خاصة فى المنطقة التى تعيش فيها عائلتى فلم يهطل أى مطر هناك. انظرا».

ثم انتقلت إلى موقع آخر وشغلت مقطعًا من مقاطع الفيديو وسرعان ما رأينا مشاهد لنساء فى ثياب مغبرة تتحلق حولهن أسراب من الأطفال المتعلقين بثياب الأمهات. كان الأطفال يجملقون فى الفراغ حولهم، ثم رأينا مشهدًا لصف طويل من الرجال الذين كانوا يسيرون على غير هدى خلف مجموعة من الإبل العجفاء.

ودققت «فوزية» النظر ثم قالت: «هل تملك عائلتكِ إبلا مثل هذه؟»

فنظرت إليها محذرًا إياها بوجهٍ عابس وأنا أقول: «هششششش»، فقد أمرتنا أمى ألا نتحدث عن عائلة «خديجة»، إذ من يدرى من الذى قد يسمعنا؟

ورفعت «خديجة» رأسها وقالت: «كان أبى يمتلك خمسة وعشرين جملا لكنه باع بعضها ليرسلنى إلى هنا، والآن وقد حل الجفاف.».

لكنها لم تكمل جملتها بل هزت كتفيها بنفس الطريقة الغريبة، وقالت «فوزية»: «ربما لا يزالون بخير». ثم لكزت «خديجة» مشجعة إياها وقالت: «افتحى بريدك الإلكترونى فربما أرسلوا لكِ رسالة».

لكن لم تكن هناك أى رسائل جديدة فى بريدها الإلكترونى فغمغت قائلة: «ربما كانوا بعيدين عن العمران.. ربما»

وقطبت وكأنها تفكر ثم شرعت تكتب رسالة باللغة الصومالية وهى مائلة إلى الأمام منكبة على الكمبيوتر.

كان مقطع الفيديو قد ثبت على المشهد الأخير، والذى كان عبارة عن مشهد لرجل يرتدى سروالا من الجينز وتى شيرت ممزقًا وقد أولى الكاميرا ظهره. وكان يحمل خنجرًا وقد أحنى كتفيه وهو يسير. ذكرنى ذلك بيوم بعيد عثرت فيه على خنجر أبى ملقى على أرضية غرفة النوم. يومها تناولت الخنجر وأخذت أقفز إلى الأمام وأتظاهر بأننى أطعن العدو، ورآنى أبى فوضع إصبعه الطويل القوى على النصل الحاد وهو يقول: «لا يا «عابدى». لقد جئنا بك إلى هنا حتى لا تحتاج إلى الخنجر». وأخذ الخنجر ثم أعاده إلى غمده القاسى.

كان على الغمد خدش طويل كثير التعاريج فحدقت فيه لثانية وتساءلت- بينى وبين نفسي- إذا كان الخنجر نفسه هو سبب ذلك الشق أم خنجر آخر؟ وأدركت أنه حتى ذلك الوقت كان أبى لا زال محتاجًا إلى الخنجر غير قادر على الاستغناء عنه. كان يحتاجه لأنه عائد إلى الصومال.

تقريبًا كانت تلك المرة الأخيرة التى أراه فيها.

ترى كيف مات؟ هل تربص به أعداؤه فقتلوه؟ أم أطلق أحدهم عليه النار فأرداه قتيلا؟ أم تراه مات من الجوع والعطش قبل أن نرسل إليه النقود؟ لم أستطع أن أجد إجابة، بل لم أعرف مصير النقود. لم تكن أمى تأتى على ذكر ذلك الموضوع قط.

وظللت أحدق فى صورة الرجل الأعجف الذى كان على الشاشة، يسير خلفه جمله القبيح، لكننى لم أره حقـا على الإطلاق.

خديجة

«عابدى» و«فوزية» لم يفهما.

ما بالهما؟ حتى لو لم يكونا يحسنان قراءة الصومالية فقد كان فى الصور الكفاية.

كيف لم يفهما الصور؟

ألم يريا جملا فى حياتهما؟

إن الناس فى الصومال لا يملكون سوى بعض الماشية التى تعانى الجوع الشديد، غارت عيونها وبرزت ضلوعها كالسكاكين. حين كنت أفكر فيما حولى هنا فى إنجلترا– بما فى ذلك وجبات الغداء السيئة التى يقدمونها لنا فى المدرسة– كنت أشعر برغبة فى جمع هذا كله وإرساله إلى الصومال على الفور.

لكن لا يمكن إرسال البطاطس واللحم وعلب الزبادى إلى الصومال. المال فقط هو ما يمكن إرساله.

«اهتمى بدراستك»

هذا ما قاله له أبى فى آخر مرة.

قال: «اهتمى بدراستك حتى تحصلى على وظيفة تدر دخلا وفيرًا وبهذا يمكنكِ مساعدتنا جميعًا»

لكن كيف أنتظر حتى أنهى دراستى بينما الناس يتضورون جوعًا الآن؟ بماذا سيفيد المال إذا مات كل من أحب ؟

كنت أريد أن أخبر «عابدى» و«فوزية» بهذا كله، لكننى كنت أعلم أنهما لن يفهما.. لن يفهما مادام لا تعنى لهما الصور أى شىء، لذا فقد أوليتهما ظهرى ثم أخذت أكتب رسالة إلى «محمود»، قلت له فيها:

كيف حالك يا «محمود»؟ اكتب لى بمجرد أن تقرأ هذه الرسالة وأخبرنى بما يجرى عندكم. هل «زينب» و«ساجال» بخير؟ لماذا لم تكتب لى منذ فترة طويلة؟ إننى أدعو الله كل يوم أن تجدوا الماء والكلأ من أجل الماشية. أعلم أن الأمور ساءت لكن لا تقلق. سأجد وظيفة وأرسل لكم بعض النقود قريبًا جدا. أعدك بذلك. إمضاء: أختك الزرافة.

ثم قمت بعد أن أرسلت الرسالة. كان «عابدى» قد دفع مالا يكفى لبقائنا لفترة أطول، لكن لم يكن هناك داعٍ للبقاء.

ما أحتاجه الآن هو وظيفة.

وظللت لمدة ثلاثة أيام أفكر فيمن عساه قد يمنحنى وظيفة، ثم حدث أن أرسلتنى أمى الإنجليزية لشراء بعض لوازم المنزل فقد كان تعد الفطائر ولم يكن هناك ما يكفى من الدقيق؛ لذا أرسلتنى إلى متجر عمتى «صفية» فذهبتُ

جريًا. كان رف الدقيق خاليًا فى المتجر واضطرت عمتى «صفية» إلى الذهاب إلى المخزن، الذى يقبع فى مؤخرة المتجر لإحضاره. وتركت عمتى «صفية» باب المخزن مفتوحًا ورأيتها تصعد درجتين من درجات السلم النقال الذين كان يهتز لتصل إلى مجموعة من الصناديق. وبينما كانت تهبط السلم كان هناك خيط أبيض يرتسم فوق درجاته ، ثم فوق الأرض.

فقلت: «هناك ثقب فى كيس الدقيق».

فنظرت خلفها ثم غمغمت فى استياء حين رأت الفوضى التى خلفتها تلك العملية. فى البداية لم أكن أفهم لماذا كانت مستاءة إلى هذا الحد من شىء بسيط كهذا، ثم أدركت أنه ليس بسيطًا بالنسبة لها، فهى بدينة وساقاها تؤلمانها، وتبدو مرهقة جدا، فقلت: «أعطينى مقشة وسوف أكنسه أنا».

وبينما كنت أكنس راودتنى فكرة.

إن الاهتمام بالمتجر قد صار صعبًا على عمتى «صفية» لاسيما وقد تقدمت بها السن. و«سليمان» عنده عمله الخاص، وبناتها مشغولات بدراستهن، لذا فربما ..ربما لو طلبت منها.

وانتهيت من كنس الأرضية ثم ألقيت الدقيق فى سلة المهملات، ثم صعدتُ السلم وحملت بعض أكياس الدقيق وعدت إلى المتجر وملأت الأرفف. وضعتها فى ترتيب.

وابتسمت لى عمتى «صفية» وقالت : «شكرًا يا «خديجة». أنتِ فتاة طيبة».

فقلت: «يمكننى عمل أى شىء بعد أن تغلقى المتجر، يمكننى أن أكنس الأرضية وأملأ الأرفف».

فنظرت إلىّ باهتمام، وكان واضحًا أنها كانت تفكر فيما قلت، ثم قالت: «لا تأتى كل مساء، بل يكفى مرتين أسبوعيا، كل مرة ساعتان، لكننى لا أستطيع أن أدفع لكِ الكثير».، فقلت بهدوء وثبات، كى تعرف أنها يمكنها الوثوق بى: «لا أريد الكثير».

ففكرت عمتى «صفية» فى الأمر نحو دقيقة ثم قالت: «سأدفع لكِ جنيهين فى الساعة».

كانت محقة. لم يكن ذلك كثيرًا أبدًا، لكننى أخذت أدير الأمر فى رأسى. علىّ أن أعمل أربع ساعات فى الأسبوع، أى إننى سأحصل على ثمانية جنيهات أسبوعيا، أى إننى فى خلال اثنى عشر أسبوعًا سيكون معى مائة جنيه يمكننى إرسالها إلى أسرتى، فابتسمت وأومأت بالموافقة..

وهكذا عدت إلى المنزل ومعى كيس دقيق ووظيفة.

لكننى حين أخبرت أمى بما حدث غضبت غضبًا شديدًا وقالت : «إن العمة صفية لا تغلق المتجر قبل العاشرة مساءً. هل تظنين أننى سأدعكِ تتسكعين فى الظلام فى تلك الساعة؟ هل جننتِ؟»

وظلت توبخنى هكذا نحو نصف ساعة، بينما كانت «فوزية» تراقب المشهد وقد بدت متعاطفة معى، أما «ماريان» و«زهرة» فكانتا تضحكان فى ركن، وما إن بدأت أمى تهدأ قليلا حتى سألتنى عن المبلغ الذى عرضته علىّ العمة «صفية»، وحين أخبرتها انفجرت ثانية وقالت: «فقط؟؟ ما هذا الاستعباد؟؟»

وظللت واقفة فى مكانى منكسة الرأس فى انتظار أن تتوقف فقد كنت مصرة على عدم الاستسلام. ينبغى أن أفعل شيئًا لعائلتى الحقيقية، وهذه الفرصة أفضل من أتركها تضيع.

كان «عابدى» فى الخارج يسمع درسه الذى يحضره فى المسجد، وحين عاد إلى المنزل عادت أمه للصياح ثانية ، مكررة كل ما قالته من قبل.

«خديجة تظن أننا سندعها تتسكع فى الظلام فى منتصف الليل، وكل هذا مقابل جنيهين فى الساعة».

وكان «عابدى» سيتفق معها فى رأيها. كان ذلك واضحًا فى وجهه. وكنت أعلم أنهما لا يفعلان ذلك لمضايقتى وإنما لأنهما وعدا بأن يحافظا علىّ، وكانا يريان أنه لا يمكن ذلك إلا بحبسى لكننى كنت بحاجة لتلك الوظيفة. لابد أن أجد طريقة لإقناعهما بتغيير رأيهما.

وفجأة وجدت الطريقة.

وصحت: «لست مضطرة إلى السير وحدى. يمكن أن يأخذنى «عابدى» إلى المتجر ثم يأتى لاصطحابى إلى المنزل عند انتهائى!»

وترددت أمى قليلا ثم نظرت إلى «عابدى» لتعرف رأيه. كان «عابدى» متفاجئًا.

فقلت بغضب: «الأمر مهم. لابد أن أساعد عائلتى. لن تدفع لى عمتى «صفية» الكثير لكنه أفضل من لا شىء. أرجوك ساعدنى يا «عابدى» أرجوك».

كانت «فوزية» جالسة فى هدوء حتى تلك اللحظة، لكن حين قلت هذا رفعت رأسها وأسرعت تساندنى قائلة : « ينبغى أن تساعدها يا «عابدى». ألا تتذكر كيف كنا ندخر كل بنس لإحضار أبى إلى هنا؟ لكننا لم نجمع المبلغ الكافى إلا بعد فوات الأوان؟»

عندئذ التفت إليها «عابدى» وصاح فى غضب: «اسكتى! لقد فعلنا أقصى ما فى وسعنا».، وقالت أمى غاضبة أيضًا: «هذا صحيح. ما حدث لم يكن بسبب خطأ ارتكبناه، لقد.».

ثم غطت فمها بيدها وقامت فجأة.

لكن لم يكن يمكننى أن أترك المحادثة تنتهى هكذا، فقلت: «إذن هل أنت موافق يا عابدى؟»

فأمسكت أمى كيس الدقيق ثم قالت بصرامة: «القرار قراره. تعالى يا «فوزية» لتساعدينى فى خبز الفطائر».، وذهبتا إلى المطبخ وتركتانى أحدق فى «عابدى».

وقلت بلطف محاولة إقناعه: «أرجوك. لقد رأيتَ الصور، وأنت تعرف حال عائلتى فى الصومال.أريد أن أساعدهم».

فنظر إلىّ دقيقة ثم أومأ برأسه فى امتعاض وقال: «حسنًا؛ سوف أرافقك لبعض الوقت فقط كى أرى كيف تسير الأمور».

فيريا

فى ذلك الربيع كانت «ساندى» تعمل بلا توقف. أعتقد أنها كانت تعمل لمدة عشرين ساعة فى اليوم، لمدة سبعة أيام فى الأسبوع، وظللت أقيم فى منزل أبى، فلم يكن هناك أى داعٍ لعودتى، وبدأت أتساءل عما إذا كنت سأراها ثانية .

ثم كان يوم، بعد عيد الفصح، عدت فيه إلى المدرسة فوجدتها جالسة فى مطبخ شقة أبى، كانت تعد التوست الفرنسى، وحين سمعتْ صوت الباب ينفتح التفتت إلىّ وهى تبتسم وقالت: «هل تحبينه بالقرفة والسكر؟»

فقلت: « ماذا تفعلين هنا؟»

– أنا أمكِ. ألا تتذكرين هذا؟

كانت واقفة على أطراف أصابعها وقد أخذت تفتش فى خزانة الأطباق والأكواب وتقول: «لابد أن «ديفيد» يحتفظ ببعض القرفة فى مكانٍ ما هنا».

فقلت: «لا. إنه يكره القرفة. كيف لا تعرفين ذلك؟»

فى بعض الأحيان أجد نفسى عاجزة عن تصديق أنهما عاشا معًا لمدة عشر سنوات، وقلت: «المهم.. لماذا لستِ فى عملك؟»

وفجأة قفز قلبى هلعًا وقلت: «هل حدث شىء لأبى؟»

–بالطبع لا!

قالتها وكأن ذلك من المستحيل أن يحدث، ثم أضافت: «لكننى كنت محتاجة إلى بعض المساعدة».

– منى أنا؟

وما الذى يمكن لى أن أساعدها فيه؟ فى طفولتى كنت أحيانا أمسك بالدبابيس لها بينما كانت تثبت القماش، لكننى لم أكن أصلح لما هو أكثر من هذا، فقلت بحذر: «ماذا تريديننى أن أفعل؟»

فتوقفت «ساندى» عن البحث وأغلقت خزانة الأطباق وقالت: «ممم. أولا انظرى إلى هذا»، ومدت يدها فالتقطت قصاصة من صحيفة كانت فوق منضدة المطبخ ثم زحلقتها نحوى قبل أن تضع المقلاة على النار وهى تنظر لى من طرف عينها وتقول: «بم يوحى لكِ هذا؟»

وكنت أتوقع أن أرى شيئًا غريبًا لافتًا مليئًا بالألوان الفاقعة متفجرًا بالحياة والضجة، لكن لم يكن هناك سوى صورة لامرأة منتقبة متشحة بالسواد من قمة رأسها إلى أخمص قدميها بحيث لا يظهر منها سوى عينيها.

وظهر الامتعاض على وجهى وأنا أقول: «تعرفين رأيى فى هذا كله».

فقالت «ساندى» بنفاد صبر: «أنا لا أسألكِ عن رأيك».

قالتها بلهجة توحى بأنه لا أهمية لرأيى ثم أردفت: «أريد أن أعرف ما تجعلك الصورة تشعرين به. بم شعرت ما إن وقعت عيناكِ على الصورة؟»

ما الذى تريده «ساندى»؟ لم أعرف، وعدت أحملق فى الصورة ثم قلت: «مممم.. إذا كان هذا ما تحب ارتداءه فعلا فإنها.».

فصاحت «ساندى» وهى تقذف التوست فى المقلاة بقوة: «توقفى عن التفكير بمنطقية. أريد أن أعرف ما أوحت لكِ الصورة به بمجرد وقوع عينيك عليها. ألم تشعرى ولو لجزء من الثانية بالفضول؟ ألم تتساءلى عن شعور المرأة وهى ترتدى زيا كهذا؟».

فصحت بغضب: «لم أشعر بهذا قط».

لكننى لم أقل ذلك بالسرعة الكافية بل ترددت وأخذت نفسًا قبلها، فصاحت «ساندى» بلهجة ظافرة: «كاذبة! بل شعرتِ بهذا الشعور. الجميع يريدون أن يعرفوا شعور المرأة وهى بداخل هذه الثياب لأن.».

ثم عبست وعضت على شفتها وكنت أكاد أسمع صوت الأفكار وهى تدور داخل رأسها.

إنها لا تجيد التعبير عما تفكر فيه، وليس هذا غريبًا، على ما أعتقد، فلو كانت قادرة على التعبير عن نفسها بالكلمات لكانت شاعرة لا مصممة أزياء.

وقلت لها: «على أية حال لماذا كل هذه الضجة حول هذا الزى؟ هل للأمر علاقة بحكاية الصومال؟ لم أكن أعلم أنهن يغطين وجوههن أصلا».

– فكرى بمرونة أكثر يا «فيريا». لا تفسرى المسألة حرفيا. لن أقيم عرضًا للأزياء الصومالية. أنا أستكشف إحساس الناس بثيابهم، ولهذا صنعت هذا.

ثم اندفعت خارجة من المطبخ وقد نسيت التوست الفرنسى- الذى كان قد بدأ ينضج- تمامًا، وكان علىّ إنقاذه قبل أن يحترق. وحين التفتُّ إلى الوراء رأيتها تعود حاملة بقجة من القماش الأسود.

وقالت: «هذه لكِ». وحركت يديها كما يفعل الساحر فانسدلت البقجة متحولة إلى قماش ثقيل كثير الطيات.

وقلت: «لابد أنكِ تمزحين».

فوضعت «ساندى» الثوب على ظهر أحد المقاعد ثم قالت: «مم تخافين؟ ليس سوى ثوب».

ليس سوى ثوب؟ ليتنى سجلت هذا. وماذا عن كلامها الكثير عن كون الثياب تعبيرًا عميق الدلالات عن هويتنا؟ وماذا عن قولها إن الموضة موضوعها أساسًا هو إنسانية الإنسان؟ بالنسبة لساندى لم يكن الثوب سوى ثوب كما قالت أبدا، ونظرت بريبة إلى الثوب المعلق فوق ظهر المقعد وانحنت «ساندى» فتناولت ثوبًا آخر لا يختلف عن الأول كثيرًا وقالت: «أما هذا فلى. لا تخافى. لن يعضكِ. انظرى».

وراقبتها وهى ترتديه فوق التى شيرت والسروال الجينز. وإن هى إلا لحظات حتى صارت خفية تمامًا، إذ لم يعد يبدو منها سوى عينيها الزرقاوين المطلتين من فتحة النقاب.

ثم مالت برأسها نحوى وهى تقول: «هاه؟ كيف يبدو؟»

ماذا يمكننى أن أقول؟ حسنًا. صحيح أنها كانت ترتدى ثوبًا طويلا فضفاضًا وكان معظم وجهها مستترًا ولكن لم يكن من الصعب تمييزها، فأنا أعرف تمامًا كيف تبدو رغم كل ذلك السواد الكثيف.

فهززت كتفى وقلت: «هذا الثوب لا يليق بكِ».

فقالت برقة: «ربما كان لائقًا بكِ أنتِ». وتناولتْ الثوب الآخر وفردته أمام عينى وقالت: «لِمَ لا تجربين؟»

فتراجعتُ إلى الوراء وأنا أقول: «اعثرى على غيرى».

– لا يا «فيريا». لقد صنعته من أجلكِ أنتِ.

ونظرتُ إلى الثوب ثانية . لم تكن قد صنعت لى أى شىء منذ كنت فى الرابعة من عمرى.

وقالت: «ينبغى أن تجربيه. لن يستغرق ذلك وقتًا طويلا. سنعود قبل السادسة والنصف».

–نعود؟

– لن نبتعد كثيرًا عن هنا. أريد أن نذهب بالسيارة إلى «باتل هِل» ونتجول هناك قليلا.

–تريدييننى أن أرتدى هذه الثياب وأخرج بها؟

وأين؟ فى باتل هِل؟ حيث هناك نساء كثيرات يرتدين هذا الثوب فعلا؟ كانت فكرة مخيفة، و.. وقحة. ماذا إذا اكتشف الناس أننا منتقبتان مزيفتان؟

وقلت: «اطلبى ذلك من أحد غيرى. اطلبى من «ستيفان» فهو سيفعل أى شىء تطلبينه منه. إنه ينظر إليكِ كما لو كنت المسيح المنتظر».

لكن «ساندى» هزت رأسها غير موافقة وقالت: «لا أنوى تقديم عرض بانتومايم. إننى أقوم ببحث جاد، ولهذا اعتقدت أنكِ قد تهتمين بالأمر، لكن مادمت لستِ مهتمة فسأذهب وحدى».

ثم تناولت مفاتيح السيارة فقلت لها: «أرجوكِ ألا تفعلى هذا».

لكنها لم تسمعنى حتى، بل فتحت الباب وخرجت وتركتنى أتناول التوست الفرنسى وحدى.

ويمكنكم تخمين ما حدث. بينما كنت أمضغ التوست الفرنسى كان عقلى يعمل والأفكار تدور بداخله، ولم أكن قادرة على الإشاحة ببصرى عن الثوب الموضوع على ظهر الكرسى لأن «ساندى» كانت محقة فعلا. أنا بالفعل أريد تجربة تلك الثياب.

وأمسكت بالثياب، القطعة تلو الأخرى، وأخذت أمر بيدى عليها لأعرف مكان الأزرار، ثم شرعت أرتدى القطعة الرئيسية.

كان على مقاسى بالضبط (ولِم لا؟ لقد صنعته لى «ساندى» خصيصًا). كان خط الكتف فوق كتفى تمامًا، وكانت تنورة الثوب الثقيلة تغطى حذائى.

وكان حد الرقبة مرتفعًا مريحًا، وكانت الأكمام تغطى عظمتى معصمى بالكاد.

لكننى شعرت بأن رأسى عارٍ فأخذت أحاول أن أتذكر كيف ثبتت «ساندى» النقاب وغطاء الرأس، لكن الأمر لم يكن سهلا ففشلت محاولتى الأولى وظلت خصلات شعرى -بلونها الشبيه بلون القش- نافرة متدلية هنا وهناك. وحاولت مرة أخرى وذهبت إلى غرفة نومى كى أرى النتيجة فى المرآة.

وما إن رأيت صورتى فى المرآة حتى فهمت سر إصرار «ساندى» على الخروج. إن الهدف من ارتداء النقاب هو الاختفاء، ولا يعقل أن يخفى المرء نفسه عن نفسه، لذا عليه أن ينزل إلى حيث يوجد الناس ليخفى نفسه منهم.

ولهذا ذهبت «ساندى» إلى باتل هِل، كى ترى الناس ولا يرونها. باتل هِل مكان مثالى لتنفيذ خطتها. كانت المنطقة تتكون من ثلاثة شوارع أو أربعة تصطف على جانبيها عدة عمارات سكنية كالحة الألوان وتنتهى إحدى الجهتين بمسجد، والأخرى بنادٍ اجتماعى لأهل المنطقة. ولم أكن أعرف الكثير عن سكان تلك العمارات ، لكننى كنت أرى أغلب النساء هناك وقد ارتدين الإيشارب فوق شعورهن، وكان بعضهن يرتدين النقاب. يمكن أن يختفى المرء خلف النقاب دون أن يلفت الأنظار.

كيف تشعر النساء و هن يرتدين هذا الزى؟

لقد أهدرت الفرصة التى أتيحت لى لمعرفة الإجابة..أليس كذلك؟ كان ينبغى أن أذهب مع «ساندى» فى السيارة، أما الآن فلم يعد من الممكن الذهاب إلى هناك إلا بالحافلة، وأنا لن أقدم أبدًا على ركوب الحافلة وأنا هكذا. ينبغى أن أخلع تلك الثياب السوداء وأشرع فى عمل واجبى المدرسى.

ولمدة خمس دقائق ظللت أحاول إقناع نفسى بتلك الأشياء المنطقية جدا.

ثم تناولت حقيبتى، وخرجت.

كيف شعرت؟

لابد أنكم تريدون معرفة ذلك (ما لم تكونوا ممن يرتدون هذا الزى). أليس كذلك؟ سواء كنتم ممن يعتبرون ذلك الزى غريبًا أم مضحكًا أم مهينًا فلابد أنكم تريدون أن تعرفوا بم يشعر المرء وهو داخل زى التخفى الأسود هذا.

إن أول شعور ينتاب المرء هو الرعب. حين صعدت إلى الحافلة كنت أتوقع أن يسخر منى السائق بمجرد أن أطلب منه تذكرة، وأن يدعونى بالمخادِعَة. تخيلته يقول: «ماذا تفعلين هنا يا حبيبتى؟ هل أنتِ ذاهبة إلى حفلة تنكرية؟»، لكنه لم يفعل ذلك بالطبع بل تناول منى النقود ومنحنى التذكرة وحسب، دون أن ينظر إلىّ حتى. وسرت فى ارتباك داخل الحافلة ثم جلست إلى جوار النافذة وأخذت أحملق فى الطريق.

كان رأسى زاخرًا بالأسئلة.. أسئلة كثيرة تشل التفكير. مثلا: ما الذى يُفترَض أن أفعله إذا جلس إلى جوارى رجل؟ وإذا سألنى عن الساعة مثلا فهل أرد أم لا؟ هل أريه الساعة وحسب؟ أم أتجاهله؟ لم يكن لدىّ أى فكرة عن السلوك الواجب اتباعه عند ارتداء هذه الثياب، وانكمشت فوق حافة مقعدى وقد انتابتى الخوف من مجرد التنفس.

لم يجلس أحد بجانبى، أو يتحدث إلىّ، كأننى كنت غير مرئية. الوحيدة التى انتبهت إلىّ كانت سيدة ترتدى بدلة. كان واضحًا أنها ذاهبة إلى العمل وقد استقلت الحافلة من المحطة السابقة لباتل هِل مباشرة ، ورأيت فمها يتقلص وهى تمر إلى جوارى وكأنها ضغطت بأسنانها على ليمونة فجأة، ثم رمقتنى بنظرة حادة قبل أن تشيح بوجهها عنى بحركة بدت مفتعلة مبالغًا فيها.

كانت مسألة تافهة، لكنها كانت كافية لجعلى أرتعد. وحين ترجلت من الحافلة، بعد محطتين، كنت أشعر أن ساقىّ ضعيفتان غير ثابتتين، ووبخت نفسى بحدة قائلة: «لا تكونى غبية!» فلم يكن علىّ إلا أن أسير فى المنطقة بحثًا عن «ساندى». ما المخيف في هذا؟

ودخلت أول الشوارع الجانبية فمررت بمتجر صغير متواضع المظهر يبيع مواد البقالة، يليه مقهى إنترنت عليه لافتة خفيفة الدم تقول: «غير ممنوع الدخول». أما الشارع التالى فقد كانت تصطف على جانبيه عمارات سكنية غير عالية، محاطة بمساحات خضراء تعرت من العشب فى غير موضع.

ودخلت شارعًا آخر، ووجدت نفسى فى موقف محرج. كان ثمة رجل متوسط العمر يسير مقبلا نحوى، فى مواجهتى وقد أشاح بوجهه عنى عامدًا، وكأننى لا وجود لى.أو على أى حال كان هذا ما شعرت به، وقد أغضبنى هذا جدا فقطبت وظللت أسير، ثم سرعان ما أدركت أن التقطيب مضيعة للوقت والجهد ففمى يغطيه النقاب، وعيناي بمفردهما عاجزتان عن توصيل الرسالة. أنا بالفعل غير مرئية.

وانتابتنى رغبة فى تمزيق النقاب وإلقائه فى وجه الرجل، ثم أدركت فجأة أن اختفائى يمنحنى قوة، فهو لا يعلم من أنا، ولا يمكنه معرفة ما أفكر فيه أو ما أنوى فعله، وإذا تمسكت بمكانى ولم أبتح له جانبًا ليمر فلن يكون أمامه سوى النزول فى البلاعة، وإلا اصطدم بى.

لم أدعه قط يتمكن من التنبؤ بحركتى التالية، حتى آخر لحظة. ورأيت عينيه ترمشان المرة تلو الأخرى وقد بدأ يداخله القلق، ثم طأطأت رأسى ونزلت من فوق الرصيف، فمر متجاوزًا إياى وكأننى لا وجود لى، لكننى كنت أعرف أننى أفزعته.كان هذا باديًا بوضوح على وجهه.

وأفزعت نفسى أيضـًا.فالتصدى للغرباء ليس شيئـًا أفعله كل يوم، وأخذ قلبى يخفق بقوة وكنت على وشك الاستسلام والعودة إلى المنزل. وأخذت أسائل نفسى قائلة : «أين «ساندى» بحق السماء؟» ثم شرعت أحث السير فى هذا الشارع وذاك باحثة عنها.

لكننى لم أجدها قط. رأيت امرأتين منتقبتين على البعد، لكنهما كانتا تسيران معًا مع زمرة من الأطفال، وحتى لو لم تكونا معًا فإنهما كانتا أطول من «ساندى»، وظللت أسير، وأسير وأسير، ربما لأكثر من ثلث الساعة وقد نظر إلىّ بعض المارة باندهاش لكن أحدًا لم يتحدث إلىّ، وفى النهاية افترضت أن «ساندى» قد عادت إلى المنزل.

وبالطبع ما إن توصلت إلى تلك النتيجة حتى وجدتها، فبينما كنت أعود إلى محطة الحافلات كان علىّ دخول الشارع الذى يوجد فيه مقهى الإنترنت، وهناك رأيتها.

كانت فى نهاية الشارع، واقفة عند المتجر الصغير. عرفتها على الفور من شكل كتفيها وارتفاعهما، ومن الطريقة الجريئة التى كانت تحدق بها فى المراهقَين الواقفَين بيننا.

كانا واقفين متقاربين وكأنهما يتشاجران. كانت الفتاة تغطى شعرها بإيشارب وكان الصبى يحدق فيها بعينين غاضبتين. فى الواقع كان كلاهما غاضبًا. وللوهلة الأولى ظننت أنها مشاجرة بين عاشقَين ، لكن سرعان ما أدركت أننى مخطئة، فالفتاة كانت أكبر سنًا من الصبى، وأطول منه بكثير. وحدست من طريقة نظرها إليه أنها أخته.

قال الصبى شيئًا ما بلهجة حادة فتراجعت الفتاة إلى الوراء ولوحت بيديها كأنما لتبعده عنها، لكنها لم تلمسه على الإطلاق. كانت حركتها مفاجئة

ورشيقة وعدوانية فى الوقت نفسه، وما إن رأيتها حتى أدركت سر اهتمام «ساندى» بهما. كانت الفتاة هى محور اهتمامها.

وقلت فى نفسى: «ها قد بدأنا!» فقد كانت «ساندى» مشهورة باكتشاف العارضات الجديدات، فمثلا كانت هى من اكتشفت «مولى باركر» و«سيوبهان» منذ عامين، كما كانت أولى من استعانت بالفتيات الثلاث البولنديات حين استخدمتهن فى عرض مجموعة الأزياء الشتوية الشفافة. إن اكتشاف عارضات الأزياء الفاتنات الجديدات جزء من عالم «ساندى دكستر» الغامض.

لكن الفتاة كانت فعلا مميزة حتى إذا قيست بمقاييس «ساندى دكستر» التى لا يعجبها العجب. لم تكن المسألة تقتصر على وجهها - الذى كان جميلا بلونه البنى الذهبى وزواياه الرائعة- بل كان ما يميزها بحق هو الطريقة الدرامية التى كانت تتحرك وتقف بها؛ حتى حين كانت تقف بلا حراك كان المرء يجد نفسه عاجزًا عن إبعاد عينيه عنها، إذ كان جسدها كله يظل يقظًا نافرًا نابضًا بالحياة، متحفزًا ومستعدًا لأى شىء.

لكنها لم تكن تستعرض نفسها. منذ نظرتى الأولى إليها أدركت أنها لا تتعمد الوقوف بهذه الطريقة. لم تكن تعبأ بأن يراها أحد.

وقلت فى نفسى: «لن تحصلى عليها يا «ساندى» ولو بعد مليون سنة».

وبعد أن ركبنا السيارة وتأهبنا للعودة إلى شقة أبى قالت «ساندى» وهى تنظر إلى من طرف عينها بينما كانت تدير المحرك: «قولى لى: كيف كان شعورك وأنتِ ترتدين هذه الثياب؟»

فقلت: « إنه شعور فظيع.. شعور بالانفصال التام عن العالم».

فأومأت «ساندى» وظلت صامتة لبرهة وهى تمر بالسيارة بين اثنتين من سيارتى الأجرة ثم قالت: «فظيع فقط أم فظيع و..؟»

وترددتُ فلم أكن أريد أن أقول لها الحقيقة كاملة ؛ لأنها كانت تتنافى مع كل آرائى عن ذلك الزى، لكن «فظيع وحسب» لم يكن جزءًا من الحقيقة، بل كان كذبة من الأساس.

وبعد تفكير وجدتنى أقول: «إن كونك غير مرئية يمنحكِ شعورًا بالقوة، فعجز الناس عن رؤيتكِ يفقدهم الشعور بالأمان، وإذا قررتِ أن تستخدمى هذا». ولم أتم جملتى. لم يكن هناك داعٍ لذلك، وكانت «ساندى» تهز رأسها وكأنها تفهم تمامًا ما أريد أن أقول.وكأن إجابتى هى الإجابة التى توقعتها منذ البداية.

كان الطريق إلى المخيم طويلا والجو شديد الحرارة، خاصة وأننا كنا نحمل بقجًا ثقيلة، وكلما نفق جمل من إبل القافلة كان «محمود» يضطر إلى حمل ما كان يحمله الجمل.

وحث «محمود» الخطى وهو يغنى تارة ويؤلف فى ذهنه رسالة بريد إلكترونى تارة أخرى. كانت الرسالة تقول: «كنت دائمًا تحبين الذهاب إلى

أماكن جديدة. أليس كذلك يا جى-رى؟ دعينى أخبرك إذن أننا راحلون إلى مكانٍ جديد الآن، والرحلة تزيدنى قوة. وحين تعودين إلى الصومال لن يمكنكِ أن تقولى «أخى الصغير» ثانية».

وكلما وصلوا إلى قرية كان «محمود» يهم بالبحث عن مكان يمكنه منه أن يرسل الرسالة، إلا إن أعمامه كانوا يرفضون البقاء. كانوا قد قرروا الذهاب إلى المخيم، ويبدو أنهم كانوا يريدون الوصول إليه فى أقرب وقت ممكن. وحين كان يطلب من أمه أن يجعلهم يتوقفون كانت تهز رأسها رافضة وهى تتنهد، وقالت له مرة: «انتظر حتى نعرف أين سنستقر، وحين نعرف يمكننا أن نرسل إليها فنطلب منها بعض النقود».

وهكذا ظل «محمود» يسير، ويسير ويسير.

وأضاف بعض السطور إلى رسالته قال فيها: «هل يعطونكِ طعامًا كثيرًا فى إنجلترا؟ احذرى فلو صرتِ طويلة أكثر من اللازم فلن تستطيعى أن تركبى الطائرة».

عـابـدى

نعم. كنت أتشاجر مع «خديجة» التى كانت تبدو وكأنها فقد ت عقلها.

نعم.. لقد وعدتها بأن آخذها إلى متجر عمتى «صحفية» مرتين فى الأسبوع، ثم أعود لأحضرها من هناك، وقد التزمت بهذا، فلمدة أسبوع كامل ظللت أروح وأجىء لأوصلها ثم أعود لأتسلمها وهكذا، وفى المرة الأولى هطل المطر فأغرقنى تمامًا، وفى المرة الثانية اضطررت لانتظارها لمدة عشر دقائق إضافية حتى تنتهى من مسح الأرضية، ولم أتذمر مع ذلك، لكن ذلك اليوم بالذات كان مهما جدا بالنسبة لى فقد كان صديقى «راجح» مسافرًا إلى الصومال فى اليوم التالى. كان-كما قالت لى والدته- عائدًا إلى حضارة بلاده ليتعلم حسن السلوك، وكان من المقرر ألا يعود قبل أربعة أشهر أو خمسة على الأقل. وكان سيقيم حفل وداع لأصدقائه، وبالطبع دعانى، ولو لم أذهب لكانت تلك قلة ذوق من جانبى.

وقلت لخديجة: « ستضطرين إلى التغيب عن عملك بالمتجر الليلة فلن يكون بمقدورى أن آتى وأصحبكِ إلى المنزل».

فزمجرت كقطة غاضبة ثم أطلقت العنان لنفسها ولم يثنعها كوننا فى الشارع عن إطلاق غضبها بل صاحت: «لا يمكنك أن تفعل هذا بى! لقد وعدتنى أنك ستأتى لاصطحابى كل مرة».

– لقد قلت إننى سأحاول وحسب. هذا كل ما فى الأمر، لكننى لن أدع هذه الحكاية تعطلنى عن أمورى الشخصية!

–لكن لا يمكنك أن تخل باتفاقنا. ماذا أفعل الآن؟

فهززت كتفى وقلت: «قلت لكِ ألا تذهبى الليلة..ليلة واحدة لن تؤثر كثيرًا».

– بل ستؤثر. أنا لا زلت فى فترة الاختبار، وسوف أفقد الوظيفة إن شعرت عمتى «صفية» أننى من النوع الذى لا يُعتمَد عليه.

فقلت موبخًا: «لا تكونى سخيفة».

لكن «خديجة» لم تكن لتستسلم بل حدجتنى بنظرة مجنونة وقد شدت قامتها وتراجعت إلى الوراء خطوة وهى ترفع ذراعيها احتجاجًا على ما قلت.

وكنت على وشك تكرار كلماتى لكنها فجأة تجاوزتنى ببصرها. كانت تنظر إلى شىء ما، أو شخص ما، خلفى، وقد تغير تعبير وجهها، والتفتُّ لأرى ما شتت انتباهها عنى، وقد كان المنظر غريبًا.

كانت ثمة امرأة منتقبة تقف على جانب الطريق، خارج المتجر. لم تكن امرأة صومالية، ولم تكن تشبه أية منتقبة رأيتها فى حياتى. كانت واقفة تحملق فينا بمنتهى الجرأة. وبعيدًا، عند نهاية الطريق، بجوار العمارة التى كان يعيش فيها صديقى «ليبان». كان هناك امرأة أخرى. وكانت منتقبة كالأخرى، وكانت تحدق فينا هى الأخرى.

كانت عينا «خديجة» تنتقلان بين المرأتين وكأنها لا تريد أن تغفل عن أى منهما. وقلت فى نفسى: «ليستا سوى امرأتين. ما الذى يمكن أن تفعلا؟»، لكننى أيضًا لم أرتح للأمر وحملقت بدورى فى المرأة الواقفة قرب المتجر، لعلها تتوقف عن الحملقة. لكن هيهات. فى الواقع كان لحملقتى تأثير عكسى، فحين رأتنا تلك المرأة ننظر إليها سارت نحونا، وحين اقتربت من «خديجة» توقفت ورفعت عباءتها السوداء الطويلة. كانت ترتدى تحتها سروالا من الجينز، ودفعت يديها فى أحد جيوبه باحثة عن شىء ما.

وعبست فى وجهها لكنها لم تلاحظ فقد كان اهتمامها كله منصبًا على «خديجة»، ثم قالت لها: « أنتِ صومالية.. أليس كذلك؟»

لم يكن التخمين صعبًا، فخديجة هى التجسد لكل ما يخطر ببال المرء حين يسمع كلمة «صومالية».. طويلة رشيقة.. ذات وجه جميل يوحى بالثقة بالنفس.

ووقفتُ بينهما وقلت لها: «وماذا لو كنا صوماليين؟ لا شأن لأحدٍ بهذا».

فتجاهلتنى المرأة تمامًا وقالت لخديجة: «انتظرى لدقيقة ودعينى أقدم لكِ بطاقتى. لدىّ وظيفة لكِ».

عندئذٍ لمعت عينا «خديجة، لثوانٍ، لكن المرأة لم تر ذلك، إذ كانت مشغولة بالبحث فى جيبها، وفى النهاية أخرجت بطاقتها البيضاء ومدت يدها بها إلى خديجة التى أخذت تحدق فى الاسم المكتوب عليها، وحدقت أنا أيضًا فيه بدورى.

«ساندى دكستر».. لم تعنِ هاتان الكلمتان أى شىء بالنسبة لنا، حتى تلك اللحظة.

ثم قالت المرأة باقتضاب: «إننى أبحث عن عارضة أزياء صومالية وأعتقد أنكِ أنتِ التى أحتاج إليها، فإذا كنتِ راغبة بالعمل فى هذا المجال فينبغى أن تجدى لنفسكِ وكالة تمثلك وتتولى المسائل المالية. جربى هذه الوكالة إن كنتِ لا تعرفين من أين يمكنكِ البدء». ، ثم أخذت تكتب شيئًا ما على طرف البطاقة، وقالت: «أخبريهم أننى أنا من أرسلتكِ، وأعطيهم البطاقة كى يصدقوكِ».

فقلت لها: «هل تتوقعين منا أن نصدق ما تقولين؟ هل تعتقدين أننا أطفال؟»

فغمغمت المرأة فى نفاد صبر ثم قالت: «إذا كنت لا تصدقنى فابحث عن اسمى على الإنترنت. ليس الأمر صعبًا، وستجد صورًا كثيرة لى. انظر إلى وجهى جيدًا».

وكشفت نقابها فبدا وجهها الصغير المثلث الشاحب، وشعرها الأسود القصير المنتصب فوق رأسها، ووشم لسمكة زرقاء بجوار عينها اليسرى، وقالت: «انظر جيدًا.. انظر حتى تتمكن من التعرف عليّ حين ترانى على الإنترنت».

وتركتنا نحدق فيها برهة ثم مدت يدها بالبطاقة لخديجة ثانية. ولم تتحرك «خديجة»، فقالت المرأة: «اتفقنا؟ لكن لا تخبرا أحدًا بهذا الموضوع سوى أبويكما. مهم جدا أن يظل الأمر سرا»، ثم جلست القرفصاء لتضع البطاقة على الرصيف أمام خديجة، قبل أن تستوى واقفة ثانية وتنادى قائلة: «هيا يا «فيريا». لنعد إلى المنزل».

كنت قد نسيت وجود المرأة الأخرى تمامًا، لكنها كانت لا تزال حيث كانت. ورأيتها تسرع نحونا، وحين لمحت البطاقة الموضوعة على الرصيف غمغمت فى استياء ونفاد صبر، وحين كانتا تبتعدان سمعتها تقول: «لا يمكنكِ أن تسيرى هكذا يا «ساندى».. شكلكِ سخيف هكذا. أسدلى النقاب فوق وجهك».، لكن «ساندى» لم تعبأ، بل ضحكت وحسب، ولم تلمس نقابها حتى غابتا عن أنظارنا.

وحين اختفتا انحنيت لألتقط البطاقة لكننى لم أكن سريعًا بما فيه الكفاية فقد مالت «خديجة» بسرعة البرق واختطفتها اختطافًا وقلبتها لتدقق النظر فيما كتبته «ساندى» على ظهرها.

وقالت: «ما معنى هذا؟».

كان على البطاقة اسم امرأة.. «ميريديث فوكس».. يليه عنوان مكتوب بأحرف سوداء أنيقة، وتحت الاسم والعنوان كانت هناك «شخبطة» صغيرة غريبة، ربما كانت توقيع «ساندى» بالأحرف الأولى.. «س.د».

وقلت: «يا لها من امرأة غريبة الأطوار. هل تعتقدين أن هذا ما تفعله طوال الوقت؟ هل تعتقدين أنها تقضى وقتها فى التجوال والتقاط الفتيات بهذه الطريقة؟»

ولم تجب «خديجة» بل ظلت تحدق فى البطاقة. وقلت: «اسمعى. لا تأخذى الموضوع بجدية فلابد أنه خدعة ليس إلا».

فقالت: «لكن ماذا لو لم يكن خدعة؟ماذا لو كان حقيقيا؟»

ثم نظرت إلى البطاقة ثانية قبل أن تضعها فى جيبها بحرص وهى تقول: «سأتحقق من الأمر غدًا».

خديجة

منذ وصلت إلى إنجلترا وأنا أشعر بأننى مجمدة. حين سلمنى أبى إلى ذلك المهرب ألقانى فى خضم عالم لا يعرفنى فيه أحد، ولا يهم أحد أن يعرف من أكون. كانت أمى الجديدة طيبة لكنها لم تكن تحب الحديث عن الصومال، وكنت أحاول الحديث معها عن الصومال أحيانًا لكنها كانت تهز رأسها رافضة مجاراتى فى إصرار ثم تشيح بوجهها عنى.

نفس الأمر فى المدرسة. حتى الفتيات الصوماليات رفيقات الدراسة لم يكنّ يفهمن شعورى، وبعض المعلمين كانوا ينصحوننى بكتابة ما أشعر به، لكنهم كانوا يريدوننى أن أكتب بالإنجليزية، وما الفائدة إذن؟

إننى أتذكر المرة الأولى التى طلبت منى أمى الجديدة فيها إحضار الثلج من الثلاجة. أتذكر أننى نظرت إلى المكعبات القاسية الباردة وقلت فى نفسى: «هذا أنا.. هذا ما يجب أن أكونه الآن».

وظللت هكذا، حتى تحدثت إلىّ «ساندى دكستر».

لم أعرف من هى ولا لماذا تسير فى الشوارع مرتدية ذلك الزى المتناقض مع سلوكها ، لكن حين قالت لى: «أنتِ صومالية.. أليس كذلك؟» كانت تنظر فى عينىّ مباشرة ، ورأتنى على حقيقتى.

لم يخبرها أحد أننى «خديجة» وأن «عابدى» أخى، ولم تطالبنى بأوراق إثبات شخصيتى، ولم تسألنى عن القبيلة التى أنتمى إليها.. بل أرادتنى أنا.. أنا فقط.

ولم أفهم كل ما قالته لأنها كانت تتحدث بسرعة بالغة لكن كلمتين من حديثها صكتا أذنى وظلتا تترددان بداخلى: العمل والمال. وأمسكت بالبطاقة وقرأت اسمها : «ساندى دكستر»، لكن رغم البطاقة فقد ظل «عابدى» يشكك فيها وينصحنى ألا أثق بها، لكننى لم أستمع له فقد نظرت تلك المرأة فى عينى مباشرة وعرضت علىّ وظيفة حقيقية، كما أنها أتاحت لى وسيلة للتحقق من شخصيتها فأين المخاطرة إذن؟

وقد تحققنا معًا من شخصيتها، فى مكتبة المدرسة. جلسنا أمام جهاز الكمبيوتر وكتب «عابدى» اسمها على لوحة المفاتيح واقتربت من الشاشة أحدق من خلفه فيها لأرى ما سيظهر. وحين ظهرت نتائج البحث أخذ «عابدى» يمر بإصبعه على كلٍ منها، ثم قال: «انظرى! إنها مذكورة فى مجلة «فوج» ومجلة «إل» و«جراتسيا»و.».

وكان الانبهار باديًا عليه، أما أنا فلم تكن تلك الأسماء التى يرددها تعنى لى أى شىء. ثم أشار «عابدى» من جديد إلى أول نتيجة وقال: «انظرى إلى هذا!»

كان ما أشار إليه هو الموقع الإلكترونى لساندى دكستر على ما يبدو:
www.sandydexter.com

وفتح «عابدى» رابط الموقع وملنا نحن – الاثنين – إلى الأمام ننتظر أن تتضح معالم الشاشة، وببطء شديد بدأت الحروف تتجمع وتتشكل وتتضح. وكانت هناك أيضـًا صور وروابط يوثق الأحداث المهمة فى مسيرة «ساندى» العملية فى متسلسلة وأرشيف وروابط أخرى تحوى موضوعات متنوعة. وضغط «عابدى» على زر الماوس ففتح رابط الأحداث المسلسلة فرأينا صورًا ومقاطع صوتية ومقاطع فيديو، وقلت : «أنا لا أفهم. ما معنى كل هذا؟»

فقال وقد ارتسمت الجدية على وجهه: «إن هذه المرأة تصنع ثيابًا لعلية القوم».

ولم أفهم الصلة بين الثياب وبين كل هذا الذى أراه وأسمعه، وقبل أن أسأله عما يجعله متأكدًا مما يقول. كان قد عاد إلى نتائج البحث وظل يفتح الرابط تلو الآخر. ولم يعطنى فرصة لفهم ما كان يفعله، وأخيرًا اعتدل فى مقعده وملأ رئتيه بالهواء بعد أن حبس أنفاسه طويلا أثناء البحث.

كانت صورة المرأة قد ظهرت على الشاشة..هى نفسها التى قابلتنا فى الشارع، بوجهها الشاحب الصغير المثلث والسمكة الزرقاء المرسومة بجوار عينها اليسرى.

وقال «عابدى» بهدوء: «هذا جنون! إنها.. مشهورة جدا.. انظرى!»

وانتقل إلى أسفل صفحة الإنترنت المفتوحة وأخذ يشير إلى أسماء أخرى: «ستيلامكارتنى»..«موشيا».«برادا»..«فيفيان وست وود». ولم

أكن أعرف تلك الأسماء أيضـًا، لكننى فهمت من لهجته أن هؤلاء الأشخاص مهمون جدا أيضـًا. كانوا فى الواقع من أشهر مصممى الأزياء، و«ساندى دكستر» هذه كانت واحدة منهم.

بعد ذلك وجدنا عدة مواقع لبيع الثياب. وبالطبع كنت أعرف أن العالم ملىء بالأثرياء لكننى شعرت بدوار حين رأيت كم ينفق هؤلاء على الثياب. هذه المرأة ذات الشعر المنتصب كالشوك ووشم السمكة المجاور لعينها قامت بتصميم ثياب بيعت بمبالغ خيالية، وها هى تريدنى أن أعمل لديها.

وقلت فى نفسى إننى سأستطيع لو وافقت أن أحضر عائلتى كلها من الصومال إلى هنا.

وقفز قلبى بداخلى فجأة.

وعاد «عابدى» إلى الصورة التى يظهر فيها وجه «ساندى» بوضوح، ثم دار فى مقعده وقال: «ماذا سنفعل؟»

كنت أتنفس بصعوبة، لكننى كنت أعرف الإجابة، فأيًا يكن العمل الذى ستقدمه «ساندى» لى فسوف أقبله. كيف لى أن أضيع مثل هذه الفرصة الرائعة؟

وقال «عابدى» : «ماما لن يعجبها هذا. هل تذكرين كيف غضبتْ حين علمت أنكِ ستعملين فى متجر العمة صفية؟ رغم أن العمة لم تكن لتجعلك تتبخترين أمام الغرباء وأنت كاشفة عن ساقيكِ».

لماذا يبحث «عابدى» عن المشاكل هكذا؟

وقلت: «ربما لن أضطر إلى كشف ساقىّ. وإذا كنت ترى أن أمى ستغضب فدعنا أولا نتأكد من طبيعة الوظيفة التى ستقدمها لى «ساندى» قبل أن نخبرها بأى شىء. لقد قالت «ساندى» إنه ينبغى أن يظل الأمر سرا.. أليس كذلك؟»

هل يحفظ «عابدى» السر؟ هل يمكننى الوثوق به؟

وأخذت أرمقه وأحاول أن أقرأ عينيه. وشعرت بأن وقتًا طويلا جدا قد مر قبل أن ينظر إلىّ أخيرًا ويقول: «أعتقد أنه يحسن أن نعرف طبيعة تلك الوظيفة أولا.. فلنناقش الأمر الليلة.. سأترك حفلة «راجح» مبكرًا وأصحبكِ إلى المتجر».

فيريا

قررا أن يخوضا التجربة.

لا أعتقد أننى كنت أجرؤ على ذلك لو كنت مكانهما.

لم يكونا يعرفان أى شىء عن الموضة، كما أنهما اضطرا لادخار المال كى يدفعا أجرة المواصلات، وبعد أسبوع من الادخار هربا من المدرسة وقطعا كل تلك المسافة إلى لندن. وفى العاشرة صباحًا كانا يسيران متجهين إلى مقر «ميريديث فوكس».

لا أعلم ماذا كان يتوقعان؛ قاعة زجاجية كبيرة مليئة بالنباتات والأرائك، أو حصنًا من الفولاذ والزجاج يقف على بابه حارس طوله ستة أقدام، لكن «ميرى» ليست ميالة للاستعراض بهذه الطريقة. لم يكن مقرها سوى غرفتى مكتب صغيرتين أنيقتين فى الطابق الخامس عشر، يشرف عليهما موظفة الاستقبال الأكثر كفاءة فى أوروبا كلها.«بث» التى تنفق حياتها كلها فى محاولة إرضاء الجميع، بداية من المراهقات اللواتى يأتين إلى المكتب مفعمات بالأمل ممسكات بالحافظات التى تحوى صورهن، وعارضات الأزياء الشهيرات المحطمات اللاتى نسين كيف يأكلن.. جميعهن

يأتين إليها فيطلبن مقابلة «ميريديث فوكس» شخصيا ودون تأخير، وعلى «بث» أن تحول دون وصول التفاهات إلى «ميريديث» وفى الوقت نفسه عليها ألا تغضب أحدًا وأيضًا عليها أن تحرص على ألا تفوّت على رئيستها فرصة اقتناص الفتيات الواعدات (وهو أمر ليس باليسير، خاصة أن الواعدات قد يظهرن فجأة ودون مقدمات ولا يكون من السهل اكتشاف إمكاناتهن).

تفعل «بث» هذا منذ أحد عشر عامًا ولا تنزعج بسهولة عادة ، لكنها مع ذلك أجفلت حين رأت «عابدى» و«خديجة» قادمين من الشارع إلى المكتب وقد ارتديا زيهما المدرسى.

بالطبع لم أكن هناك، ولم يكن هناك ما يدعو لأن يكون لى أى علاقة بأمرهما، عدا أن «ميريديث فوكس» أمنى الروحية وهى تتمتع بتصميم شديد وإرادة لا تلين، ولهذا وجدت هاتفى المحمول يرن أثناء حصة تاريخ مملة. وحين أخرجته وجدت رسالة نصية قصيرة مركزة تليق تمامًا بميريديث. كانت الرسالة تقول: «أين تختبئ ساندى؟»

ولم أشأ أن أرد أثناء الحصة فتلك مخاطرة كبيرة، إذ إن الأستاذة «كمبل» قد أخذت على عاتقها مهمة تخليص العالم من الهواتف المحمولة، لذا لم أتمكن من الرد على «ميريديث» قبل فسحة الغداء.

حين اتصلت بها وجدتها بركانًا ثائرًا، إذ قالت لى: «إذا كانت «ساندى» تريد أن تلعب ألعابًا سخيفة فلماذا لا تظل على اتصال بى؟ ما الذى يُفترَض

بى أن أفعله إذا لم أكن قادرة على الاتصال بها؟»

فقلت: «هل جربتِ الاتصال بها فى ورشتها؟» (كما لو أن «مرى» تحتاج لمن يقترح عليها هذا مثلا)

وزمجرت «مرى» بالطبع ولم تقل شيئًا فاستدركتُ قائلة : «آسفة.. حاولت أن أفكر فى اقتراح أفضل لكننى فشلت. هل أبى يعرف؟»

فقاطعتنى قائلةً :«لا .. أبوكِ لا يعرف مكانها.. ولا «ماركو».. ولا «ستيفان».. ولا «كارميل».. ولا «لورا».. ولا.».

كان واضحًا أنها أجرت اتصالات كثيرة. كان لابد أن أخمن هذا، فمادامت اتصلت بى وأنا فى المدرسة فلابد أننى آخر أمل.

وحين انتهت من تعداد من اتصلت بهم قلت لها: «لكن لماذا تريدين «ساندى» أساسًا؟»

فتنهدت تنهيدة طويلة درامية قبل أن تقول: «جاءتنى بطاقة من البطاقات البيضاء الصغيرة».

—معقول؟

لا عجب أنها غاضبة إلى هذا الحد، فحين أجرت مجلة «هالو» حوارًا مع «سيوبهان» تحدثت الأخيرة بإسهاب عن كيفية اكتشاف «ساندى» لها فقالت إنها لمحتها فى «تسكو» وأعطتها بطاقة بعد أن كتبت على ظهرها اسم

«ميريديث فوكس»، ومنذ ذلك الحين و«مرى» تستقبل أعدادًا لا حصر لها من الفتيات اللواتى يأتين إليها حاملات بطاقات مزيفة كتبن عليها اسمها بأيديهن، وتقوم «بث» بالتخلص من أغلبهن، إلا أن «ميريديث» تضطر إلى الاتصال بساندى فى بعض الأحيان للتأكد، فستكون خسارة فادحة لو أخطأت «ميريديث» وتخلصت من فتاة واعدة، خاصة إذا كانت «ساندى» هى من اختارتها.

وقلت: «ألا يمكنكِ أن تعرفى من الفتاة بعض التفاصيل وتأخذى منها بعض الصور وتريها لساندى للتأكد؟»

فقالت «مرى» ببرود: «نعم.. هذا منطقى.. أليس كذلك؟ ولكن الفتاة اللعينة ترفض أن تفعل أى شىء إلا فى حضور «ساندى» حتى إننى عاجزة عن إقناعها بخلع الإيشارب الذى تغطى به رأسها».

وفى تلك اللحظة شعرت أننى بدأت أجمع الخيوط معًا وأفهم أنها تلك الفتاة.. الفتاة التى قابلناها فى باتل هِل.

كنت واثقة أنها لن تبتلع الطعم فلم يبد عليها أى اهتمام حتى حين رأت اسم «ساندى» على البطاقة، حتى إننى اعتقدت أننى عثرت أخيرًا على فتاة منيعة أمام الموضة.

لكننى كنت مخطئة، وشعرت عندما اكتشفت ذلك أننى أحتقرها.

وقالت «مرى» بجدة: «فيريا؟ هل مازلتِ معى؟»

فعدت بذهنى إلى المحادثة قائلة : «أنا آسفة؛ فقط.. أنا.. أعتقد أن «ساندى» هى من أرسلت تلك الفتاة فعلا، فقد كنت مع «ساندى» الأسبوع الماضى ورأيتها تعطى فتاة بطاقة».

وسمعتها عندئذ تتنهد فى نفاد صبر قبل أن تقول: «ولماذا لم تقولى هذا منذ البداية؟ تعالى بسرعة إلى هنا لتريها وتقررى إذا ما كانت هى أم لا. ربما وافقت على الكلام أمامكِ مادمت كنتِ مع «ساندى» فى ذلك اليوم. لدىّ اجتماع بعد نصف ساعة ولن أستطيع أن أبدأه فى وجود هذين الطفلين».

– ولكننى فى المدرسة.

كانت «مرى» تعرف هذا بلا شك، لكنه لم يكن يعنيها فى شىء، وقبل أن أبدأ المجادلة أغلقت السكة.

لا بأس.. يمكننى أن أتجاهل الأمر كله وأن أبقى فى المدرسة، لكننى انتابنى الفضول لمعرفة السبب الذى دفع الفتاة إلى الذهاب إلى «ميريديث فوكس». الحقيقة أردت أن أحاول أن أثنيها عن رأيها وأن أمنعها من إهدار حياتها فى عرض الأزياء. ولم تكن حصة اللغة الفرنسية التى توشك أن تبدأ لتمنعنى من الذهاب وتنفيذ ما قررت فعله.

وبالفعل انسللت أثناء انشغال الجميع بشراء طعام الغداء. كانت الرحلة إلى مكتب «ميريديث» طويلة فشغلت نفسى بترتيب ما سأقوله لتلك الفتاة. ولم يخطر ببالى أننى سأضطر إلى تعريفها بنفسى قبل كل شىء،

فلم يمضِ على لقائنا سوى أسبوع.

أو هكذا ظننت على أى حال.

كانت الساعة قد بلغت الثانية حين كنت أخطو نحو الاستقبال فى مقر «ميريديث» وحين رأتنى «بث» ابتسمت وأدارت عينيها علامة أننى تأخرت، ثم أشارت نحو مكتب «مرى» كى أدخل مباشرة . وتناهى إلى أذنى– وأنا أفتح الباب– صوت «مرى» وهى تتحدث بلهجتها القاطعة العملية. كانت قد أدارت مقعدها بحيث يواجه الباب، وفى الوقت نفسه كانت تعمل، إذ كانت تتحدث فى الهاتف وترد على رسائل البريد الإلكترونى.

وكانت البطاقة البيضاء الصغيرة سبب المشكلة تتوسط مكتبها، وكان الصبى والفتاة القادمان من باتل هِل يجلسان فى ركن الغرفة وقد بدا عليهما الحرج وعدم الارتياح.

والعناد أيضًا.

وقلت بمرح: «مرحبًا. هل تتذكراننى؟»

فحملق الاثنان فىّ ولم يبد عليهما أنهما يتذكران رؤيتى قبل الآن على الإطلاق. ووضعت «مرى» سماعة الهاتف ثم دارت بمقعدها وقالت وقد عيل صبرها: «هاه؟»

فملت فوق مكتبها وقلت بصوت منخفض: «نعم.. إنها هى».

فقطبت «مرى» وقالت: «لا يبدو عليها أنها تعرفكِ».، فقلت: «لأنها.».، ثم توقفت قليلاِ قبل أن أقول: «لأنها لم تر وجهى على الإطلاق».، لكننى عجزت عن شرح الموضوع لمرى، فصحيح أنها أمى الروحية لكنها ليست ضمن فريق عمل «ساندى»، و«ساندى» تغضب أشد الغضب إذا ما ذاعت أسرار عملها. كانت تقول: «ينبغى ألا يعرف أحد شيئًا، خاصة «مرى»، فهى أعز صديقاتى لا شك فى ذلك ولكنها لا تستطيع مقاومة إغراء التفاخر بما تعرفه».

وأخيرًا اهتديت إلى تفسير فقلت بتردد: «لأنها.. لم ترفع عينيها عن ساندى».

– مممممم

قالتها «مرى» وقد بدا عليها أنها تعرف أننى أخفى شيئًا، ثم دارت بمقعدها ثانية وقالت: «ليس لدينا وقت كثير، حتى ولو من أجل أمك العزيزة. إذا لم تستجب لكِ تلك الفتاة فلتجد لنفسها وكالة أخرى».

كانت قد رفعت صوتها حتى تسمعها الفتاة الصومالية، لكن الفتاة لم تأت بأى رد فعل، ولم يفارق وجهها تعبير العناد والإصرار الصارم الذى ارتسم فوقه.

وقلت: «سآخذهما إلى الخارج لتناول القهوة، فربما يغيران رأيهما لو ارتاحا قليلا».

– ربما.

فقلت بامتعاض لأذكرها أننى أنا أيضًا لى شئونى التى ينبغى أن أهتم بها: «أو ربما كان من الأفضل أن أعود إلى المدرسة وحسب».

فنظرت إلىّ وهى تبتسم قائلة : «حسنًا حسنًا. أعرف أنكِ تضحين بوقتكِ بدافع طيبتكِ فقط. فكرة عظيمة فكرة القهوة هذه. امنحينى نصف ساعة لتسوية مسألة خاصة بمولى وسوف يتيسر لى بعد ذلك أن أركز اهتمامى مع هذه الفتاة. ومن يدرى؟ ربما ظهرت «ساندى» قبل مرور نصف الساعة».

وابتسمت لها وتوجهت إلى الصبى والفتاة وأنا أحاول أن أبدو ودودة قدر الإمكان وقلت: «أنا «فيريا» ابنة «ساندى»، ولن تعود «ساندى» الآن فلماذا لا نذهب لانتظارها فى ستار بَكس؟ إننى أدعوكما لتناول القهوة هناك على حسابى».

فغمغم الصبى بشىء ما، أما الفتاة فقطبت، ثم أومأت، ثم نهضت. كنت قد نسيت روعة مشيتها، لكن سرعان ما تذكرتها وأنا أراها تبلغ مكتب «مرى» فى خطوتين واسعتين رشيقتين، ثم مدت يدها لاستعادة البطاقة البيضاء الصغيرة، وما إن أودعتها جيبها حتى دارت متوجهة نحو الباب.

وهمست لى «مرى» قائلة : «إياكِ أن تفلتيها من يدكِ».

وفى ستار بكس طلبتُ ثلاثة أكواب من الكابتشينو ثم حملتها إلى المنضدة التى كنا نجلس أمامها. كان الصبى قد احتل المقعد الوحيد الذى له ذراعان، وجلسنا نحن – الاثنتين – فى مواجهته، وكنت أرى وجهينا منعكسين

على زجاج النافذة التى تعلو رأسه. كنت أرى وجهى إلى جوار وجه «خديجة».. وجهها أدكن معبر، بينما وجهى وردى يفيض تعبيره بالقلق وعدم الارتياح. حتى أبى نفسه لا يمكنه إصلاح عيوب هذا الوجه.

ووضعت الكابتشينو على المنضدة وأنا أقول: «اسمى «فيريا» وأنتما؟»

وترددا لثانية ونظرا إلى بعضهما بعضًا ثم أجابانى.

كانا «عابدى» و«خديجة».

ثم صمتا.

لم يقولا سوى اسميهما وحسب. كلمة واحدة من كل منهما. وشعرت بأن إجراء حوار معهما ليس بالمهمة السهلة. ولدقيقة شعرت أن الأدب الفرنسى الذى هربت من حصته كان أمتع من هذا، فتنفست بعمق كى أهدأ وقررت أن أحاول مرة ثانية فقلت: «من أين أنتما؟ أين تعيشان فى باتل هل؟»

فتبادلا المزيد من النظرات الحائرة القلقة، ثم قال «عابدى»: «فى مكان ما هناك».

هل كانا يعتقدان أننى جاسوسة مثلا؟ وحتى لو كنت جاسوسة فما الذى يضطرهما إلى إخفائه؟ إذا كانا قد تصرفا مع «مرى» بنفس هذه الطريقة فلا عجب أنها مغتاظة إلى هذا الحد.

وكان بإمكانى أن أظل هكذا، أسأل نفس الأسئلة المملة ويردون بنفس الردود المملة، لكن مجرد تخيل أن يستمر الأمر على هذا المنوال جعلنى أشعر

أننى على وشك الموت من فرط الملل، لذا لزمت الصمت وظللت أنظر إلى «خديجة» من خلف كوب الكابتشينو، ثم قلت: «المهم: ما الذى تفعلينه هنا؟ هل فعلا قررتِ أن تحضرى إلى هنا كى تعملى مع «ساندى»؟ هل تريدين حقا أن تهدرى حياتكِ فى التبختر فوق ممشى عرض الأزياء وأنت ترتدين ملابس لا يستطيع الناس العاديون شراءها؟»

فقطبت «خديجة» ثم مالت فاقتربت من «عابدى» وهى تغمغم بكلمات لم أفهمها. أما الآن وقد صرت أعرفها جيدًا فإننى أعرف أنها لم تقصد أن تتصرف بقلة ذوق، لكن هذا ما اعتقدت حينها، فقلت بصوت عالٍ : «ألا تتحدث الإنجليزية على الإطلاق؟»

فرمانى «عابدى» بنظرة غاضبة ثم قال: «بلى.. تتحدث الإنجليزية، لكنها تريد أن تعرف لماذا أنتِ غاضبة هكذا؟»

وأربكتنى كلماته فوجدت نفسى أكذب قائلة إننى لست غاضبة، لكننى كنت غاضبة فعلا، فماذا لو قلت الحقيقة ببساطة؟

وهكذا عدت أقول: «بل أنا غاضبة فعلا.. غاضبة لأنها قررت أن تصير جزءًا من لعبة الموضة. لماذا تريد فتاة مثل «خديجة» تضييع وقتها فى تلك السخافات؟»

ووقعت فى فخ الحديث مع «عابدى» وحده لأنه الذى كان يجيبنى، لكن «خديجة» لم تكن لتسمح لنا بأن نناقش مصيرها هكذا وكأنها غير موجودة فقالت: «أريد وظيفة ..أريد أن أجنى المال».

كان وجهها جامدًا وكأنه قناع، لكن لم يكن من الصعب أن أدرك أنها مثلى تمامًا غاضبة.ووجدتنى أرد عليها تلقائيا قائلة : «حسنا.. المسألة مسألة نقود فقط إذن.. هل تعتقدين أن النقود أهم شىء فى العالم؟»

وما إن تفوهت بتلك الكلمات حتى أدركت مدى بشاعتها. أدركت أننى صرت الفتاة الثرية المدللة التى لا تتورع عن وعظ فتاة تحتاج للعمل وكسب عيشها بنفسها، لذا أسرعت أحاول إصلاح الموقف فقلت: «ليس الأمر بالسهولة التي تتصورينها؛ لعلمك بعض عارضات الأزياء يكسبن مالا كثيرًا لكن معظمهن لا يكسبن الكثير، كما أن حياة عارضة الأزياء شديدة الصعوبة».

وقال «عابدى»: «صعبة؟؟؟ ما الصعوبة فى السير رواحًا وغدوًا؟»

إنهما يجهلان كل شىء عن هذا الموضوع فكيف لى أن أجعلهما يفهمان؟ كنت لا أزال أحاول ترتيب أفكارى حين رن جرس الهاتف. كانت «ساندى» المتصلة، وقالت: «أنا فى مكتب «مرى». كم من الوقت أمامكِ كى تستطيعى الوصول إلى هنا؟»

وأراحتنى إجابتها حتى إننى قفزت من مكانى بمجرد سماعها، ودون أن أنهى قهوتى قلت باقتضاب: «هيا بنا. «ساندى» تنتظرنا».

وحين وصلنا كانت «مرى» لا تزال جالسة خلف مكتبها، لكن «ساندى» كانت الآن تجلس فوق طرف المكتب وتثرثر معها بصوت عالٍ وقد بدت عليها الجدية، وما إن انفتح الباب حتى صمتت وتحولت بعينيها إلى وجه «خديجة» فى الحال.

ومدت «مرى» يدها إلى الهاتف وقالت: «سأتصل ببلندا»

لكن «ساندى» قالت: «لا أريد صورًا». فاتسعت عينا «مرى» من الدهشة.. حتى أنا اتسعت عيناى من الدهشة. كان الأمر أشبه بأن يُدعى ناشئ إلى ملعب مانشستر لتقييمه ثم يقال له: «ستلعب بدون كرة قدم». كيف يمكن تقييم عارضة أزياء دون تصويرها؟ الصور هى المحك.

لكن «ساندى» لم تفسر أى شىء بل أومأت إلى «خديجة» وحسب وقالت: سيرى نحوى، ثم لفى وعودى إلى حيث كنتِ».

وتراجع «عابدى» إلى الوراء ليفسح الطريق، وبدأت «خديجة» السير. كانت مترددة فى البداية، ثم سرعان ما اكتسبت ثقة بنفسها فأخذت تروح وتغدو وقد مال كتفاها للوراء واشرأب عنقها الطويل وشمخ رأسها عاليًا. لم تكن تمشى كعارضة أزياء على الإطلاق، فعارضات الأزياء يمشين بحيث يبدو كل ما فيهن وكأنه يقول: «انظروا إلىّ.. انظروا إلى صورتى كيف ستبدو».، أما «خديجة» فقد كانت تستخدم جسدها للانتقال من مكان إلى مكان وحسب.

وأخذت «مرى» تراقبها وقد مالت برأسها إلى جانب، وحاولت مرة أن تلفت انتباه «ساندى» لكنها لم تفلح فقد كانت «ساندى» قد ركزت كل اهتمامها على «خديجة»، فدونت «مرى» شيئًا ما فى مفكرتها ثم استمرت تتأمل خطوات «خديجة».

كانت طريقة تعامل كلتيهما مع الأمر مختلفة. كانت «مرى» تنظر بعينين منفعلتين، تروحان وتغدوان مع «خديجة»، وتقطب ثم تنفرج قسماهما ثم تقطب وهكذا، وتعض شفتيها، أما «ساندى» فقد ظلت ثابتة ساكنة ولم ينم

وجهها عن أى انفعالات مما تدور بداخلها، ولم أكن أعرف فيم تفكر، لكننى كنت أشعر أنه لا شىء يشغلها سوى تلك الفتاة التى أخذت تروح وتغدو.. وتروح وتغدو.

وحين وصلوا إلى المخيم أخيرًا كان الجوع والتعب قد تملكا منهم. كانت بقية الإبل قد نفقت خلال الرحلة فلم يعد معهم سوى الأشياء التى يحملونها.

وبدأت شقيقات «محمود» الصغيرات فى التذمر ما إن وقعت أعينهن على الخيام القبيحة التى أقيمت كيفما اتفق على جانبى الطريق. كان هناك المئات من الخيام المتلاصقة، وقد جلس حولها الأطفال وأخذوا يلعبون فى التراب.

وقالت «زينب»: «المكان هنا قذر».، ثم أخذت تبكي.

وأخذ «محمود» يرمق وجه أمه وهى تحدق فى المخيم. هل ساءها المنظر أيضًا؟ هل تشعر بالأسى لأنهم–بعد كل هذه الرحلة الطويلة الشاقة– وجدوا أنفسهم فى هذا المكان البائس؟

ولكن تعبير وجه الأم لم يتغير، بل ظلت كما كانت دائمًا، قوية مبتهجة مليئة بالتصميم والعزيمة، وقالت لزينب: «لا تبكى بسبب مثل هذه الأشياء الصغيرة. إنه مكان يصلح للإقامة فيه بشكل مؤقت حتى ينتهى الجفاف. فلنُقِم خيامنا هنا وسوف أذهب للبحث عمن يقدمون الطعام».

لكن الأمر لم يكن بهذه السهولة فلم يكن مسموحًا للناس بنصب خيامهم فى أى مكان يريدون، حتى وإن كانت صغيرة مصنوعة من أفرع الأشجار والحُصُر المخيطة ببعضها البعض، واستغرق الحصول على الإذن

«محمود» ساعات طويلة، وأخيرًا حصلوا على الإذن لكن المكان كان ضيقًا جدا وغير مناسب حتى إن خيامهم كانت تكاد تنسحق بين الخيام الأخرى.

وحين انتهوا من كل تلك الأمور كان الطعام قد تم توزيعه ولم يبق شىء لمن وصلوا متأخرين.

ونظر «محمود» إلى «زينب» و«ساجال» اللتين كانتا قد توقفتا عن البكاء والشكوى والتذمر لكن وجهيهما كانا يبدوان نحيلين منهكين، وقال: «أليس هناك أى طعام على الإطلاق؟ ولا حتى لهما هما فقط؟»

ولم ترد أمهم بل جمعت ما كان معهم من المال، ولم يكن كثيرًا، إذ لم يكن سوى ذلك المبلغ الذى كانوا ينوون استخدامه فى إرسال رسالة بريد إلكترونى إلى «جى-رى» فى إنجلترا. ثم انطلقت الأم إلى مكان ما.

وحين عادت لم يكن المال معها، وإنما كان معها حزمة حطب صغيرة وكيس دقيق صغير.

وقالت فى سرور: «سوف نأكل اليوم، وبعدها يمكننا أن نجد طريقة للحصول على المال وإرسال الرسالة إلى «جى-رى».

عابدى

حين عدنا إلى مكتب السيدة «فوكس» كنت أعتقد أن الأمور ستسير بسهولة، فساندى دكستر الخطيرة نفسها هناك، وهى تريد «خديجة». ودخلت المكتب مرفوع الرأس متوقعًا اعتذارًا عن الطريقة التى عوملنا بها فى البداية.

لكن ذلك لم يحدث، فلم ترحب بنا «ساندى» وتبدأ الحديث عن العمل كما توقعت، ، بل جعلت «خديجة» تتمشى ذهابًا وإيابًا، ووقفت هى والسيدة «فوكس» و«فيريا» فى صف ينظرن إليها .. الثلاثة كن يحدقن فى «خديجة».

وقلت فى نفسى: «ترى من الأهم فيهن؟ ومن التى ستنجح «خديجة» فى الحصول على الوظيفة إن هى نجحت فى نيل رضاها؟»

مممم.. بالتأكيد لم تكن «فيريا» رغم كونها ابنة «ساندى دكستر»، فهى تقريبًا فى عمرى وعمر «خديجة»، وحتى لو لم تكن فقد كانت تبدو قليلة الحيلة حين تتحدث.

ماذا عن «فوكس»؟ المرأة الثعلب؟ إنها الأكبر سنًا كما إنها تتطابق تمامًا مع فكرتى عن سيدات الأعمال، بشعرها الأنيق والخواتم التى تزين

بها أصابعها والبدلة الرائعة التى ترتديها، كما أنها كانت تتصرف تَصرُّف سيدة أعمال، فكانت تنظر إلى «خديجة» أثناء سيرها وقد زمت شفتيها وضيقت عينيها كما يفعل المرء حين يدير صفقة ما فى رأسه.

لكنها كانت تسترق النظر إلى «ساندى دكستر» منتظرة ما ستقوله تلك الأخيرة. كما أن «ساندى» هى التى تصمم الأزياء، فهى بالتأكيد من تعطى الأوامر.. أليس كذلك؟

ووددت لو عرفت ما يدور فى رأس «ساندى دكستر». فلنفترض أنها أعجبت بخديجة وعرضت عليها وظيفة وطلبت منا ردا محددًا الآن فماذا سنفعل؟

لكن لم يحدث شىء من هذا كله، بل رفعت «ساندى» يدها، بعد حوالى عشرة دقائق، لتأمر «خديجة» بالتوقف، ثم اقتربت من «فوكس» وأخذتا تتشاوران.

وسمعت «فوكس» تقول : «إنها مدهشة.. لو أن «بلندا» فقط يمكنها أن.».

لكن «ساندى» هزت رأسها يمنة ويسرة بحزم، ولم أستطع سماع معظم ما قالته، لكننى تبينت كلمتين فقط هما «خرقاء» و«مشاغبة». وانسللت مبتعدًا عن «خديجة» ومقتربًا منهما لعلى أستطيع سماع المزيد.

كانت «فوكس» ترفض الاستسلام إذ سمعتها تقول: «أحتاج فقط إلى بعض الصور»، أما «ساندى» فكانت تقول: «ليس هذا سوى مضيعة للوقت».، ثم شدت قامتها وقالت: «طبيعتها واضحة بالنسبة لى يا «مرى»..

هذه الفتاة مثلها مثل «فيرونيكا».. لو أردتِ أن تجعليها توقع لكِ فافعلى لكننى أقول لكِ إنك ستندمين .. صدقينى.. أنا لن أحجزها بالتأكيد.»

وغمغت «فوكس» بشىء ما عن تضييع الوقت فيما لا يفيد، وكان واضحًا أنها مستاءة لكنها لم تستمر في المجادلة. وكانت علي وشك النهوض حين ربتت «ساندى» علي كتفها وقالت: «لا تتعبى نفسكِ.. سأضع هذين الاثنين فى تاكسى.»، ثم أشارت برأسها إلىّ أنا و«خديجة» وقالت: «هيا.. وأنتِ أيضـًا يا «فيريا» تعالى.»

وقادتنا أمامها إلى خارج المكتب، إلى المصعد، مرورًا ببث القابعة خلف مكتبها.

بدت «خديجة»مضطربة الأفكار مشوشة الذهن، أما أنا فقد كان دمي يغلى. كنت أريد أن أقول لتلك المرأة: «أنتِ من طلبتِ منا المجئ إلى هنا وجعلتنا نهدر نقودنا.»، لكن المصعد كان قد وصل إلى الطابق السفلى قبل أن أتمكن من النطق بتلك الكلمات، وانطلقت «ساندى» منه إلى الشارع مباشرة وقد رفعت يدها لإيقاف تاكسى. وبالفعل توقف تاكسى إلى جوار الرصيف فأشارت لنا فى الحال أن اركبوا.

لكننى لم أتزحزح من مكانى، بل قلت: «لا يمكننا دفع أجرة التاكسى.»

فقالت «ساندى» بصوت يشبه الصفير: «لا تكن سخيفـًا.اركب فقط، وسأركب معكما، وكذلك «فيريا».. ينبغى أن نتحدث فى بعض الأمور، لكن ليس قبل مغادرة هذا المكان.»

–عن أى شىء نتحدث؟

كان واضحًا أنها تتوقع أن نفعل أى شىء تأمرنا به دون مناقشة أو استفسارات. ونظرتُ إلى «خديجة» مقطبًا كى تفهم أنه ينبغى عليها أن تلزم مكانها مثلى.

وصحت: «لن نركب إلا إذا فهمنا ما يحدث بالضبط.»

عندئذ تنهدت «ساندى» وقالت: «لماذا لا تستطيع الوثوق بى ولو لدقيقة؟»

كنت أكره أن يخدعنى أحد فقلت: لقد وثقنا بكِ.. وثقنا بكِ لدرجة أننا هربنا من المدرسة وأنفقنا كل ما معنا من نقود على المواصلات. وما المقابل؟ لا شىء، فقد قلتِ إن «خديجة» عديمة النفع بالنسبة لكِ، فلماذا إذن تريدين الحديث معنا؟ أعطينا ما يكفى من نقود كى نعود إلى منزلنا وحسب.»

فقالت: «إنكما لا تفهمان الحكاية. حين كنا فى المكتب خطرت لى فكرة رائعة بشأن «خديجة».. ستكون مفتاح مجموعة أزيائى القادمة كلها.»

ولم أصدقها وقلت لها: «إذن لماذا قلتِ إنكِ لا تريدينها أن توقع عقدًا؟»

فقالت «ساندى» وقد عيل صبرها: «لأن فكرتى لن تنجح إلا إذا ظلت سرًا وأنا لا أثق فى قدرة «ميريديث فوكس» على كتمان السر لذا كان ينبغى إخراجها من الموضوع والثقة ببعضنا البعض وحسب. لماذا تشعرنى أن هذا مستحيل؟»

فقاطعتها «فيريا» قائلة : «ربما ينبغى أن تثقى أنتِ فيهما أولا. إذا ما خاطرتِ بأن..»

عندئذ فتح السائق نافذة التاكسى وأطل منها ليصيح قائلا: «سيدتى.. هل تريدين التاكسى أم لا؟ لا يمكننى انتظاركم طوال اليوم.» ففتحت «فيريا» باب التاكسى ونظرت إلى «ساندى» وقالت: «مثلا إذا ذهبنا إلى ورشة عملكِ عليكِ أن تريهما ما فعلته حتى الآن فيما يخص مجموعتكِ الجديدة.»

عندئذ امتقع لون «ساندى» فازدادت شحوبًا على شحوبها وقالت: لكنكِ تعرفين أنه لا يمكننى أن أفعل ذلك.»

فقالت «فيريا»: «ولِمَ لا؟ ألا تثقين بهما؟»

ثم دلفت إلى التاكسى بسرعة وأشارت لنا كى نركب نحن أيضًا، ونظرت «خديجة» إلىّ وكأنها تسألنى هل نركب أم لا؟ وكيف لى أن أتخذ مثل هذا القرار؟

غير أن الفضول قد دفعنى لركوب التاكسى آخر الأمر.

ومالت «ساندى» على نافذة السائق لتعطيه العنوان ثم انسابت إلى داخل التاكسى وما إن لامس جسدها المقعد حتى أغمضت عينيها، وانطلق التاكسى فصار نقطة فى بحر السيارات التى تملأ الشارع.

ومع انطلاقته الأولى نظرت إلى المبنى الذى غادرناه فرأيت فى أحد النوافذ فى الطابق الأول وجهًا أنيقًا حاد القسمات يحدق فينا.

كان وجه السيدة الثعلب «ميرى فوكس».. هل رأتنى أتجادل مع «ساندى»؟ هل رأتنا نستقل التاكسى ونبتعد؟ وهل يهم -أصلا -إن كانت رأتنا أم لا؟

كدت أن أسأل «ساندى»، ثم رأيت أن أبقى فمى مغلقًا.

فالأمور لا ينقصها التعقيد.

خديجة

لم أستطع أن أصدق عينى وأنا أرى «ساندى نكستر» تهز رأسها ونحن فى المكتب، لكن لم يكن يمكننى أن أكذب أذنى فقد سمعتها تقول بمنتهى الوضوح إنها لا تريدنى بعد كل ما كان.

إذن فلماذا أصرت على أن نركب التاكسى معها؟

واقتربتُ من «عابدى» وهمست قائلة له بالصومالية: «ماذا يحدث؟»، فهمس بدوره: «إننا فى طريقنا إلى ورشة «ساندى»..وهى مكان سرى إذ لا أعتقد أنها تسمح للناس عادة بمعرفة ما تفعله لذا أغلقى فمكِ وافتحى عينيكِ جيدًا».

لكننى لم أفهم فقلت: «لماذا تأخذنا إلى ورشتها إن كانت لا تريدنى أن أعمل معها؟»، فقال «عابدى»: «بل تريدك بكل تأكيد، لكن هذا أيضًا سر».

يا لكثرة أسرارها.

وشعرت وكأننا حين أتينا إلى «ساندى» صرنا فى بلاد مختلفة.. قواعدها مختلفة.. بلاد صغيرة مزدحمة ينبغى لكل شىء فيها أن يظل خفيا.

ووجدتنى أغمض عينى وقد غمرنى حنين إلى الصحارى النظيفة البسيطة الواسعة الممتدة بلا حدود.

وحين فتحت عينى كان التاكسى يتوقف أمام مبنى مرتفع قذر يقع، فى شارع ضيق، ولم يتفق ما رأيت وتصوراتى عن المكان الذى تؤدى فيه «ساندى دكستر» عملها. كنت قد تخيلت ورشتها وقد كتب على بابها اسم «ساندى» بحروف من ذهب، فإذا ما تجاوز المرء ذلك الباب وجد نفسه فى غرفة واسعة جيدة التهوية جدرانها مليئة بالمرايا اللامعة والمانيكانات الرشيقة الشبيهة بالغزلان.

لكن–بادئ ذى بدء– لم يكن على الباب أى لوحة تحمل اسم «ساندى» بل لم يكن سوى باب خشبى بسيط يخلو من أية زخارف، وبجواره الجرس.

ودفعت «ساندى» لسائق التاكسى نقوده ، ثم قفزت خارج التاكسى وأخذت تبحث عن مفاتيحها قبل أن تقول: «ها هى .. تعاليا لأقدمكما إلى «كارميل». كانت «كارميل» شابة حسناء لها شعر أصهب ويتدلى من أذنيها قرطان طويلان، وكانت تجلس خلف مكتب وراء الباب تقريبًا، تحرس الطريق المفضى إلى الداخل. وحين دخلنا رفعت رأسها سريعًا ثم قالت: «أهلا يا «فيريا» و ..؟»

فقالت «ساندى»: «عابدى و «خديجة».. و هما ليسا هنا.. اتفقنا؟ إذا رأيتهما ثانية فأنتِ لا تعرفينهما ولم يسبق لكِ رؤيتهما.. مفهوم؟ سوف نصعد».

فابتسمت «كارميل» وهى ترفع حاجبيها وقالت: «أهلا بكما أيها الخفيّان.. لابد أنكما مميزان جدا فلا أحد تقريبًا يُسمَح له بالمجىء إلى هنا».

وأشارت لنا «ساندى» كى نتحرك وابتعدنا عن «كارميل» التى صاحت بينما كنا نصعد السلم: «وإذا اتصل بكِ أحد فهل أقول له إنكِ هنا؟»

فصاحت «ساندى» بدورها: «لا.. أنت لا تعرفين أين أنا أيضًا».

أسرار.. فى كل مكان أسرار.

وحين وصلنا إلى الطابق الثانى رأينا غرفة العمل الرئيسية، والتى لم تكن سوى غرفة مليئة بالمناضد والرفوف والماكينات، ومغطاة جدرانها برسوم وتصاميم معلقة هنا وهناك، ولم يكن هناك أى عارضات أزياء بل مجرد مجموعة من النسوة اللواتى انهمكن فى الخياطة وقد تناثرت قطع القماش والخيوط حول أقدامهن، كما كان هناك رجل طويل وقور يقف على مبعدة منهن وأخذ يقص أشكالا من قماش جميل زاهى اللون.

لم يكونوا يتوقعون حضور أحد؛ لذا فحين دلفنا أنا و«عابدى» إلى الغرفة توقفوا عن العمل ورفعوا رءوسهم بسرعة، وأخذت اثنتان منهن تجولان بعينيهما فى الغرفة خشية أن تقع أعيننا على ما لا ينبغى لنا رؤيته.

ولوحت «ساندى» تحييهم جميعًا وهى تقول بمرح: «لا داعى للقلق. «عابدى» و«خديجة» ليسا هنا، وأنتم لم تروهما».

ثم أمسكت بذراعى لتقربنى منها وهى تهمس: «انظرى حولك. يمكنكِ أن تتفرجى على كل شىء وأى شىء إذا أردتِ، وحين ننتهى سنصعد لنلقى نظرة على مكانى الذى أعمل فيه أنا».

فى البداية لم أجد ما يستحق أن يتفرج عليه المرء أصلا فلم يكن المكان سوى فوضى من الأشكال والألوان المختلطة غير المتمايزة، وكان الرجل الطويل المسك بالمقص يراقبنى وكأنه يشعر بالقلق بسبب وجودى قربه فقالت «ساندى» : «لا بأس يا «إيتيان» .. سوف أفهمك».، ثم سارت نحوه واقتربت منه وأخذا يتهامسان.

وفى تلك الأثناء همست لى «فيريا» قائلة: «إيتيان مقصدار عبقرى، لكنه يعانى نوعًا من التوحد يجعله لا يحب المفاجآت».

ولم أفهم ما قصدته كما لم أفهم أى شىء عن ذلك المكان أو سلوك الموجودين فيه.

ودفعتنى «فيريا» برفق وقالت: «لا تشغلى نفسك به، بل اذهبى واطلعى على أسرار «ساندى» فلن تتاح لكِ فرصة كهذه أبدًا مرة ثانية».

عندئذ همس «عابدى» فى أذنى قائلا: «هذا صحيح. فلتحاولى فهم ما يفعلون».

وشعرت بأننى محرجة من التجوال فى المكان ودس أنفى فيما يفعله الناس، لكننى رأيت مشجبًا طويلا معلقة فوقه ملابس كثيرة فى ركن الغرفة البعيد، بعيدًا عن المناضد التى كان الناس يعملون عليها، فذهبت إليه لأتفرج على الثياب التى لم تكن فى الواقع أقل غرابة من أى شىء فى ذلك المكان.

كانت ثيابًا كثيرة متنوعة. معاطف وسترات طويلة وقصيرة، واسعة وضيقة، لكن لم يكن أى منها يصلح لأن يُلبَس. فقد كانت الغرز التى خيطت بها أجزاء القماش ببعضها بعضًا خشنة غير منتظمة، وكانت جميع القطع عديمة الألوان تمامًا وكأنها صُنِعَت من قماش لم يُصبَغ بعد.

هل هذا هو السر العظيم؟؟؟ انعدام الألوان؟ هل يدفع الناس كل تلك الأموال لشراءِ ثياب كهذه؟ ورأيت فى ركن الغرفة، وراء ذلك المشجب دمية خشبية من التى تستخدم لتصميم الثياب عليها، وكانت ثمة قطعة قماش ملفوفة حولها ومتدلية فوق الأرض كيفما اتفق. كنت قد رأيت جدتى ترتدى شيئًا شبيها بذلك الثوب، ربما مرة أو مرتين، منذ زمن بعيد، لكن القماش كان مختلفًا. كان نوع القماش المستخدم هنا أقرب إلى قماش الزى الذى يرتديه أبى، ذلك القماش المنقوش بنقوش بيضاء وحمراء عادة .

وخطوت نحو الدمية فلمست الثوب، وشعرت عندئذ بغصة فى حلقى وأنا أحس ملمس الصوف تحت إصبعى، وغمرنى الحنين.

هناك أشياء لا تدرك كم تفتقدها إلا حين تلتقى بها ثانية وجهًا لوجه.

ونظرت إلى الجانب الآخر من الغرفة فرأيت «عابدى» مقطبًا كى يشعرنى أنه يحس بالملل. وفى اللحظة نفسها التفتت «ساندى» فرأته على هذه الحالة فضحكت وقالت: «ليس هذا ما كنتما تتوقعانه.. أليس كذلك؟ فلنصعد إذن إلى الطابق العلوى لنرى إن كانت الأمور ستتضح لكما أكثر هناك أم لا».

وصعدنا فألفينا أنفسنا فى ممر صغير مظلم على أحد جانبيه كانت هناك مجموعة من الأبواب المغلقة. وفتحت «ساندى» الباب الأول وأطلت

برأسها إلى الداخل وهى تقول: «كيف حالك يا ستيفان؟»، فالتفت إلينا شاب وغمز بعينه.

كان نحيفًا جدا، أشقر جدا حتى إنه بدا عديم الألوان هو الآخر، لولا زرقة عينيه الشاحبة، وحين رآنى بدا عليه السرور وقال: «هل هذه هى؟»

فأشارت «ساندى» لنا كى ندخل الغرفة وقالت: «نعم إنها هى».

كانت «فيريا» آخر الداخلين، ثم أغلقت «ساندى» الباب وهى تقول: «لقد حضرتْ معى لتلقى نظرة».

فقال لى «ستيفان» بترحاب شديد: «رائع ! ماذا تحبين أن ترى؟ هل تريدين رؤية بعض التصميمات؟»، ثم فتح دوسيهًا وأخرج منه رزمة من الأوراق التى رُسِمَ عليها خطوط كثيرة وبعثرها على المنضدة أمامه، وتقدم «عابدى» هو الآخر لينظر، لكننى رأيت شيئًا مختلفًا عما رأى.

فعلى الجدار خلف «ستيفان» كان هناك لوح طويل ثبتت فيه صور وقطع من الأقمشة. كانت جميعها تبدو مألوفة لى .. كانت جميعًا تزيد من تلك الغصة التى شعرت بها وأنا ألمس الصوف منذ قليل. وتبينت فى الرسوم المثبتة على اللوح بعض الخطوط الانسيابية التى سرعان ما اتضح لى أنها عنق طويل..عنق جمل رُسِمَ بخطوط سوداء على ورقة صفراء. ورأيت صورتين فوتوغرافيتين لبيتين بدويين يقبعان على جانب طريق مترب. ما الذى تفعله أشياء كهذه فى مرسم مصممة أزياء؟ وتقدمت من اللوح لأرى المزيد مما علق فوقه.

رأيت قطعة من قماش أزرق حال لونه وكأنها جزء من شراع مركب قديم. وكان هناك أيضًا مشط منحوت من الخشب وعقد مكون من حبات

كهرمان منظومة فى خيط، ومروحة وردية اللون من ريش الهدهد الذى ينتهى باللونين الأبيض والأسود. وشال قطنى زاهى الألوان، معقود ومعلق على ركن من أركان اللوح. وكانت الأشياء جميعها مرتبة بحيث تتناغم ألوان أطراف كل واحد منها مع ألوان أطراف ما يجاوره من أشياء، فتبدو جميعًا وكأنها أغنية واحدة منسجمة النغم.

وشممت رائحة بخور خفيفة تنبعث من الشال فأمسكت بطرف من أطرافه وشممته وأنا أرى بعينى ذاكرتى شال أمى حين كان ينزلق من فوق رأسها وهى تنحنى فوق مجمرة البخور فتتخلل الرائحة العطرة شعرها.

واعتصرت الرائحة قلبى فغمغمت قائلة لعابدى بصوت منخفض: «هذه الأشياء صومالية».

لكنه لم يفهم. أنى له أن يفهم وهو لم يزر الصومال فى حياته؟ أنى له أن يفهم ولم يجلس قط فوق أرضها.. تلك الصحراء الممتدة.. تعلوه السماء المرصعة بالنجوم، ورائحة البخور تفعم أنفه، متهيئًا لسماع قصة قديمة؟

«كان يا مكان.. كان هناك رجل له ثلاث زوجات.».

ولا يمكن أن تكون «ساندى» فاهمة أيضًا، لكننى رأيت وجهها يضىء من فرط الحماسة وهى تتحدث إلى «عابدى» وتقول: «هذا صحيح.. هذه الأشياء من الصومال فهل فهمتِ الآن؟»

لكننى لم أعرف ما الذى من المفترض أن أفهمه، ومع ذلك فقد كان هناك شىء واحد واضح من طريقة نظرها إلى كل تلك الأشياء.

كان واضحًا أنها قد وقعت فى غرام بلادى، وأدركت كم هى جميلة.

آه يا بلادى .

فيريا

لم أكن قد ذهبت إلى ورشة عمل «ساندى» منذ أسابيع لذا لم أكن قد رأيت ذلك اللوح – ذلك التقليعة الجديدة– قبل تلك الزيارة. بصراحة كان الأمر محرجًا، فلم يكن هناك تقريبًا سوى صور لمساكن المنكوبين ورسم كروكى لجمل بألوان الشمع السوداء القبيحة، وحفنة من الريش والحلى الرخيصة، وبعض القماش المستعمل فاقع الألوان، ولم يكن مغسولا حتى .

ما الملهم فى أشياء كهذه؟

وكان من الواضح أن «عابدى» لديه نفس الشعور فقد ألقى على اللوح نظرة واحدة دون أن يبدو عليه أى انبهار، ثم عاد إلى تصفح رسوم «ستيفان» ولم يقل أى شىء.

لو أننى ذهبت إلى مكان غريب لم أزره من قبل –كما حدث لخديجة – لما توقفت لحظة عن طرح الأسئلة. مثلا لم أكن لأرى تلك الثياب عديمة اللون دون أن أسأل ما هى، فإذا لم يدرك المرء أنها نماذج صنعت لتجربة التصميم قبل قصه على القماش الغالى تجنبًا للمخاطرة لالتبس عليه الأمر. كنت أتوقع أن تقول «خديجة» مثلا: «لماذا تبدو هذه الثياب غير مكتملة؟» أو «لماذا ليس لها ألوان هكذا؟» أو شىء من هذا القبيل، لكنها لم تقل شيئًا سوى «هذه الأشياء صومالية».

وأعتقد أن «ستيفان» كان متحيرًا هو الآخر وهو يرى «عابدى» يتصفح تصميماته وقد بدا-بوضوح مؤسف- غير مكترث بها على الإطلاق، إذ لم يستفسر هو الآخر عن أى شىء.

ومال «ستيفان» نحوى وهمس فى تواطؤ قائلا: «هل يعلم هذان الاثنان ما تفكر فيه «ساندى»؟ هل يعرفان الفكرة التى ستقوم عليها المجموعة؟». وكان من عادته أن يرفع حاجبيه بطريقة تجعل وجهه كله يبدو كعلامة استفهام كبيرة.

وهززت رأسى نفيًا وقلت: «لا..ربما أنت الوحيد الذى يعرف ما تخطط له ساندى».

عندئذ انحلت عقدة علامة الاستفهام المرتسمة على وجهه وحل محلها تعبير فرح وفهم وهو يقول: «إن فكرتها الجديدة غاية فى الجمال.. جميلة وبسيطة».، ثم تناول قلمه وواصل الرسم، لكننى كنت أراه يرمق «خديجة» من طرف عينه، وكأنه يرى فيها تجسد فكرة «ساندى» الجميلة التى يتحدث عنها.

وظلت «خديجة» تنظر إلى اللوح والأشياء التافهة المعلقة عليه لفترة طويلة، وحين حانت منها التفاتة إلى الوراء ابتسمت لها «ساندى» وهى تقول: «هل تفرجتِ بما يكفى؟»

فقالت «خديجة»: «جميل.. هذه الأشياء.. رائعة».

-إذن ستعودين إلىّ تعملين معى حين أحتاجك؟

وعندئذ رفع «عابدى» عينيه من على تصاميم «ستيفان» وقال: «لم نقرر بعد. هل ستدفعين لها نقودًا؟»

ورأيت جبهة «ستيفان» الشاحبة تتجعد. كان يقطب وكأنه سمع شيئًا غاية فى الوقاحة، لكننى تذكرت ما قالته لى «خديجة» فى ستار بكس فبدا ما قاله «عابدى» منطقيا.

وقالت «ساندى»: «مممم... هل ستبدآن حديث العمل الآن؟»، ثم أردفت وقد بدت وكأنها تجاهد لتتذرع بالصبر: «أحتاج لمقابلة والدىّ «خديجة» للحديث فى تلك المسائل»، ثم نظرت إلى «عابدى» وقالت: «هل يمكنك أن تحضرهما معك فى المرة القادمة؟»

وبدا «عابدى» وكأنه فى حيص بيص إذ أخذ يتبادل النظرات مع «خديجة»، وقطبت «ساندى» وقالت: «أمامكما شهران لإقناعهما. لن يبدأ العرض قبل سبتمبر، لكن تذكرا: ينبغى أن يظل الأمر سرا .. إذا أخبرتما أحدًا فاعتبرا الأمر قد انتهى .. مفهوم؟»

فقال «عابدى» وقد بدا فى صوته شعوره بالإهانة: «بالطبع لن نخبر أحدًا.. نحن نعرف كيف نحفظ سرا».

فأومأت «ساندى» وقالت: «جيد، لأن هذا ليس مجرد سر وإنما هو سر خطير فى الواقع..». لكنها لم تتم جملتها بل توقفت فجأة وأخذت تفتش بين أشياء كانت موضوعة فوق أحد الأرفف، وحين انتهت كانت تحمل فى يدها بقجة من القماش الأسود، عرفتها على الفور.

وقالت «ساندى» لخديجة: «خذى هذه الثياب معكِ، وارتديها وأنت قادمة فى المرة القادمة.. ينبغى ألا يرى وجهك أحد مادمتِ فى هذه المنطقة. ينبغى ألا يعرف مخلوق بوجودكِ هنا».

كيف يمكن هذا؟ هل سبق أن رأيتم ما يحدث فى كواليس عروض الأزياء؟ تكون الكواليس عادة مزدحمة جدا بالفتيات اللواتى يساعدن العارضات فى ارتداء الثياب، والستايلست، ومصففى الشعر وخبراء التجميل والمصورين وغيرهم ممن قد يخطرون ببالكم أو لا يخطرون. وتكون العارضات فى المركز من كل هذا.. كل العيون عليهن.. ويلبسن ويخلعن دون حدود أو محاذير، و«ساندى» أدرى بهذا منى . إذن كيف يمكنها أن تشدد على أهمية ألا يعرف أحد هوية «خديجة» مطلقا؟

ولم يفهم «عابدى» أيضـًا فقال: «إذا كان وجهها لن يراه أحد كما تقولين فما جدوى الأمر أصلا؟»

لكن «ساندى» لم تكن لتفسر أى شىء، بل اكتفت بأن ابتسمت وأمسكت بهاتفها وقالت: «كارميل: نحتاج إلى تاكسى كى نذهب إلى باتل هِل»، ثم ابتسمت لعابدى وهى تقول: «لا تقلق.. سأدفع أجرة هذا التاكسى أيضـًا».

وما إن وصل التاكسى حتى اصطحبت الفتى والفتاة إلى الأسفل كى يستقلاه، وحين رحلا عادت جريًا وهى ممسكة قطعة ورق فى يدها. وقالت بأنفاس متقطعة من فرط الإثارة: «سيحدث ما أريد.. أنا متأكدة أن «خديجة» ستعود.. أرأيت النظرة التى بدت فى عينيها؟»

ثم ثبتت قطعة الورق على اللوح بدبوس له رأس قرمزى، ورغم أننى كنت أقف على مبعدة لم يكن من الصعب قراءة ما كتبته «ساندى» عليها بحروفها السوداء الكبيرة.

لم يكن على الورقة سوى حرف واحد هو حرف الإيه، ثم رقم هاتف محمول.

وقالت: «سيكون الأمر رائعًا يا ستيفان».

ثم اقتربت من «ستيفان» وجلست القرفصاء إلى جوار مقعده وأخذت تتحدث معه بسرعة وبصوت منخفض للغاية.

فى بداية الحديث رأيت وجه «ستيفان» يتحول إلى علامة استفهام مرة ثانية، ثم أشرق وجهه وبدت عليه أمارات الفهم فجأة وهو يمد يده فيلتقط ورقة، وبدأ الاثنان يرسمان. كان كل منهما يرسم على طرف من طرفى الورقة، وينظر من حين إلى آخر إلى ما رسمه الآخر.

وظللت واقفة مكانى أراقب ما يحدث لبرهة. كانا يبدوان وكأنهما نسيا وجودى تمامًا فغادرت المكان كى أستقل الحافلة وأعود إلى المنزل.

وبالطبع لم أجد متنفسًا لكل ما مررت به إلا لدى أبى، إذ قصصت عليه كل ما حدث بالتفصيل وأنا أسير جيئة وذهابًا فى مطبخ شقته بينما كان يعد الشاى .

وقلت: «شعرت أن أمى كانت زعيمة دينية مثلا .. تقول «أنت لم تر هذين» فينمحى «الهذين» من ذاكرة أتباعها المخلصين فى الحال، دون حتى أن يعرفوا السبب».

وقلب أبى اللحم فى المقلاة ثم ضغط عليه بالملعقة الخشبية لإخراج العصارة منه وقال: «ساندى دائمًا صارمة فيما يتعلق بأسرار عملها، والناس دائمًا يتوقعون أن يروا مفاجأة وهم ذاهبون إلى عروضها».

فالتقطت قطعة من الفلفل الأحمر وأكلتها وأنا أقول فى غضب: «لكن أسرارها ومفاجآتها لا تدور أبدًا حول شىء يستحق..انظر مثلا إلى كل تلك الأشياء الصومالية التى قامت بجمعها.. الصومال بلد كامل.. حضارة كاملة.. لكنها لم تهتم مطلقًا بهذا بل لم تلتفت إليها وتقرر أن تغزوها إلا للحصول على أفكار جديدة لتصميماتها».

فقال أبى برقة: «مممم. إن تصميم الأزياء عملها. إذا أردتِ ناشطة حقوق إنسان فابحثى لكِ عن أم أخرى».

-أنا لا أريد أمًّا أخرى .. أنا فقط أريدها ألا تكون.. متمحورة حول ذاتها إلى هذا الحد! إنها تعتقد أن العالم كله لم يُخلق إلا لتستغله.

فغرف أبى الطعام فى طبقين وضعهما على المائدة، وقال: «لا تبالغى .. إنها لا تستغل أحدًا».. فنظرت إليه غاضبة وقلت: «بل تستغل الناس.. إنها تستغلك أنت مثلا قبل كل شىء.. فحين تجهز لمجموعة أزياء جديدة تتوقع منك أن تترك كل شئونك وتتفرغ لرعايتى، وكأنك لا تعمل، وكأن.».

فقال أبى: «كفى .. توقفى .».

ووضع يده على كتفى ثم دفعنى برفق لأجلس وقال: «والآن كلى واسمعينى».

فقطبت وأنا أمسك بالشوكة.

وجلس أبى قبالتى وهو يقول: «هذا أفضل. هل تتذكرين أختى «ميج»؟ لا أعتقد هذا».

فقلت: «فى الحقيقة لا أتذكر الكثير عنها».

هذا لأنها توفيت وأنا فى الرابعة من عمرى . لم يبق منها سوى بعض الصور الفوتوغرافية القديمة ، ولم يكن أحد يتحدث عنها قط.

وقلت: «ولكنها تبدو لطيفة فى صورها».

فند عن أبى صوت غريب، وكأنه يضحك وينفخ فى نفاد صبر فى الوقت نفسه، وقال: «لم تكن «ميج» لطيفة، بل كانت أنانية جامحة تدمر ذاتها. كانت مدمنة خمر ومخدرات. وكانت بارعة فى الابتزاز العاطفى .. لم تكن مثل «ساندى» على الإطلاق.. إلا فى شىء واحد».

أيًا كان هذا الشىء الذى سيذكره أبى فلابد أنه كان شيئًا لا يزال يؤثر فيه أشد التأثير، حتى بعد مرور كل هذه السنين، إذ صمت لثانية، وتوقفت أنا أيضًا عن الأكل فظلت شوكتى معلقة فى الهواء بين الطبق وبين فمى وأنا أتساءل عما سوف يقوله.

وبعد صمت قال أخيرًا: « لقد حولت «ميج» حياتنا إلى جحيم، لكنها كانت مطربة.. وحين كانت تغنى .. حين كانت تقف على خشبة المسرح وتغنى .. كان كل السخف وكل الألم الذى تسببه لمن حولها يتلاشى، ولا يبقى سوى صوتها الشادى .. وكأنه الحقيقة فى أنقى صورها، لكن كل هذا كان له ثمنه.. ولم تكن هى الوحيدة التى دفعت ذلك الثمن».

– وهل ترى أن «ساندى»..

«ساندى» قاسية على كلينا. أنا لا أنكر هذا، لكن ما تفعله هو هويتها، ولو كانت «ساندى» ليست كما هى لما كان هناك..

لكنه لم يتم جملته، بل بسط كفيه .. وسكت.

كنت لا أزال غاضبة وأنا أقول له: «لما كان هناك ماذا؟» لما كان هناك المزيد من تصميمات السراويل؟ لن يكون هناك المزيد من الموضات؟ هل يستحق هذا أن تتحمل قسوتها؟ لا يا أبى .. وما الثمن الذى تدفعه هى؟ إنها لا تعانى كما عانت «ميج».. هى لن تذهب إلى الصومال، ولم تر الأطفال الذين فقدوا سيقانهم والمدن التى تحولت إلى حطام. هذا ما ينبغى عليها فعله إذا ما أرادت أن تكون رائدة.. إذا ما أرادت حقا أن تستكشف عالم الحقيقة وجهًا لوجه كما تقول».

ثم أزحت طبقى من أمامى وقمت.

وأخذ أبى يراقبنى وأنا أسير نحو الباب. وحين صرت فى منتصف الطريق إليه قال: «على فكرة.. «ساندى» تحبك».

فقلت دون أن ألتفت إليه: «هل تعتقد هذا؟»

ثم استأنفت السير إلى غرفتى وأنا أدق الأرض بقدمى، وصفقت الباب خلفى بعنف.

كان اللابتوب يومض فوق مكتبى فذهبت إليه وجلست أمامه وشرعت أكتب رسالة إلى «ساندى». تركت الكلمات تتدفق من رأسى إلى الشاشة دون مراجعة أو تدقيق. قلت لها: « أنت لا تفعلين أى شىء سوى استغلال الناس ولا يهمك «خديجة» و«عابدى» فى شىء.. ولا تكترثين أصلا بما يجرى فى

الصومال وطنهما.. لستِ سوى كائن طفيلى يستغل احتياج الآخرين، وكل هذا لأجل ماذا؟؟؟ لأجل ذلك الهوس الرخيص بالموضة. أشعر بالاشمئزاز من كل هؤلاءِ الصحفيين الذين لا هم لهم سوى الكتابة عن «المخاطرات» التى تخوضينها! عن أى مخاطرات يتكلمون؟

إذا أردتِ أن تخاطرى حقا فلتذهبى إلى الصومال فهذه هى المخاطرة الحقيقية».

ثم ضغطت زر إرسال دون أن أراجع الرسالة.

على أى حال كان من المستبعد أن ترى «ساندى» الرسالة أصلا فهى مشغولة بالإعداد لمجموعتها الجديدة. الأرجح أن «كارميل» ستجدها فى صندوق الوارد فتحذفها دون أن تريها لساندى.

لم تكن مهمة إرسال الرسالة إلى «جى–رى» يسيرة، فصحيح أنه كان هناك وصلة إنترنت بالمخيم لكن استخدامها لم يكن مجانيا بالطبع. ولم يكن قد تبقى مع الأسرة أى نقود، ولا أى شىء يمكنهم بيعه.

وفعلت أم «محمود» كل ما بوسعها فقد كانت تدخر جزءًا من حصة طعامها اليومية وتصنع منها فطائر تبيعها لمن تبقى لديه أى قدر من النقود يكفى للشراء، وبالطبع لم يكن الزبائن كثيرين، ولم يكونوا قادرين على شراء الكثير، ومع ذلك فقد استطاعت الأم ادخار بعض النقود. وكانت مدخراتها تزداد ببطء مع مرور الأسابيع.

حتى حدثت المشاجرة.

كانت مشاجرة سخيفة، إذ بدأت زمرة من الشباب المحبطين فى التنفيس عن غضبهم، وكان ذلك كافيًا لتدمير مأوى «محمود» وأسرته.

سقطت الأعمدة الخشبية الهزيلة التى قامت عليها خيمتهم، وديس كيس الدقيق تحت الأقدام الثقيلة فتبعثر الدقيق واختلط بالرمال.

وصرخت «زينب» و«ساجال» وأجهشتا بالبكاء، أما «محمود» وأمه فقد اندفعا كسهمين إلى قلب المعركة، محاولين إنقاذ الطعام والماء.. الماء العزيز.

وتلقى «محمود» ركلة عشوائية فى وجهه فظهرت فيه كدمة، أما أمه فقد تلقت ضربة طرحتها أرضًا فسقطت على صخرة وانكسر إصبعها.

وانتهت المعركة بعد دقائق، لكن معظم الدقيق كان قد ضاع، وثُقِبَت واحدة من جرار الماء وبدأ الماء يتسرب منها. وهكذا صار عليهم أن ينفقوا كل ما ادخروه كى يظلوا أحياء حتى تأتى شاحنة توزيع الطعام.

كان وقتًا عصيبًا. وكان «محمود» يخشى أن تفقد أمه الأمل وتتوقف عن المقاومة، إذ أدرك–للمرة الأولى– كم نال منها التعب، وكم نحل عودها وجفت، وتعجب من قدرتها على الاستمرار.

لكنها بالفعل لم تستسلم، فقد غابت بمجرد انتهاء المعركة باحثة عمن يبيعها شيئًا من طعامه. وما إن عادت حتى أخذت تعيد إقامة الخيمة ونادت «محمود» وشقيقتيه وطلبت منهم مساعدتها.

وقالت:«سوف نخسر كل شيء إذا استسلمنا للشكوى والنواح. الوقت وقت عمل. لا تقلقوا.. ستتحسن الأحوال يومًا ما».

ولم يكن من الممكن استبدال أعمدة الخيمة التى انقصمت وتحطمت، لكن الأم استطاعت استخدامها كما هى، ونجحت–هى ومحمود– فى إقامة هيكل المنزل، ثم أرسلت الفتاتين للبحث عن بعض قطع المشمع لترقع بها الحصر التى هى جدران الخيمة.

ثم جلس الجميع يرقعون الحصر بالمشمع، بينما أخذت الأم تقص عليهم حواديتهم المفضلة وهم يعملون، وتؤكد لهم أن الأحوال ستتحسن.

وحاول «محمود» جاهدًا أن يصدقها فهو يتذكر، فهو يسمع منذ زمن بعيد عن أحوال أفضل، لكنه لا يسمع عنها إلا فى سياق الترحم على الماضى الذى ذهب، أو أمنيات للمستقبل المجهول. أما الحاضر فلا تحسن للأحوال فيه. دائمًا تكون الحياة الأفضل شيئًا لا يمكن تحققه فى الوقت الحالى.

لم يكن الأمل يراوده إلا حين يفكر فى «جى–رى» .كان واثقًا من أنها لن تنساهم وأنها ستعود يومًا ما وتنقذهم من المخيم. سيكون معها مال يكفى لشراء إبل جديدة، وأسلحة، كى يكونوا فى أمان.

بالطبع سوف تنقذهم.

وإلا لماذا رحلت؟

عابدى

كانت الرحلة فى التاكسى شبيهة بالانتقال من عالم إلى عالم آخر. حين غادرنا شقة «ساندى» كنت أفكر كيف سنفاتح أمى فى الموضوع.. هى بالتأكيد ستفهم مدى روعة الفرصة التى سنحت لخديجة.. أليس كذلك؟ ولن يقتصر الأمر على «خديجة» فقط فعلاقتنا بساندى قد تغير حياة الأسرة كلها. كل ما علىّ فعله إذن هو أن أجعل أمى تفهم هذا كله.

لكننى كنت أحلم.. هيهات.

حين وصلنا إلى «باتل هِل» كنت لا أزال أحاول جاهدًا أن أضع الخطة المناسبة، وقلت فى نفسى إنه ربما كان من الأفضل أن نحتفظ بسرنا لفترة أطول، كى نتحاشى تدمير كل شىء.

وقلت لسائق التاكسى: «أنزلنا هنا وسوف نتمشى ما تبقى من المسافة».

فهز سائق التاكسى كتفيه وهو ينظر إلى البقعة التى أشرت إليها، والتى تتوقف عندها حافلة المدرسة، فلو سرنا من هنا فسيتوهم من يرانا أننا عائدان من المدرسة كالمعتاد.

أو هذا ما كنت أعتقده، فالحقيقة أن أوان التذاكى كان قد فات، إذ لاحظت إحدى المعلمات غيابنا فسألت «فوزية» عنا، معتقدة أننا مريضان بأحد الأمراض المنتشرة، وبالطبع لم تكن «فوزية» من الفطنة بحيث تبقى فمها مغلقًا حين عادت إلى المنزل.

حين عدنا كان عمى «عثمان» وعمتى «صفية» يجلسان مع أمى فى المطبخ، ولم يكن هناك أثر لشقيقاتى. لم يكن هناك سوى الثلاثة الكبار، ينتظرون عودتنا. وما إن رأيتهم ورأيتِ الطريقة التى ينظرون بها إلينا حتى عرفت أن المتاعب تنتظرنا.

كان عمى «عثمان» من بدأ الحديث حين قال: «أين كنتما؟»، فقالت «خديجة» بسرعة: «كنا فى المدرسة».

يا لها من إجابة غبية! لماذا تظن أنهم مجتمعون هكذا إذا كانوا لا يعرفون أننا لم نكن فى المدرسة؟

وفعلت ما بوسعى لإصلاح ما يمكن إصلاحه فقلت: «خرجت «خديجة» من المدرسة إلى المكتبة لأنها كانت فى حاجة إلى بعض المعلومات لإتمام مشروع كلفها أحد المعلمين به، لكننى لاحظت أنها لم توقع بالانصراف فخرجت خلفها و.»».

كانت القصة مكتملة فى رأسى، ومنظمة ومقنعة..تقريبًا ، إلا أن عمى «عثمان» نظر فى عينى مباشرة فتبخرت الكلمات، وقال: «اجلس فى هذا المقعد، وأنتِ اجلسى هنا يا خديجة».

وجلسنا متجاورين، قبالته، لا تفصل بيننا سوى المنضدة.

ليتنا كنا من الذكاء بحيث أعددنا قصة جيدة للتغطية على غيابنا؛ لكن لم يكن يمكننا قول الحقيقة أيضًا، فقد أكدت «ساندى» أن الأمر ينبغى أن يظل سرا. ألم تقل: « إذا ما أذعتما السر فاعتبرا الموضوع منتهيا»؟

لم يكن من الصعب أن نقطع هذا الوعد فقد ظننا أن الأمر سهل. «نعم ..لن نخبر أحدًا بالطبع»، لكننى لم أضع فى اعتبارى تلك المواجهة مع عينى عمى «عثمان» ، ورؤية أمى وهى تهز رأسها أسفًا هكذا، وكأننا سرقنا بنكًا.

ومالت عمتى «صفية» فوق المنضدة وقالت لى برقة: «إلى أين أخذت «خديجة»؟ ينبغى أن تكون حريصًا يا «عابدى» فهى ليست أختك حقا».

لم يخطر ببالى أبدًا ما كانت أمى تلمح إليه حتى إننى وجدته سخيفًا جدا حين تفوهت به، فضحكت بصوتٍ عالٍ وقلت: «ليس الأمر كما تظنون».

وبدت «خديجة» غاضبة جدا وهى تقول: «أنا و «عابدى»؟ كيف يمكنكم أن تفكروا فى شىء كهذا أصلا؟»

فقاطعتها أمى بصرامة، كعادتها حين تكون قلقة، وقالت : «لسنا نحن من يعتقد هذا، بل ما فهمتماه هو بالضبط ما سيعتقده الناس. والدكِ ائتمننا عليكِ».

فضربت «خديجة» بيدها على المنضدة وقالت: «وأنتم بالفعل تحسنون الاعتناء بى، وأنا لم أرتكب أى خطأ».

فقال عمى «عثمان» ثانية : «إذن أين كنتما؟»

هل سبق أن حاصرتكم عصابة فى شارع مسدود؟ كان هذا هو ما أشعر به فى تلك اللحظة. لم يكن هناك مهرب. لم يكن عمى «عثمان» ينوى الاستسلام. لم يكن ليكف عن محاصرتنا بالأسئلة حتى يعرف الحقيقة، ولم يكن ممكنًا أن نخبره بالحقيقة، ونظرت إلى «خديجة» وقد أسقط فى يدى .

وفعلت «خديجة» الشىء الذى لم أكن أفكر فيه.

قالت الحقيقة.

قالت: «لقد عُرضَت علىّ وظيفة جديدة.. شريفة وعائدها مجزٍ، وأعتقد أننى لو قبلتها فسأتمكن من إحضار أسرتى كلها إلى هنا».

ورفع عمى «عثمان» حاجبيه وقال: «جميعهم؟ لم أكن أعرف أن جنى المال الحلال سهل إلى هذه الدرجة!»

وقالت أمى: «فيم ورطتما نفسيكما؟»

فشدت «خديجة» قامتها وقالت: «إنه سر».

وكأنها ألقت قنبلة بالطبع، فما إن سمعتها عمتى «صفية» حتى شهقت من فرط الصدمة، وجن جنون أمى فصاحت: «ما هذه الحماقة؟ وكيف يمكن لصاحب عمل شريف أن يأمركِ بإخفاء شىء عن أمك؟»

وقلت فى نفسى: «إياك أن تفقد أعصابك»، وأجبرت نفسى على التمسك بالهدوء إلى أبعد الحدود، وقلت: «أعرف أن الأمر يبدو مقلقًا يا أمى، ولكننا قطعنا وعدًا لصاحب العمل، وهناك سبب قوى لذلك. أرجوكِ أن تثقى بنا وحسب. أرجوكِ».

لكن عمى «عثمان» نظر إلىّ متفكرًا ثم قال: «الوعد ليس لَعبة، بل ينبغى احترامه. ونحن نعلم أنك إنسان عاقل يا «عابدى»، لذا ربما كان من الواجب أن نثق بك».

ثم عض شفته واستغرق فى التفكير لبرهة قبل أن يومئ إلى «خديجة» قائلًا: «لم لا تذهبين فتحضرى شقيقاتك. إنهن فى منزلنا».

هل قال إننا يمكننا الاحتفاظ بسرنا؟ هذا مذهل. وبدت «خديجة» مندهشة أيضًا، لكنها نهضت وذهبت إلى الباب.

وقمت لأذهب معها، إلا ان عمى «عثمان» استوقفنى بإشارة من رأسه لا تكاد تلحظ، وما إن غادرت «خديجة» الشقة حتى حدجنى بنظرة حادة، ثم مد يده نحوى وهو يقول: «أعطنى هاتفك»..

عندئذ اتسعت عيناى دهشة وقلت: «ماذا؟»

ولم يزد عمى «عثمان» حرفًا على ما قال، بل لزم مكانه وظلت يده ممدودة، ونظرة جادة صبورة تطل من عينيه، وأردت أن أرفض، لكننى كنت

أعلم أنه كان يحاول أن يفعل ما ينبغى عليه أن يفعله، فمنذ أن اختفى أبى ساعدنا عمى «عثمان» كثيرًا دون أن يطلب أى مقابل.

وأخرجت هاتفى ووضعته فى يده وأنا أقول بصوت واهن: «علىّ أن أحافظ على وعدى».

فقال: «وأنا لم أطلب منك أن تحنث بوعدك، بل أنا أحاول أن أجد طريقة أخرى لحمايتك، ولست وحدك يا «عابدى» فأى شىء تفعله سيؤثر علينا جميعًا».

وكنت أدرك جيدًا ما يقول، فمتى فعل صومالى شيئًا مشينًا «وصم» الصوماليين جميعًا بعاره. الصوماليون قوم ذوو كبرياء ولا ينبغى أن يفعلوا ما يشين. كما إنهم إخوة، يقفون إلى جوار بعضهم البعض، وما أكثر الإخوة هنا.

ولم يكن العمل عند «ساندى» مشينًا فى حد ذاته، لكنه كان بالتأكيد سيضيف وصمة جديدة إلى القائمة.. سيقولون: «الصوماليون يجيدون التمشى وعرض الأزياء». وهل هذا مدعاة للفخر؟ بالطبع لم يكن هذا بالشىء الذى يمكن أن يجعل عمى «عثمان» يمتلئ فخرًا وسعادة.

وضعت هاتفى فى يده فأطبق أصابعه عليه، وقال: «أنت فتى صالح. فلتحرص على أن تكون صالحًا دائمًا وأبدًا، وسأفعل ما بوسعى لمساعدة

عائلة خديجة».

لو قال لى ذلك منذ أيام لصدقته، فمنذ أيام كنت أظنه رجلا مهما ذا نفوذ، يمكنه تحقيق عظائم الأمور. كان هذا حتى دخلت إلى عالم «ساندى دكستر» فعرفت أننى قضيت حياتى داخل صندوق ضيق. النفوذ الحقيقى، والمال الحقيقى، خارج عالمى، وأنا أريد أن أكون هناك، حيث المال الحقيقى والنفوذ الحقيقى .

لذا ابتسمت لعمى «عثمان» وهو يضع الهاتف فى جيبه وحاولت أن أبدو وكأننى استسلمت، لكن عقلى ظل طوال الوقت يعمل محاولا إيجاد حل لتلك المشكلة الجديدة، إذ كيف يمكن أن تصل إلىّ «ساندى» الآن وقد أخذ منى هاتفى؟

خديجة

كانت أمى وعمى «عثمان» غاضبيَن لكنهما لم يفقدا أعصابهما، فلم يصيحا فى وجهينا ولم يضربنا أحد ولا حبسنا فى المنزل، بل اكتفيا بأخذ هاتف «عابدى» المحمول.

وقام الكبار بإعادة تنظيم حياتى .

تم كل شىء بهدوء، ففى اليوم التالى جاءت عمتى «صفية» إلى المنزل ومعها سروال كانت تريد من أمى أن تصلحه لها. وكنت أنا حينئذ واقفة أمام الحوض أغتسل. أخذت أمى السروال وأخذت تمعن النظر فى أجزائه، وجلست عمتى «صفية» على مقعد بجوار المنضدة، بهدوء وطمأنينة، شأنها دائمًا.

وبعد نحو دقيقة من الصمت وجدتها تقول لى: «أنتِ فتاة صالحة خلوقة وإننى لمسرورة من اجتهادكِ فى عملك بمتجرى فإذا ما كنتِ تريدين المال لإرساله إلى أسرتكِ فسوف أدفع لكِ المزيد، فى مقابل المزيد من العمل».

– ولكن..

لم يكن قد مر سوى أسبوعين على تأكيدها أنها لا تحتاجنى إلا مرتين فى الأسبوع.

كانت تحدق فى وجهى، وهى تقول: «إذا عملتِ فى متجرى يوميا فسأدفع لكِ ثلاثين جنيهًا فى الأسبوع!» وأشرق وجهها وكأنها تقدم لى جرة من الذهب.

وكدت أضحك بصوت عالٍ وأقول: «ثلاثون جنيهًا فى الأسبوع؟ ألا تعلمين كم سيكون بمقدورى أن أكسب فى القريب العاجل؟»، لكننى أدركت ما تحاول فعله. إنها وأمى تريدان شغل وقتى إلى أقصى حد ممكن. لقد قررتا أن تبعدانى عن المتاعب كما تُحبَس الناقة خلف سياج من الشوك، والثلاثون جنيهًا هى الطعم المغرى الذى يُفترَض أن يجعلنى أوافق.

وكدت أن أعلن رفضى لكننى أدركت فى اللحظة المناسبة أنه سيكون من الغباء أن أرفض، فإذا أردت أن أحتفظ بشىء من حريتى ينبغى أن أجعلهما تثقان فىّ، لذا فحين ابتسمت لى عمتى «صفية» ابتسمت بدورى لها ابتسامة اجتهدت لجعلها توحى بلهفتى وحماستى وأنا أقول: «موافقة.. سأعمل لديكِ يوميا.. شكرًا لكِ يا عمتى ألف شكر».

وما إن قلت هذا حتى هرولت أمى مسرعة إلى المطبخ ونظرت إلىّ وإلى عمتى «صفية» التى أومأت لها بخفة برأسها، وكأنها تريدنى ألا ألاحظ. إذن فقد صدق ظنى. إنها خطة قامتا برسمها معًا. وقلت فى نفسى إن «عابدى» لن يسر بمعرفة ما اتفقنا عليه؛ إذ سيكون عليه المجىء لاصطحابى من المتجر كل ليلة.

وكنت كلما ذهبت إلى المتجر أحس بأن عمتى «صفية» تراقبنى وكأنها تبحث عن أى شىء قد يدلها على طبيعة ذلك العمل «الشريف» الذى كان من المقرر أن أقوم به بدلا من عملى لديها، لكننى لم أبح لها بأى شىء، بل كنت أفعل ما تطلبه منى وحسب، وقد كانت تطلب الكثير. وحين كان «عابدى» يأتى لاصطحابى كان يُضطر دائمًا للانتظار بجوار باب المتجر ريثما أنتهى من تنظيف الواجهة الزجاجية أو ترتيب بعض البضائع على الأرفف.

وقد ظلت عمتى «صفية» لمدة ثلاثة أسابيع، مساء كل سبت، تدفع لى المبلغ الذى وعدتنى به. كانت تعد عشرين عملة ورقية وعشر عملات معدنية تضعها أمامى بعناية ثم تغلق حقيبتها وتقول: «أنتِ فتاة صالحة ويؤسفنى أننى لا أستطيع أن أدفع لكِ المزيد».

وفى الأسبوع الرابع حدثت مفاجأة، إذ لم تغلق عمتى «صفية» حقيبتها كالمعتاد بل نظرت لى وابتسمت وقالت: «لقد حكيتُ لعمك «سليمان» عن اجتهادكِ ونشاطكِ فقال إنك تستحقين مكافأة، لذا فهناك شىء إضافى هذا الأسبوع».

وقلت فى نفسى ترى ماذا ستعطينى؟ هل ستعطينى علبة فول مثلا؟

لكننى رأيتها تخرج قطعة من الورق المطوى من حقيبتها وتقول: «إذا ذهبتِ إلى مقهى الإنترنت أثناء وجود «سليمان» هناك فسيسمح لكِ باستخدام أحد أجهزة الكمبيوتر مجانًا لمدة ساعة. وهو يقول إنه من الأفضل أن يكون ذلك يوم الاثنين لأن المقهى يكون هادئًا عادة يوم الاثنين».

وتناولتُ منها الورقة بعناية وحرص. صحيح أن المكافأة لم تكن نقودًا لكننى كنت سعيدة بتلك الفرصة .. ساعة كاملة، دون أن يكون هناك من يقف خلفى ويدس أنفه فى شئونى كما يحدث فى المدرسة. أنا لا أجرؤ على زيارة موقع «ساندى» من كمبيوتر المدرسة فالجميع يظلون يتساءلون عن السبب فى زيارتى إياه ويتهموننى بأننى من مهاويس الموضة. كل ما يمكننى فعله فى قاعة الكمبيوتر بالمدرسة هو إرسال الرسائل وحسب، وبمجرد انتهاء الفصل الدراسى وبداية الإجازة سأحرم من هذا أيضـًا.

كان «عابدى» ينتظر منذ فترة خارج المتجر. ووضعت المال فى جيبى، ثم وضعت الورقة المطوية فى الجيب الآخر قبل أن أخرج إليه.

وغمغم بصوت خفيض ما إن رآنى فقال: «هل دفعت لكِ أجرك؟»

فأومأت وأنا أربت على جيبى، لكننى لم أخبره بموضوع المكافأة خشية أن تكون لديه أفكار تختلف عن أفكارى لاستغلال الستين دقيقة العزيزة التى رُزقتُ.. تلك الدقائق ملكى أنا.. وحدى .. أنا من كسبتها بعرقِ جبينى.. وكل ما علىّ التوصل إلى طريقة للذهاب إلى مقهى الإنترنت بمفردى، وبدون أن أضطر إلى تقديم شروح وحجج ومبررات.

اعتقدت أن الأمر سيكون صعبًا لكن حين ذهبت إلى المتجر لأداء عملى يوم الاثنين وجدت أن عمتى «صفية» قد مسحت بنفسها الأرضية التى كانت لا تزال رطبة تلمع بينما جثت عمتى «صفية» على ركبتيها فوق قطعة من المشمع وأخذت تملأ الرفوف بالبضائع.

وقلت: «دعينى أقوم بهذا يا عمتى من فضلكِ فهذا عملى».

فنظرت إلىّ وابتسمت ثم قالت: «لقد أديت بعض المهام بدلا منكِ حتى يتسنى لك استغلال الفرصة والذهاب إلى مقهى الإنترنت مبكرًا. هيا اذهبى. ويمكنكِ أن تعودى وتكملى عملك بعد الانتهاء من تصفح الإنترنت».

ولم أكن متأكدة مما تقصده بالضبط فقلت: «ولكن.».

فقاطعتنى قائلة: « لا تقلقى .. لن ينقص هذا من أجركِ شيئًا»، ثم ابتسمت ثانية وهى تشير لى أن أذهب.

كان هذا أروع من أن يكون حقيقيا.وأردت أن أنفرد بالكمبيوتر بأقصى سرعة فأسرعت إلى مقهى الإنترنت المجاور للمتجر.

كان «سليمان» هناك. حسب معلوماتى فهو يملك أربعة أو خمسة مقاه من مقاهى الإنترنت، يديرها جميعًا مديرون، لكنه فى تلك الليلة كان يقوم بالعمل وحده، ولم يكن هناك سوى عدد محدود من الزبائن الذين كانوا يحتسون القهوة ويقرؤون بريدهم الإلكترونى، وحين دلفت إلى المقهى كان يجلس أمام كمبيوتر وقد انهمك فى كتابة رسالة وطلب منى أن أنتظر حتى ينتهى، ثم نهض وطلب منى أن أذهب فأجلس على مقعد أمام كمبيوتر بعيد وقال: «هذا جهازك. هل تحتاجين إلى مساعدة؟»

–بالطبع لا!

هل يظن أننى غبية؟

بالطبع جلست فى الحال وفتحت بريدى الإلكترونى، وقبل أن يعود إلى مكانه كنت قد بدأت فى كتابة رسالة.

كيف حالك يا «محمود»؟ لم تكتب إلىّ منذ فترة طويلة! ماذا حدث؟ أتمنى وأصلى وأدعو الله أن تكونوا جميعًا بخير وأن تكونوا قد عثرتم على مرعى من أجل الإبل والماشية. لقد حصلتُ على وظيفة فأنا أعمل فى متجر هنا، أى إننى سأستطيع أن أرسل لكم بعض المال قريبًا. لن يكون كثيرًا ولكن..

ولكن

ظلت أصابعى معلقة فوق لوحة المفاتيح، ولكن «محمود» بعيد جدا، فى الصومال، حيث لم يسمع مخلوق باسم «ساندى دكستر» ، وعلى أى حال أنا لن أخبره باسمها.. لن أخبر أحدًا باسمها ولا حتى «محمود» نفسه. كل ما أردته هو أن أشعره بأن هناك أملاً، وأنه ربما صار بالإمكان قريبًا أن أبعده عن الجفاف والمجاعات والحروب.

وبدأ زبائن المقهى يتجاذبون أطراف الحديث، وحين نظرت حولى رأيت «سليمان» وقد وقف بعيدًا وانكب على شاشة أحد الأجهزة.. نفس الجهاز الذى كان يكتب عليه. لم يكن أحد قريبًا منى بما يكفى ليرى ما أكتب، وحين شعرت بأننى فى أمان تام كتبت:

ولكن عُرضَت علىّ وظيفة أخرى .. أفضل بكثير من وظيفتى هذه. هل تعرف «إيمان» عارضة الأزياء الصومالية الشهيرة؟ تعرفها؟ حسنًا. لقد عُرضت علىّ وظيفة كوظيفتها! عرضتها علىّ مصممة أزياء مشهورة جدا. أعرف أنك ستضحك وأنت تقرأ هذه الكلمات وتتخيل أختك الزرافة مكان «إيمان»، لكننى أقول لك الحقيقة. لا يمكننى أن أخبرك بالكثير من التفاصيل

لأن الأمر سر، لكننى أعتقد أننى سأعمل لديها عما قريب، لأنها تريدنى فعلا.. أعنى تلك المصممة الشهيرة، وهى من النوع الذى يحصل دائمًا على ما يريده. من الأفضل ألا تبوح بما قلت لك لأحد. أردت فقط أن تعرف أنه - بإذن الله - لن يمر وقت طويل قبل أن أتمكن من مساعدتكم مساعدة حقيقية، لذا فاستمر فى إلقاء نكاتك ودعاباتك ليظل الجميع مسرورين يا أخى الصغير.. سوف تتحسن الأحوال.

إمضاء: شقيقتك «جى-رى»

من لندن

وقضى الأمر، فقبل حتى أن أجد فرصة للتفكير وجدتنى أضغط زر «إرسال».

ورفع «سليمان» رأسه ونظر إلىّ فجأة، وكأنه رآنى وعرف ما فعلت، إلا أن هذا مستحيل.

لكنه على أى حال ذكرنى ذلك بأهمية توخى الحذر، ففتحت صفحة إنترنت صومالية جديدة وأبقيتها مطوية بحيث أقوم بفتحها إذا ما باغتنى أحد فجأة، ثم بحثت عن موقع «ساندى» وضغطت على الرابط المسمى «مجموعات الأزياء».

كنت أريد معرفة المزيد عن الثياب التى تصممها «ساندى». لا أقصد ثمنها فهذا أعرفه بالفعل، وإنما نوعية الثياب التى تقوم بتصميمها عادة وقد استغرقنى العثور على بغيتى بعض الوقت، لكننى وصلت أخيرًا ووجدت كل ما أردت، إذ كانت هناك صور لكل مجموعة قامت بتصميمها.

كانت الثياب التى رأيتها غريبة .. مذهلة.. جميلة .. وحشية. مجنونة.. جامحة.. تختلف تمامًا عن الثياب التى نرى النساء يرتدينها فى الشارع كل يوم، والفتيات اللواتى كن يرتدين تلك الثياب فى الصور كن مختلفات أيضـًا.

كانت وجوههن ضيقة بارزة العظام وقد ارتسم عليها تعبير متعالٍ لا ينتمى لهذا العالم. بيضاوات وسوداوات.. شفاههن مصبوغة بالأصفر والقرمزى والأزرق وشعورهن معقوصة على هيئة أشكال عجيبة معقدة.

وحاولت تخيل نفسى أسير مثلهن حاسرة الرأس كاشفة عن ساقىّ الطويلتين.. وكرهت ذلك. لكن «ساندى» قالت إن أحدًا لن يرانى فماذا كانت تقصد؟ لم أفهم أى شىء.

لكن ينبغى أن يتم هذا بطريقة أو بأخرى، فالوقت يمر.. بل يتسرب كما يختفى الماء فى شقوق الأرض العطشى .

وكنت لا أزال أحملق وأتعجب حين وقف «سليمان» فجأة ورأيته يتأهب للسير، وقفز قلبى، وبسرعة صقر ينقض على فريسته أغلقت صفحة موقع «ساندى» وفتحت موقع الأخبار الصومالى المطوى. وكان خيرًا أننى فعلت ذلك فإن هى إلا لحظات حتى كان «سليمان» يقف خلفى تمامًا. كان ظل وجهه يغطى شاشة الكمبيوتر، وقد برز أنفه الكبير وكأنه يشير إلى الشاشة.

وقال وهو ينظر إلى صور سفن القراصنة فى خليج عدن: «لقد أوشك وقتكِ على الانتهاء».

– هل مرت ساعة؟

لم أستوعب هذا، لكن حين نظرت إلى الساعة عرفت أنه على حق.

فأومأ برأسه تجاه شاشة الكمبيوتر الحافلة بالعناوين الإخبارية وقال: « إن قضاء ساعة كاملة فى قراءة تلك الأخبار السيئة يفوق احتمال البشر».

فقلت وأنا أغلق جهاز الكمبيوتر وأتزحزح بمقعدى إلى الوراء كى أقوم: «إنها بلادنا».

لم يكن فى كلامى أى كذب مباشر، لكنه كان كافيًا لجعله يصدق أن هذا ما جئت إلى المقهى لأجله، وأردفتُ: «ينبغى أن نكون على اطلاع بما يحدث.. أتمنى فقط لو أن هناك ما يمكننى فعله سوى قراءة الأخبار وحسب».

فقال «سليمان» بجدية شديدة، أقرب إلى الخشونة: «سيأتى ذلك اليوم».

وبدا وكأنه يقطع وعدًا، ثم نظر إلىّ وكأنه يتوقع منى ردًا لكننى لم أجد ردا مناسبًا . ماذا عساى أن أقول؟ لم يكن أى منا متأكدًا من أى شىء فى الواقع لذا نهضت دون أن أجيب.وتراجع هو كى يسمح لى بالمرور.

فى اليوم التالى قالت عمتى «صفية» شيئًا غريبًا.

كنت منحنية أمام رف منخفض كنت أملؤ بأكياس الأرز فجاءت عمتى «صفية» ومالت علىّ لتعدل وضع كيس من الأكياس ثم قالت: «ماذا تفعلين إن أنا أعطيتكِ خمسمائة جنيه؟»

والتفتُ بسرعة لأنظر إلى وجهها فهى تمزح بالتأكيد.. لكن لا.. لم تكن تمزح.. بل كانت تنظر إلىّ وكأنها تنتظر إجابة.

–خمسمائة جنيه؟

ولم أهتدِ إلى إجابة، فالسؤال محير وغريب.

فهزت عمتى «صفية» كتفيها وقالت: «أو ألف جنيه».

كانت تبدو لا مبالية وكأنه لا فرق بين خمسمائة جنيه وألف جنيه. وقالت: «ماذا ستشترين؟»

– لن أشترى شيئًا بل سأرسل النقد إلى أمى، من أجل أخى «محمود» وشقيقاتى.

كانت تلك المرة الأولى التى أنطق فيها باسم «محمود» منذ أتيت إلى إنجلترا، وما إن تفوهت به حتى اعترتنى رغبة فى البكاء فالتف بسرعة نحو الرف لأخفى وجهى، ودفعتُ كيسًا من أكياس الأرز فانقطع وأخذت الحبات البيضاء تتساقط وترتطم بالأرض.

وقلت بسرعة: «آسفة.. سوف أكنسها حالا».

وحاولت النهوض إلا أن عمتى «صفية» كانت قد سبقتنى إلى المقشة وشرعت تنظف الأرضية بنفسها فجلستُ القرفصاء ثانية وأخذت أزيح حبات الأرز المتناثرة عن الرف بكفى وقد أحنيت رأسى.

وتوقفت المقشة فجأة، وقالت عمتى: «ما الذى تريدينه فعلا؟»

فقلت فى نفسى: «أريد العودة إلى الوطن.. إلى الصومال».

لكن ماذا إذا ما تفوه المرء بشىء يستحيل أن يتراجع عنه؟ وما جدوى الحنين للمستحيل؟ لذا فقد انتهيت من ترتيب أكياس الأرز ثم استويتُ واقفة وقلت: «أريد أن أنال قسطًا محترمًا من التعليم حتى أستطيع مساعدة أسرتى».

عندئذ سمعت عمتى «صفية» تأخذ نفسًا عميقًا طويلا ثم تقول: «بالتأكيد .. هذا ما توقعته. أنت فتاة على خلق يا «خديجة».. وسوف نبذل قصارى جهدنا فى العناية بكِ».

ثم ظلت ساكنة للحظات قبل أن تعاود الكنس.

كان الظلام قد حل حين أتى «عابدى» لاصطحابى ، وكان المطر يهطل بغزارة حتى إن فتحات الصرف فى الشوارع كانت تفيض بالمياه.

فيريا

قضيت الشهرين التاليين مع «ساندى» أو–بمعنى أصح– عدت إلى شقتها وعشت فيها لمدة شهرين. وكانت تعود للنوم فى الشقة ليلا معظم الأحيان. وكانت أحيانا تتناول وجبة إذا ما كان بالثلاجة طعام، لكنها كانت تنفق أغلب وقتها فى تصميم الأزياء والاجتماعات، لذا لم أكن أراها كثيرًا.

أنا لا أتذمر.. لقد اعتدت على هذا. إن «ساندى» تعمل–حتى قبل أن أولد– بجد يفوق جد واجتهاد أى إنسان بعشرات المرات، ولهذا اخترت الإقامة معها حين كبرت، فلو اخترت الإقامة مع أبى لما تسنى لى رؤيتها لأسابيع.

وهكذا فإن إقامتى مع «ساندى» كانت اختيارى، لكن هذا لا يمنع أن أشعر بالوحدة أحيانًا. بالتأكيد أنا لا أفتقد هؤلاء الفتيات المسكينات اللواتى كن يعتنين بى فى طفولتى، لكننى أنفق وقتًا طويلا فى التحدث مع صديقتى «روبى» على الهاتف، وأحيانًا يدعونى أبى إلى الغداء عنده مرتين أو ثلاث مرات فى الأسبوع.

وكنت عند أبى حين أرسلت لساندى آخر رسالة بريد إلكترونى.

كنت قد نسيت أمر هذه الرسالة، حتى إنه حين رأيت «ساندى» تقتحم الشقة ملوحة بنسخة ورقية منها تفاجأت حتى إننى كدت أسقط من فوق مقعدى.

كانت «ساندى» متحمسة جدا حتى إنها كادت تصيح وهى تقول: «إنك عبقرية أيتها الملعونة الصغيرة «فيريا».. كاد عقلى ينفجر من فرط التفكير فى الطريقة المناسبة لتقديم مجموعتى الجديدة، ثم وجدت رسالتك هذه فى صندوق الوارد. إنها الفكرة المثالية!»

وبسطت الورقة أمام عينى فتذكرت هذيانى الغريب الغاضب «لا تهتمين بأحد.. كائن طفيلى .. مخاطرة حقيقية». لكننى لم أفهم ما كانت تتحدث عنه.

أما أبى فلم يحاول حتى أن يفهم، بل أمسكها من مرفقها وقادها إلى مقعد وقال: «أنتِ تحتاجين إلى تناول شيء من الطعام فشكلك يوحى بأنكِ لم تأكلى منذ أيام أو حتى أسابيع». ثم بدأ يملأ الملعقة تلو الأخرى ويطعمها بسرعة كأنما ليعوض تلك الأسابيع التى عاشتها على العصائر والمعلبات.

وأخذت «ساندى» تبتلع الطعام وقد عيل صبرها وكانت تلوح بيديها وتتحدث وفمها مملوء بالطعام، فلوحت بالرسالة اللعينة ثانية وقالت: «بالطبع لم أشعر بالارتياح وأنا أقرؤها، لكننى أعرف ما تعنين يا «فيريا».. أنتِ تعنين أنه من المهم أن يكون للمرء مصداقية، وأن يواجه الواقع، وأن يذهب إلى قلب الحدث مباشرة بدلا من اللف والدوران .. وهذا بالضبط هو ما أقوم به الآن.. الكشف والحجب.. النقاب والوجوه السافرة».

وظلت تتحدث وتتحدث وبعد حوالى دقيقتين أو ثلاث كان صبرى أنا قد نفد.

وأخيرًا قالت: «سيكون تأثير الثياب أقوى بكثير إذا ما قمت بعرضها فى سياقها الحقيقى».

ما الذى تقصده؟ كنت أرى فمها ينفتح وينغلق لكننى كنت أترك الكلمات تدخل أذنى دون أن أجشم نفسى عناء فهمها.

وأخيرًا وضع أبى الملعقة جانبًا وقال: «سوف ماذا؟»

وعاد عقلى يعمل فجأة فأخذ يدقق فى الأصوات التى كانت تنطق بها «ساندى» فى جملتها الأخيرة، وعندئذ أدركت ما كانت تقول.

كانت تقول: «سنقدم عرض الأزياء فى الصومال».

وخيم صمت مخيف كأنه ثقب أسود، ثم قال أبى: «كيف يمكنكِ فعل هذا؟ لن يحضر أحد العرض».

وبدت «ساندى» راضية عن نفسها جدا بل وربما فخورة وهى تقول: «لن يحتاج أحد للحضور فسوف نقوم ببث العرض على الهواء مباشرة ضمن فعاليات أسبوع لندن للموضة».

وقال أبى: «مممممم»، وكان بإمكانى أن أشعر بأنه يجاهد كى يجعل صوته يبدو مرحًا وهو يقول: «ومن أين بالضبط ستقومين ببثه؟»، فقالت بهدوء: «أعتقد أن «إيل» ستكون مكانًا جيدًا».

لم أكن أعرف أن تلك البلدة هى نقطة تمركز القراصنة، لكن أبى كان يعرف فامتقع لونه وهو يقول: «لا تكونى غبية. لستِ مراسلة صحفية يا «ساندى».. أنت مصممة أزياء تصمم الفساتين والثياب وحسب».

ولم ترد «ساندى» بل ظلت ساكنة وقد ارتسم على وجهها تعبير هادئ لكنه عنيد. وحين حاول أبى أن يضع فى فمها ملعقة طعام أخرى من الطعام هزت رأسها بأدب، وعندئذ فعل أبى شيئًا لم أره يفعله فى حياته كلها.

صاح أبى فيها.

ألقى الملعقة فى طبق المكرونة فتناثرت صلصة الطماطم على المنضدة ثم نهض وصاح فى وجهها بصوتٍ عالٍ ووجه محتقن. كان يقول: «ما الذى جرى لعقلك؟ أنتِ ناجحة فى عملك ولديك ابنة رائعة، وأنا أيضًا ملكك.. خاتم فى إصبعك! أشجعك فى كل فكرة من أفكارك المجنونة فماذا تريدين الآن؟ تريدين الذهاب إلى الصومال لتلقى حتفك هناك؟ لمجرد الحصول على دعاية رخيصة لأزيائك؟ رائع! شكرًا يا «ساندى».. هل تسمحين لى أن أشترى لكِ تذكرة السفر؟»

وتركته «ساندى» يصرخ حتى بح صوته، ثم أمسكت برسالتى ثانيةً وقالت: «لم تفهمنى .ليست المسألة مسألة دعاية بل المسألة هى بالضبط ما شرحته «فيريا» فى رسالتها».

فأمسك بالرسالة وأخذت أراقبه وهو يقرؤها وأتمنى لو أن بمقدورى محو الكلمات من الورقة ومن عقل «ساندى»، لكن فات الأوان، وليس بوسعى الآن سوى الانتظار.. انتظار رد فعل أبى.

وانتهى أبى من قراءة الرسالة ثم نظر إلىّ وقال: «لماذا تأخذين كل شىء بهذه الجدية؟»

لم يكن صعبًا أن أقول مثلا إننى لم أقصد ما كتبت وأننى كنت متضايقة لعدم اهتمام «ساندى» بى لكننى اكتشفت فجأة أن هذا ليس صحيحًا.

فقلت: «لأن الأمر جاد فعلا وخطير وإلا لما ظللت طوال حياتى فى المرتبة الثانية».

ونظر أبى إلى يديه لثانية ثم قال: «لن تجدى الأمر سهلا يا «ساندى».. هل خططتِ لما سيحدث فى الصومال أم لم تهتمى بذلك الجزء من خطتك السخيفة؟»

وللمرة الأولى منذ بدء المناقشة ترددت «ساندى» قليلا وكأنها غير متأكدة، لكنها قالت: «أعتقد.. أنه.. ربما كان من الممكن الاستعانة ببعض معارفك هناك؟»

فقال أبى بعنف وفظاظة: «معظم معارفى هناك ماتوا، وحتى لو لم يكونوا قد ماتوا فلن أعينكِ على المخاطرة بحياتك فلا تضيعى وقتكِ معى».

وأخذت «ساندى» نفسًا عميقًا ثم قالت: «إذن فلن يكون أمامى سوى الاستعانة بمعارفى».

ثم مدت يدها فى جيبها وأخرجت ورقة صغيرة متجعدة، لكننى تمكنت من تمييز حرف الإيه مكتوبًا عليها، ورقم هاتف محمول.

واندفعتُ قائلة: «افترضى أنكِ لم تنجحى. افترضى أنها قد غيرت رأيها ولم تنجح فى إقناع والديها».

فقالت «ساندى»: «لكنها ستستطيع مساعدتى بطريقة أو بأخرى . ثقى فى ذلك».

ثم فردت الورقة ومدت يدها لتمسك بهاتف أبي، لكن أبى كان أسرع منها فأزاح يدها قبل أن تتمكن من ذلك وقال: «قلتِ لكِ إننى لن أشارك فى هذا».

فهزت «ساندى» كتفيها وقالت: «كما تشاء»، ثم أخرجت هاتفها. كانت الغرفة هادئة جدا حتى إننا كنا نسمع بوضوح صوت نقرات أصابعها على لوحة المفاتيح.

ثم سمعنا رسالة مسجلة، وانقطع بعدها الاتصال.

وقالت «ساندى» بهدوء: «اللعنة!» ، ثم انتظرت برهة قبل أن تعاود المحاولة، مرة، ثم مرة أخرى.

لكن لم يرد أحد.إما أن الهاتف قد تعطل أو أن «عابدى» قد أغلقه.

وشعرت أن أبى قد تنفس الصعداء لكن لو أنه قد ظن أن «ساندى» قد استسلمت فهو مخطئ، فقد عاودت «ساندى» الاتصال بالرقم وتركت رسالة على البريد الصوتى قالت فيها: «أنا «ساندى» فلتتصل بى فى أقرب فرصة ممكنة».

ولم تزد حرفًا على ذلك.. ثمانى كلمات وحسب، كأنها ثمانية أحجار ألقتها فى بحيرة ساكنة. ولم يخطر ببال أحد منا مدى اتساع الدوائر التى أحدثتها تلك الأحجار فى البحيرة.

حين جاء الرجال كان «محمود» يجلس خلف الخيمة مع شقيقتيه. كانوا يخطون أرقامًا فوق التراب. كانت «ساجال» تكتب بمشقة أما «زينب» فكانت سريعة فانتهت من حل المسائل الحسابية بمجرد أن انتهى «محمود» من كتابتها أمامها.

وتوقف الرجال خلف «محمود» فسقطت ظلالهم على الأرض أمامه، والتفت فاكتشف أنهما اثنان.

كانا يرتديان الجينز والتى شيرت ويحملان فوق أكتافهما أسلحة.

قبل لحظات كان هناك بعض الأطفال الذين كانوا يدورون حول «محمود» وشقيقتيه ويتفرجون على الأرقام المكتوبة على التراب، وفجأة اختفى هؤلاء الأطفال. لم يعد هناك سوى «محمود» وشقيقتيه وحدهم، مع الغريبين. وكان الجميع متوارين عن الأنظار إذ كانوا فى زاوية بين خيمتين.

وظل «محمود» حتى اللحظة الأخيرة يتحين الفرصة ليطلق ساقيه للرياح. كان ينتظر أن يغفل الرجلان فيقفز هو ويسرع فيتوارى بين الخيام. وكان يعرف جيدًا كيف سيفعل ذلك. كانت لديه خطة جيدة ودقيقة. سوف يراوغهما ويجرى فى خط متعرج فى الفراغات الضيقة الملتوية بين الخيام وسيحنى رأسه وهو يفعل ذلك بحيث لا يمكنهما أن يرياه.

لكن الرجلين لم يغفلا عنه ولو لثانية، بل ظلا يحدقان فى وجهه دون أن تفارق أيديهما الزناد، وفى أقل من دقيقة كانا يقودانه إلى سيارتهما، وهما يدفعانه فى ظهره حتى كاد أكثر من مرة أن ينكفئ فيقع على وجهه، وما إن وصل إلى السيارة حتى تبعه أحدهما، وضغط بقدمه على رأس «محمود» كى يبقيه منخفضًا، ثم قفز الثانى إلى مقعد السائق وأدار المحرك. وانطلقت السيارة تنهب الطريق نهبًا، لكنه بالطبع عجز عن رؤية الطريق فلم يعرف إلى أين يأخذانه. لم يكن يرى شيئًا سوى ضوء الشمس يتلألأ على فوهة البندقية.

عابدى

كانت الحياة بدون هاتفى المحمول كالكابوس. لم أكن متابعًا لأى شىء مما يجرى حولى، ولم أعد أعرف شيئًا عن أى شىء.

خرج أصدقائى بدونى، وقال لى «ليبان» مبررًا: «بالطبع لم أتعمد ألا أدعوك بل أرسلت لك رسالة على هاتفك.. ألا تتذكر؟»

فقلت: «لكننى أخبرتك أننى فقدت هاتفى. ألم تستطع أن تمر علىّ وتخبرنى؟ ليست المسافة بين منزلينا طويلة».

فقال «ليبان» ببساطة: «نعم، نعم، لكنك تعلم كيف تكون الأمور فى هذه الأحوال».

لم أكن أعلم بالضبط لكننى كنت بدأت أكتشف أن الناس ينسون وجودك مادام ليس معك هاتف وليس بحوزتك كمبيوتر، ولا يتعاطف أحد معك، وإنما يقطبون حين يرونك ويبدءون فى لومك، فمثلا قال لى «ليبان» وهو متضايق: «شىء متعب جدا أن أعجز عن الوصول إليك هكذا. حاول أن تعثر لنفسك على هاتف يا رجل. هذا أولى أولوياتك الآن».

ما أسهل أن يقول ذلك فوالده فى إنجلترا و لديه وظيفة محترمة تتيح لليبان الحصول على أى شىء يريد. لم يكن يفهم كيف يمكن للبعض أن يكونوا غير ميسورين مثله. كانت أمى تدخر كل ما يفيض عن حاجتنا من مال لشراء جهاز كمبيوتر؛ إذ قالت إنه سينفعنا فى تعليمنا، وكان من العبث أن أطلب منها شراء هاتف جديد لى.

لكن بالطبع لم أكن لأخبر «ليبان» بكل هذا وإنما ظللت أفكر فى الأمر كله. كنت كل مرة أزور عمى «عثمان» أفتح عينى جيدًا لعلى أرى هاتفى هنا أو هناك، وعندئذ ربما كان من الممكن اقتناصه دون أن يلاحظ عمى «عثمان».

كنت أتخيل يدى تنطبق عليه وتستشعر وزنه الذى ألفته وأنا أضعه فى جيبى .لكننى لم أجده قط.

وكنت أحيانًا أستلقى على سريرى دون نوم وآخذ فى تعذيب نفسى بالتفكير فى عدد المرات التى اتصلت بى «ساندى» فيها قبل أن تيأس وتستسلم. وكنت أتساءل عما كانت تتصوره، وهل ستستمر فى الاتصال أم تتوقف وتبحث لنفسها عن فتاة أخرى؟ وانشغل رأسى بألف احتمال واحتمال.

لكن ما حدث فعلا لم يكن بين الاحتمالات الكثيرة التى فكرت فيها على الإطلاق، فما حدث كان غريبًا.. غريبًا جدا.

ذات صباح، وفى أواخر شهر يونيو، كنا جميعًا ننتظر الحافلة فى المحطة. كانت «خديجة» والفتيات الأخريات يقفن فى صف منظم بينما

كان الأولاد منتشرين فى أرجاء المكان كالمعتاد. كان الناس يتذمرون عادةً من انتشارنا وعدم انتظامنا بهذه الطريقة لأنهم كانوا يضطرون إلى شق طريقهم بيننا، وكان ذلك صعبًا. ولم يكن الأمر مختلفًا فى ذلك الصباح، بل كان الناس أنفسهم يتذمرون التذمر نفسه كالمعتاد. والدة «ربيع» مثلا، والرجل العجوز الذى يدفع أمامه عربة التسوق.

لكن فى ذلك اليوم أضيف إلى قائمة المتذمرين شخص جديد.

فقبل أن تصل الحافلة ظهرت سيارة فى الأفق. كانت تقودها «أمينة» زوجة «سليمان» ثم أوقفتها بجوار الرصيف، وخرجت من السيارة ثم شرعت توبخنا وكأننا أطفال فقالت: «ألا تدركون مدى خطورة إشغالكم الرصيف بهذه الطريقة؟ إن الناس لا يستطيعون المرور إلا إذا نزلوا إلى وسط الشارع بسببكم. ماذا تفعل هذه المرأة مثلا؟ كيف يمكنها أن تعبر وهى تدفع عربة طفلها أمامها كما ترون؟»

ثم أشارت بعصبية إلى نقطةٍ ما وراءنا فالتفتنا جميعًا لنرى ماذا هنالك، لكننى لم أفهم ما سر كل تلك الجلبة فقد كانت المرأة المذكورة لا تزال بعيدة جدا.

ثم التفتت «أمينة» إلينا وصاحت: «وما كل هذه القمامة؟»

وانحنت لتلتقط كيس مقرمشات من على الأرض ثم قالت: «إن القمامة تملأ المكان كله. نظفوا المكان وضعوا تلك الأشياء فى سلة المهملات».

وبالفعل التقطنا بعض الأوراق من على الأرض لتهدئتها لكن ما إن ركبت السيارة وانطلقت بها حتى توقفنا، وألقى «حسن» ما كان يحمله فى يده وأخرج لسانه للسيارة التى كانت تبتعد. وقال: «إنها تعتقد أن بوسعها أن تتحكم فى الجميع لمجرد أنها زوجة سليمان عثمان».

وحاولت أنا أن أكون منصفًا فقلت: «إنها طبيبة، وربما رأت الكثير من ضحايا الحوادث وربما كان هذا يجعلها.. نوعًا ما.».

لكننى لم أتم جملتى، ففى اللحظة التى قلت فيها ذلك سمعت هاتفى يرن!

وحين لم آت بأى رد فعل لكزنى «ليبان» وقال: «ألن ترد على الهاتف؟»

فنزعت حقيبة كتبى عن ظهرى وفتحتها.

وعندئذ وجدته.

كان فى جيب من جيوب الحقيبة الجانبية، ولم يكن من عادتى أصلا أن أضعه فى ذلك الجيب. ولابد أن تعبير الذهول الذى ارتسم على وجهى قد جعلنى أبدو كالأبله فقد انفجر «حسن» ضاحكًا وهو ينظر إلىّ ثم قال: «كل هذه الضجة التى أحدثتها لضياع الهاتف بينما هو موجود فى حقيبتك!ينبغى أن تذهب إلى طبيب لفحص عينيك يا عابدى!»

لكننى لم أكن أصغى إليه فقد كنت بدأت أرد على المكالمة بالفعل، والتى اكتشفت أنها لم تكن سوى إشعار بوجود رسائل فى البريد الصوتى. وكان «حسن» قريبًا منى بما يكفى لسماع الرسالة الأولى التى كانت تقول: «أين أنت يا رجل؟ كم مرة ينبغى أن أتصل بك كى ترد علىّ؟»

عندئذ صاح «حسن»: «هذا «راجح».. إنه يتصل من الصومال».

وسيرعان ما كان الجميع يتزاحمون حولى للاستماع إلى رسالة «راجح». ولم يرق لى ذلك فأغلقت الهاتف ودسسته فى جيبى بسرعة. ومن حسن الحظ أن الحافلة وصلت فى تلك اللحظة. وحين ركبنا جميعًا كان «ليبان» قد بدأ يثرثر ونسى الجميع أمر هاتفى.

لكننى لم أنس.

كيف ظهر الهاتف فجأة فى حقيبتى؟ لا يمكن أن يكون عمى «عثمان» وراء ذلك فلو أرادنى أن أستعيده لسلمه لى يدًا بيد بعد أن يحدثنى طويلا عن ثقته بى وبأننى سأستخدمه بحكمة.

لكن إذا لم يكن هو من أعاده لى فمن الذى أعاده؟

لم أتمكن من الاستماع إلى رسائلى الصوتية بسلام حتى الفسحة فما إن خرج الجميع واصطفوا أمام ماكينة المشروبات انسللت عائدًا إلى الفصل.

كانت الرسالتان الجديدتان من «راجح» ولم يكن فيهما ما يصعب توقعه. كان «راجح» يقول: «هيا يا «عابدى» رد علىّ فإننى أريد أن أعرف أخبار الدورى».

ولم يذكر أى شىء عن الأحوال فى الصومال رغم أن هذا ما كنت أريد أن أعرفه.

لكن كانت هناك رسالة محفوظة كدت أن أغلق دون أن أسمعها ظناً منى أننى قد سمعتها قبل الآن، لكن شيئاً ما جعلنى أستمر فى الإصغاء، وفجأة اكتشفت أنها ما كنت أنتظره.

كانت رسالة بصوت واضح.. صوت سيدة أعمال ليس لديها وقت للمقدمات. كانت تقول: «أنا «ساندى».. اتصل بى فى أقرب فرصة ممكنة».

واستمعت إلى الرسالة ثلاث مرات حتى أتأكد أننى لا أتخيل، ثم أسرعت أبحث عن «خديجة». كانت تسير مع مجموعة من الفتيات الصوماليات، لكنها كانت على الطرف، كأنما كانت تحوم حولهن، لذا لم يتطلب منى استدعاؤها سوى إيماءة واحدة.

ورفعت الهاتف لأريه لها وقلت: «انظرى ماذا وجدت؟ وخمنى من ترك لى رسالة؟»

لم نكن قد تحدثنا عن «ساندى» مطلقاً منذ صودر منى الهاتف لكن «خديجة» فهمت على الفور، وظلت ساكنة لدقيقة ثم مدت يدها وقالت بهدوء: «دعنى أسمعها».

لم تبد الاندهاش أو تقول: «آه يا إلهى! معقول؟» كما تفعل الفتيات عادةً وكأنها كانت واثقة كل الثقة أن «ساندى» ستتصل بها، وأخذت الهاتف وسمعت الرسالة ثم أومأت إيماءة صغيرة تنم عن الرضا، وقالت: «ينبغى أن نتصل بها. ماذا تنتظر يا «عابدى»؟ فلتتصل بها الآن.. أليس هذا ما قالته فى الرسالة؟»

وفكرت مليا ثم قلت لها: «انتظرى قليلا.. هناك من قام بحفظ هذه الرسالة، ولست أنا من فعل هذا، وهذا يعنى أن شخصًا ما كان يستمع إلى بريدى الصوتى ويعرف بأمر ساندى».

فقالت «خديجة» ساخرة : «ماذا يعرف عن «ساندى»؟ هل «ساندى» هى الوحيدة التى تحمل هذا الاسم فى العالم كله؟ اطرد هذه المخاوف الغبية من رأسك واتصل بها!»

ولم يكن من المعقول أن نتصل بها ونحن واقفان معًا، حيث كنا نقف وحيث يمكن للجميع سماعنا لذا عدنا إلى الفصل وأغلقنا الباب وقمت بتشغيل البريد الصوتى ثانيةً كى تسمع «خديجة»، ثم اتصلت برقم «ساندى» التى ردت فى الحال قائلة : «هل هذا أنت يا عابدى؟»

وقفز قلبى بين ضلوعى وقلت: «نعم هذا أنا. كنت تريديننى أن أتصل بكِ..أليس كذلك؟»

فقالت: «بلى .. لماذا تأخرت هكذا؟»

– كانت هناك بعض المشاكل المتعلقة بهاتفى .

–حسنًا..ينبغى الآن أن نتحرك.

وكان نفاد صبرها واضحًا أشد الوضوح فى صوتها، ثم أردفت: «كما أحتاج إلى التحدث مع والديك فهل يمكن أن أقابلهما يوم الأحد بعد الظهر، فى حوالى الرابعة مثلا؟»

وتخيلت ما قد يخطر ببال أمى إذا رأت «ساندى» وقلت بحرص: «ربما».

فقالت «ساندى» بإصرار: «ينبغى أن أقابل والديك..ستحضرهما إلى ورشتى .. اتفقنا؟»

–نعم.. بالطبع.

لم يكن بوسعى فعل أى شىء لماطلتها أو إثنائها فقلت: «سنكون عندك يوم الأحد». فقالت: «حسنـًا.. لكن أريدك أن تذكر والديك بأن الأمر ينبغى أن يظل سرا، وإذا ما تحدثوا فى الأمر مع أحد فلن يكون من الممكن أن أوظف «خديجة» عندى .. مفهوم؟»

فقلت: «مفهوم» لأن تلك هى الإجابة الوحيدة التى كانت «ساندى» تقبلها.

لكننى لم أستطع أن أمنع نفسى من التساؤل عن طبيعة حياتها إذا كانت تعتقد حقـا أنه يمكن للمرء أن يكتم أمرًا كهذا؟.. أليس لها أصدقاء أو أسرة؟ أتظن حقـا أن أمى يمكنها أن تتكتم الموضوع بهذه الطريقة؟ من الطبيعى أن تستشير أمى الآخرين فى أمر كهذا قبل أن تحسم أمرها.

لكن «ساندى» لم تكن لتمنحنى الفرصة كى أفهمها هذا. لم تكن لتتقبله أصلا. وكان علىّ أن أتصرف ففعلت ما فعلتُ كى لا يضيع كل شىء.

ولم تتوقف «ساندى» كثيرًا عند تلك النقطة بل سرعان ما قالت: «أعتقد أنه من الأفضل ألا تكون المقابلة فى ورشتى بل فى مكانٍ آخر لكننى لن أفصح لك عنه الآن بل سأرسل لك العنوان فى رسالة قبل المقابلة.. اتفقنا؟»

فقلت: «اتفقنا..سنحضر فى الرابعة».

وقالت «ساندى»: «عظيم»، ثم أغلقت دون أن تقول مع السلامة.

كانت لحظات احتبست لها أنفاسنا، وتبادلنا النظرات أنا و«خديجة».. كنت واثقًا أننا نفكر فى الشىء نفسه. كنت متأكدًا أنها- مثلى تمامًا- تفكر فيم نحن فاعلان.

لكن قبل أن نشرع فى مناقشة هذا دق الجرس ثانية فأجبت

-آلو؟ من معى؟

لم يكن المتحدث «ساندى» ولم يقل «ألو» بل قال مباشرة بصوت خشن وبالصومالية ودون تردد: «هذه رسالة للفتاة التى تسمى نفسها «خديجة أحمد موسى».. أخبروها أن أخاها «محمود» بحوزتنا وأن ثمن حياته عشرة آلاف دولار».

وللحظة وجدتنى فاقدًا للنطق عاجزًا عن الكلام تمامًا. كان عقلى يتخبط، ثم عاد الصوت يقول: «هل تسمعنى؟ ثمن حياته عشرة آلاف دولار».

وكان هناك ضوضاء فى الخلفية.. ضوضاء غير محددة. لعلها صوت راديو. وتناهى إلى أذنى صوت رجال يتحدثون بالقرب من الرجل الذى كان يتحدث معى على الهاتف.

وقلت وقد كدت أختنق بكلماتى: «ولكن «خديجة» لا .. لا تملك المال فليست سوى طالبة».

وسمعت الرجل يضحك ثم سمعته يتحدث لكننى لم أتبين ما قال إذ كان قد التفت-على الأرجح- إلى الخلف ليبلغ رفاقه بما قلت، ورغم أننى لم أفهم ما قالوا فإن السخرية والاستياء كانا باديين فى أصوات الرجال.

وكانت «خديجة» تقول شيئًا هى الأخرى. كانت تسأل سؤالا لكننى لم أستطع التركيز معها ومعهم فوضعت يدى على أذنى الأخرى ثم اندفعت متحدثًا بسرعة وكنت أعلم أنهم لن يصغوا إلىّ لكن لم يكن أمامى سوى أن أحاول فقلت: «اسمعنى .. ليست «خديجة» إلا طالبة تذهب معى إلى المدرسة وتعمل فى المساء بأحد المتاجر مقابل..

ثم سكتت برهة كى أحسب المبلغ بالتقريب قبل أن أقول: «مقابل خمسين دولارا فى الأسبوع. هذا كل ما تملك فكيف يمكن أن.».

فقاطعنى الرجل بصوته الخشن وكأنه يدحض كل حججى بكلمتين: «ساندى دكستر».

لم تكن لكنته الصومالية يسيرة الفهم لكن حين تمكنت من فهمه أخيرًا شعرت أن معدتى تتقلص وأننى أكاد أتقيأ. فجأة أدركت خطورة الأمر.

كان الرجل يتحدث بصرامة واقتضاب، وكان حديثه عبارة عن تعليمات: «سوف أعاود الاتصال بك فى خلال عشر دقائق لأتحدث إلى «خديجة».. هل تفهم؟ ينبغى أن ترد هى بنفسها على».

عشر دقائق.. ليس أمامنا سوى عشر دقائق كى نفكر فى الأمر.

فقلت: «حاضر».

– هذا جيد.

قالها ثم سكت الهاتف فى يدى وكأنه مات فجأة، واستندت بظهرى إلى الجدار إذ شعرت أننى سأسقط، لكن لم يكن هناك وقت للجلوس. ليس أمامنا سوى عشر دقائق.

خديجة

كان منظر «عابدى» فظيعًا حتى إننى ظننت أنه سيغشى عليه. وقلت بسرعة: «اجلس..اجلس وسوف أحضر لك بعض الماء»، لكنه قال: «لا.. لا تذهبى»، لكننى كنت قد بدأت أتحرك بالفعل. لم أكن أعلم من اتصل به لكننى قلت فى نفسى إنه أيا كان الأمر فمن الممكن تأجيله لدقيقتين فقد كان واضحًا أنه فى أشد الحاجة إلى الماء.

كان الطلبة مصطفين أمام مبرد الماء ولم يكونوا فى عجلة من أمرهم كما كان واضحًا، فانتظرت قليلا ثم أخذت كوبًا وذهبت لملئه من غرفة الملابس، وحين عدت وجدت «عابدى» جالسًا على مقعد بجوار أحد المناضد، ما إن رآنى حتى هب واقفًا وقال: «اسمعى يا خديجة».

فقلت: «بل اشرب أولا»، وقربت الكوب من فمه حتى يشرب فرشف رشفتين ثم أزاح الكوب وقال: «اسمعى. كانت تلك المكالمة من الصومال.. لقد..».

ولم يزد على ذلك بل ظل صامتًا لبرهة. كان واضحا أنه يجاهد حتى يخبرنى بشىءٍ ما.

وقبل أن يتمكن من الكلام ثانية دق هاتفه مرة أخرى .

ورأيت يده ترتعش وهو يمدها ليمسك بالهاتف ثم يرد، وسمعته يقول: «حسنًا.. حسنًا.. ها هى»

ثم مد يده لى بالهاتف دون أن يشرح، بل وضع الهاتف على أذنى وحسب.

ووجدت المتصل يخاطبنى باسمى الحقيقى، وشعرت وكأن شخصًا ما أمسك برأسى ثم لواه إلى الخلف، وأحسست بصدمة كهربائية تسرى فى أوصالى.

وقلت دون تفكير: «من أنت؟»

قلتها بالصومالية.

وكان الصوت قبيحًا فظًا وهو يقول: «أنا الرجل الذى بيده حياة أخيك».

ولم أفهم فى الحال إذ ظننت أنه يتحدث عن «عابدى» بما أننا فى إنجلترا.

ثم سمعت شهقة ضعيفة، بعدها سمعت صوتًا آخر.. ينادينى باسم آخر.

«جى–رى»

لم يكن هناك سوى مخلوق واحد يعرف هذا الاسم. فقلت: «محمود؟ هل هذا أنت؟».

وسمعته يشهق ثانية ثم تتابعت كلماته كماء ينسكب سريعًا من دلو: «لقد خطفونى من المخيم. كانا رجلين مسلحين، ولم أستطع مقاومتهما. لم أستطع.. لو كان رجلا واحدًا فلربما كنت قد..».

ولم أفهم شيئًا لكن انتابتنى رغبة عارمة فى البكاء. هل يعتقد «محمود» أننى أتوقع منه أن يقاتل رجلا مسلحًا؟ وأردت أن أقول له: «لا عليك» كما كنت أقولها له حين يتعثر ويقع، حين كان صغيرًا. كنت أقول له آنذاك: «لا عليك.. أنت أشجع فتى عرفته»، لكنه كبر على ذلك.

وما حدث كان أسوأ بكثير من التعثر والسقوط.

ووجدت نفسى مضطرة لمقاطعة محاولاته للاعتذار وقلت: «أخبرنى فقط بما حدث. من هؤلاء الرجال؟ وماذا يريدون يا محمود؟».

لكنه لم يجب فقد أخذ الرجال الهاتف منه، ومن جديد سمعت الصوت الفظ القبيح يصيح قائلا: «هل تريدين رؤية أخيك سالمًا ثانية ؟ إذن عليكِ أن تدفعى . لديكِ مهلة ثلاثة أشهر لتجهيز المبلغ»، فصحت كالمجنونة: «أى مبلغ؟»، وقفزت إلى ذهنى صورة العملات القليلة التى أضعها فى صفوف فى غرفتى، ووجدتنى أتساءل عما إذا ما كانت عمتى «صفية» تقبل أن تدفع لى مقدمًا. لم أكن قد فهمت بعدُ تمامًا.

وصاح الرجل: «نريد عشرة آلاف دولار.. بعد انتهائكِ من تجهيز المبلغ أرسلى رسالة إلى الرقم الذى أحدثكِ منه وعندئذ سأتصل بكِ لأخبركِ كيف

تسلمين المال إلينا».

وأحسست أننى عاجزة عن التنفس وأنا أقول: «عشرة آلاف ؟»

–دولار أمريكى.

– لكننى لا أملك أى ..

–إذن اطلبى المبلغ من صديقتكِ «ساندى دكستر».. أليست فى حاجة إلى فتاة صومالية تمشى وتستعرض جسدها أمام الناس؟ فلتدفع الثمن إذن.

وأتبع ذلك بكلمات مهينة مقززة شعرت وكأنها حشرات تزحف على جسدى لكننى لم أستطع إغلاق الخط لأن الإهانات لا تهم.. لا شىء يهم سوى «محمود».

وصرختُ قائلة : «لا تؤذوا «محمود».. إياكم أن تجرؤوا على .».

وسمعت الرجل يكرر كلماتى وهو يقلدنى بصوت سخيف حاد ثم يضحك هو ورفاقه قبل أن يغلق الخط.

وما إن استجمعت شتات عقلى حتى أدركت أنه علىّ أن أرسل رسالة إلى أسرتى فى الصومال. كانت أجهزة الكمبيوتر فى قاعة المكتبة مشغولة جميعها، لكن «عابدى» توجه إلى أمينة المكتبة وهمس بشىء ما فى أذنها. لا أعتقد أنه قد أفصح لها عن حقيقة الموقف، لكن لابد أنه قد قال لها شيئًا مقنعًا فإن هى إلا دقيقتان حتى كنت أجلس أمام أحد الأجهزة.

وحين فتحت بريدى الإلكترونى وجدت رسالة فى صندوق الوارد من أبى . كانت رسالة قصيرة جافة تقول: «**خطف بعض الرجال أخاكِ «محمود».. ونبحث عنه فى كل مكان لكن لا أثر له. سيطلب الخاطفون المال، ولم نعد نملك شيئًا. ينبغى أن ترسلى إلينا ما يمكنك إرساله، وعليكِ أن تتضرعى إلى الله أن ينجيه فى القريب العاجل**».

وأرغمت نفسى على كتابة رد، وكنت أرتعد وأنا أضغط أزرار لوحة المفاتيح لأكتب عن اتصال الرجل بى، لكننى لم أذكر أى شىء عن «ساندى».. ألم تحذرنى وتقل لى إن الموضوع سينتهى لو أخبرت أحدًا به؟ ينبغى ألا أخاطر، لاسيما وقد صرت الآن فى أشد الحاجة إلى المال.

لكننى لم أستطع منع نفسى من تذكر آخر رسالة بريد إلكترونى أرسلتها إلى «محمود».

لم أستطع منع نفسى من لوم نفسى على إرسالى إياها، حتى وأنا منهمكة فى كتابة الرد، لكن ما كان قد كان، ولابد أن الخاطفين قد قرؤوها– بطريقةٍ ما– وعرفوا بأمر «ساندى».

الخطأ خطئى .. خطئى وحدى.

فيريا

كان يومى الدراسى طويلا متعبًا منذ وصولى إلى المدرسة قبل التاسعة بقليل، حيث وجدت صديقى «بن» ينتظرنى وقد صار وجهه شبيهًا بخرقة مبتلة، وبادرنى قائلا: «أليس»، ولم يزد على ذلك حرفًا، لكن صوته بدأ يرتجف وعرفت ما سيقول، فقلت: «تركتك.. أليس كذلك؟»

وأعددت نفسى للإنصات لحديث طويل، فحين يكون «بن» مكتئبًا ينبغى أن أتفرغ للإنصات والتعاطف.

وحين انتهى اليوم كنت منهكة تمامًا. لم يكن من المقرر أن أذهب لزيارة أبى يومها لذا عدت إلى المنزل.. أخيرًا! وأعددت لنفسى فنجانًا من الإسبرسو وساندوتش جبن ثم جلست أشاهد فيلم «قصة الحى الغربى» على الدى فى دى. (أعلم أن هذا كله يبعث على الحزن، لكننى كنت فى حاجة إلى بعض السعرات السريعة، وإلى جرعة عاطفية).

وما إن وصلت إلى المشهد الذى تتأهب فيه الفرقتان للمواجهة دق جرس الهاتف ولم أرد، ثم خطر لى أنه قد يكون «بن» وقد راودته رغبة فى الانتحار، لذا خفضت الصوت وأمسكت السماعة.

ولم يكن المتحدث «بن» بل أبى الذى قال: «كيف حالك؟ ما رأيكِ فى أن نذهب إلى ورشة «ساندى» معًا؟ فهى تريد أن ترينا شيئًا».

وشعرت وكأن جسدى كله يتأوه بمجرد أن فكرت في أننى مضطرة للخروج ثانية وقلت: «هل ينبغى أن نذهب فى الحال؟»

فقال أبى: «هذا ما تريده والدتك.. أعتقد أنها تريد أن تعرف انطباعنا عن شيء ما أعدت له. ربما ليس هناك من يمكن أخذ رأيه سوانا. أستطيع أن آتى لاصطحابك فى خلال عشر دقائق. أرجوكِ يا فيريا».

كان ينبغى أن أقول لا، لكننى وجدتنى أرتدى ثيابى وما إن دق أبى جرس الهاتف حتى أمسكت بالريموت كنترول وقلت وداعًا للفيلم ونزلت للطابق السفلى حتى أكون متأهبة للخروج بمجرد وصول أبى .

وقلت وأنا أستقل سيارته: «ينبغى أن يكون ما سنراه أكثر إثارة من «قصة الحى الغربى» وإلا فسأغضب جدا. ترى ماذا تريد «ساندى» هذه المرة؟».

وهز أبى كتفيه وهو ينطلق بالسيارة وقال: «هذا دأبها دائمًا منذ بدأت مشوارها مع تصميم الأزياء، حين كانت تحيك الملابس بنفسها. منذ ذلك الحين وهى تتكتم أمر كل شىء حتى تتبلور ملامح المجموعة، لكن ما إن يحدث هذا حتى تتلهف على معرفة ردود الأفعال. فى بعض الأحيان كانت تتصل بى فى الثالثة صباحًا».

ونظرت من نافذة السيارة وقلت: «وهل كنت تلبى طلبها حينئذ؟»، فأومأ بالإيجاب ثم قال: «نعم، كنت أفعل. حتى .. إحم.. أنت فاهمة».

حتى جئت أنا إلى الحياة.. نعم.. أعرف هذا..لست غبية، وليس غبيا هو الآخر لذا فضل ألا يزيد الطين بلة بأن يحاول أن يتظاهر مثلا بأن الأمر غير مهم، بل ضغط ضغطة سريعة على يدى ثم شغل الراديو.

انفتح باب الورشة مصدرًا أزيزًا بمجرد أن قرعنا الجرس. كانت الورشة تسبح فى الظلام فمددت يدى لأبحث عن مفتاح النور لكن أبى أمسك بذراعى وقال: «تعالى»، ثم أخذ كفى فى كفه وقادنى إلى أعلى .

وبينما كنا نسير بحذر قلت له: «إلى أين نحن ذاهبان؟»

– إنها تريد منا أن نتوقف حين نصل إلى غرفة القص.

–ثم؟

–ثم ننتظر.

وانتظرنا.. ظللنا حوالى ثلاث أو أربع دقائق واقفين فى مكاننا فى الظلام أمام مدخل الغرفة.

وأخيرًا لاح ضوء من أقصى الغرفة فرأينا أن مساحة منها قد أخليت أمام الجدار البعيد. كان يتوسط المساحة الخالية شبح طويل متسربل بالسواد من رأسه إلى قدميه، وكأنه «سلويت» شديد التحديد.. فقد كان

له كتفان عريضان قويان، ولوهلة شعرت أن الشبح أطول من أن يكون لساندى، لكنها تحركت فسمعت دقات كعبها العالى على الأرض.

ثم تقدمت منا خطوتين وبعدها .. بعدها لوت جسدها بشدة، وما إن فعلت ذلك حتى بدا ثوبها الأسود الطويل وكأنه يومض ويصير زاهيًا فجأة، إذ تخللته خطوط متقاطعة حمراء وخضراء وصفراء، ولوهلة، بينما هى تدور حول نفسها، اختفى كل شىء عدا تلك الألوان الجريئة التى أخذت تشكل أنماطًا براقة تتداخل فتمتزج ببعضها البعض.

ثم توقفت «ساندى» فاختفت الألوان وعادت طيات القماش إلى مكانها فلم نعد نرى سوى اللون الأسود ساكنًا.. سائدًا.. لا يكسر استمراريته أى شىء.

وأخيرًا التقطت أنفاسى، التى حبستها أثناء «العرض»، وقلت: «كيف فعلتِ ذلك؟»

لم يكن سؤالى فى الحقيقة سؤالا عن الحياكة .. ولم يحاول أبى أن يجيب. وانتظرنا نحن الاثنين لرؤية ما ستفعله «ساندى» بعد ذلك.

ظلت «ساندى» واقفة بلا حراك لدقيقة، ثم فكت أزرار الثوب وأزالت دبابيس النقاب وتركت الاثنين يسقطان على الأرض. وشعرت وكأننا نراها تختفى، فتحت الثوب الأسود كانت ترتدى ثوبًا آخر، لونه بنى محمر، تمامًا كلون الجدار خلفها. كان القماش فاخرًا جدا لكن الثوب كان فضفاضًا بحيث إن جسدها كله كان مختفيًا تمامًا بداخله. كان التغيير مدهشًا مفاجئًا

حتى إننا لم ندرك أنها كانت لا تزال منتقبة إلا بعد برهة.

وغمغم أبى قائلا: «ما معنى كل هذا؟»

ولم يكن من عادة أبى ألا يفهم مغزى ما تفعله.

وقلت: «إنها تختبئ».

كنا نتكلم بصوتٍ منخفض جدا لكن «ساندى» سمعتنا فضحكت وقالت: «هذه ستكون افتتاحية العرض. سيبدأ العرض بقرسون المختبئة».

فقلت: «وهل هذا ما ستفعلينه بخديجة؟»

فأومأت ثم سارت نحونا وكأنها شبح، وكان لقماش الثوب حفيف حول جسدها وهى تسير..

وقالت: «لن تكشف الفتاة عن وجهها أو جسدها على الإطلاق بل ستظل مختفية للنهاية..ستظل غير مرئية. ولن يعرف مخلوق من تلك التى خلف النقاب سوى «خديجة» وأخيها ونحن».

وقال أبى: «هل تقصدين الفتاة الصومالية التى تعيش فى باتل هِل؟»

وبدا فى صوته التوتر بينما شدت «ساندى» قامتها وهى تقف قبالته وقد رفعت رأسها المغطى بالقماش عاليًا، وقالت: «نعم.. وقبل أن تسأل السؤال الذى تريد أن تسأله سأجيبك.. لا لم أغير خططى وسنبث العرض من الصومال كما سبق أن قررت».

فقال أبى بصوت منخفض لاحت فيه نذر الغضب: «أنت لا تعرفين أنكِ تلعبين بالنار.. لو كنتِ رأيتِ شيئًا مما رأيت أنا».

فقاطعته «ساندى» قائلة بحدة: «لقد رأيت كل شىء فقد أريتنى كل صورة صورتها.. ألا تتذكر؟ وكنت تحدثنى عنهم أيضـًا.. كنت تظل تتحدث وتتحدث وتتحدث وكأنك تحاول أن تفرغ رأسك بالحديث عما رأيت. لكن هذا كله مر عليه إحدى عشرة سنة يا «ديفيد» والأمور تتغير خاصة حين تمر كل هذه الفترة».

فقال أبى: «لا تتدخلى فى أمور لا تفهمينها.. أرجوكِ يا «ساندى» .. إن ما يحدث هناك ليس لعبة، بل هو فى غاية الجدية والخطورة».

فقالت: «أما أنا فمجرد مصممة ملابس.. أليس هذا ما تريد أن تقول؟»

وفجأة بدت غاضبة جدا، مثله تمامًا.

ورفعت رأسها وظلت فى مكانها ساكنة صامتة ولكن وقفتها كانت تنطق بالتحدى، دون أن يبدو منها سوى عينيها. ووجدت نفسى أقول فى نفسى: «لو يستطيع أبى فقط رؤية وجهها فسيمكنه أن يقنعها». وكأن النقاب كان حاجزًا يفصل بين عقليهما لا وجهيهما فحسب. وكنت أدرك أن ذلك يشعره بالإحباط.

وظل أبى واقفـًا ينظر إلى «ساندى» دقيقة كاملة وقد امتقع وجهه وكور قبضتيه وأخذ يضغط عليهما بقوة، ثم استدار نحو الباب.

وقال باقتضاب:

«افعلى ما تشائين، لكن لا تظنى أننى سآتى وأنقذك. أنا عائد إلى المنزل فهل ستأتين معى يا فيريا؟»

كان يريدنى أن أختار أحدهما. لم يكن من العسير-بعد كل هذه السنوات- أن أدرك هذا، لكننى أجيد الوصول إلى حلول وسط. يمكنكم اعتبار هذا نتاج الخبرة.

وقلت: «لن أغيب طويلا. هل أستطيع أن آتى إلى شقتك الليلة وأتناول بعض الشوكولاتة الساخنة قبل أن آوى إلى الفراش؟»

فابتسم أبى ابتسامة ساخرة وكأنه يقول «حركة ذكية»، لكنه لم يقل شيئًا، بل هز كتفيه وغادر وحده.

وبدأت «ساندى» تفك أزرار الثوب الثانى، ولوهلة شعرت وكأنها ستظل تخلع الثوب تلو الآخر حتى لا يبقى منها أى شىء. لكن حين خلعت الثوب الثانى لم يكن يستر جسدها سوى ثيابها الداخلية.

وطوحت قدميها فخلعت حذاءها ذا الكعب العالى ثم ركلته بعيدًا، ومدت يدها فتناولت سروالها الجينز.

حين تجردت من ثيابها على هذا النحو، وبدا شعرها المنتصب فوق رأسها مشعثًا هنا وهناك على نحو مضحك، بدت ضئيلة ضعيفة جدا.

ولم أستطع منع نفسى من أن أقول: «ستأخذين حذرك.. أليس كذلك؟ أرجوكِ خذى حذرك».

ورفعت رأسها ونظرت إلىّ وقالت: «كل شىء سيكون على ما يرام.. أعدك..سأتحدث مع والدىْ «خديجة» و«عابدى» وإذا قالا إن الأمر خطير سأغير خطتى. ثقى بى يا فيريا».

حين شرحت الأمر بهذه الطريقة شعرت أننى أثق بها فعلا، وعلى أى حال ليست طفلة، وليست مطربة رومانسية تدمن الخمر والمخدرات وتحاول أن تقتل نفسها مثل «ميج»، بل كانت مصممة أزياء ناجحة جدا، وعلى دراية بما يحدث فى أنحاء العالم.

وابتسمت وقلت: «ممتاز. وربما رافقتكِ إلى هناك».

لم أكن أقصد سوى المزاح، ولكن «ساندى» استغرقت فى التفكير وهى تقفل أزرار قميصها.

****

وبعد دقائق قليلة غادرنا المكان فأوصلتنى إلى شقة أبى . لم تقترح أن تدخل معى، ولم أقم بدعوتها للدخول بل قبلتنى سريعًا ثم غادرت، وركبت أنا المصعد وحدى وأنا أتطلع إلى كوب الشوكولاتة الساخنة، وإلى النوم فى فراشى.

لكن وقت النوم لم يكن قد حان بعد. وحين دخلت الشقة كان أبى فى انتظارى، وكانت هناك صور فوتوغرافية تغطى منضدة القهوة ووجهها جميعًا إلى أسفل.

وقال أبى متجهمًا: «ينبغى أن تلقى نظرة على هذه الصور حتى تفهمى كيف كان الوضع هناك».

ولم يتحدث عن نوعية الصور، ولم يكن هناك داعٍ لذلك. وجثوت على ركبتىّ أمام المنضدة بينما أخذ أبى يقلب الصور، الواحدة تلو الأخرى.

ولابد أنكم قد رأيتم تلك الصور أيضـًا.. صور الجوع والخوف والموت.. تلك الصور التى تشعرك بفداحة الكارثة.. إنها صور بشعة.. لكن الصور التى أرانى أبى إياها كانت أفظع بكثير من الصور التى تعرفونها لأن أبى عرف هؤلاء الناس عن قرب. كان يقلب كل صورة ثم يقول بضع كلمات عنها بنبرة جافة.

«هذه الطفلة حملها والدها وسار بها مسافة عشرين ميلا كى يصل بها إلى المخيم.. لكنه حين وصل كانت أضعف من أن تأكل أى شىء، فماتت فى اليوم التالى .. وهذا الرجل جاهد ليظل حيا–بعد أن فقد ساقه–لمدة عام، إلا أنه فقد ساقه الأخرى أيضـًا، ومات.. هذا هو الصبى الذى أطلق عليه النار فأرداه قتيلا. كان يحمل بندقية تكبره سنـًا».

كان أبى يعرفهم جميعًا..يعرف قصصهم وإصاباتهم وأسماء بعضهم. وكان يحكى لى عنهم بصوت أجوف خالٍ من المشاعر وهو يقلب الصورة تلو الأخرى دون توقف.

كان يرينى ما يراه كل مرة تحدثه فيها «ساندى» عن الصومال.. تلك الصور التى لا يمكن للمرء أن ينساها.

ولم أستطع أنا أيضـًا أن أنساها فقد اقتحمت أحلامى فى تلك الليلة وقد انتابها تحول مخيف إذ احتلت وجوه معارفى وأقاربى وأحبائى أماكن

وجوه أصحابها الأصليين. وطوال الحلم كنت أسمع صوت أبى معلقًا على الصور دون توقف.

«داست «ميرى» على لغم أرضى بعد التقاط الصورة بنصف ساعة، وماتت بالغنغرينا.. أما «بن» فسار لمسافة مائة ميل حتى وصل إلى المخيم، لكنه حين وصل إليه أخيرًا كان أضعف من أن يأكل. وقد رأيته يموت. وتشردت «ساندى» فهامت وحيدة فى الصحراء».

وكنت فى الحلم أصرخ طالبة منه أن يكف عن الكلام.

وحين استيقظت أخيرًا كان فمى مفتوحًا وكأننى أصرخ.. وكأننى أضيح بلا صوت قائلة: «اجعلوه يتوقف.. اجعلوه يتوقف». كانت الساعة الثالثة فجرًا، وكنت أعرف أنه لن يمكننى النوم ثانية .

وما إن تمكنت من الحركة حتى جلست وارتديت الروب. كان فمى جافا جدا فأخذت أتلمس طريقى إلى المطبخ كى أشرب بعض الماء، ثم عدت ببطء إلى غرفة المعيشة وأنا أحمل القدح بيدى الاثنتين. لم يكن أبى يهتم بإسدال الستائر فقد كانت شقته فى طابق مرتفع، لذا فقد كان فى الغرفة من الضوء ما يكفى لأرى الصور لا تزال فى مكانها على المنضدة.

وشدتنى الصور إليها.

هل تعرفون ذلك الشعور المخيف الذى ينتاب المرء حين يكون مضطرًا إلى معاودة النظر إلى شيء فظيع؟ فى أغلب الأحيان تكتشف أن الأمر ليس بهذه الفظاعة حين تعاود النظر، إذ إن من طبع ذاكرتنا البشرية المبالغة،

وحتى لو لم تكن ذاكرتنا تبالغ، فالعقل قادر على الاعتياد على جميع أنواع الفظائع.. أليس كذلك؟ إنها آلية من الآليات اللازمة كى نظل أحياء، لكن تلك الآلية كانت مشلولة معطلة تمامًا فى تلك الليلة.

فحين نظرت إلى الصور للمرة الثانية وجدتها أكثر فظاعة من ذى قبل، بسبب حلمى . وقلت فى نفسى: «هل سيحدث–بعد ستة أشهر– أن ينظر أحدهم إلى صور مشابهة ويقول: هذه كانت ساندى؟»

كنت ممسكة بكوب الماء فى يدي وأنا أتطلع إلى الوجوه التى تطالعنى من الصور وأبكى .

كان الصبح قد انبلج أو كاد حين جاء إلىّ أبى . لم أعرف أنه معى إلا حين وجدته يجثو إلى جوارى ويحيط كتفى بذراعه، ويقول: «أنا آسف. لم أقصد أن أسبب لكِ الكوابيس. كل ما أردته هو أن أطلعكِ على أسباب قلقى، لكن «ساندى» على حق، فهذه الصور التقطت منذ خمسة عشر عامًا».

وظللت أحدق فى الصور وقلت: «وهل تغير أى شىء منذ ذلك الحين؟»

وتردد أبى، وكنت أعرف أنه يقاوم إغراء الكذب علىّ، وبالفعل لم يستجب.. لم يكذب إذ قال أخيرًا: «لا أعرف.. لا يمكننى أن أعرف إلا إذا ذهبت إلى هناك»، ثم أمسك بى وجعلنى أنهض وقال: «هيا إلى فراشك يا «فيريا» فلا يزال بإمكانكِ أن تنامى لمدة ساعتين. إنك منهكة جدا ولا يمكنك التعامل مع المسألة الآن».

فقلت: «ولكن هؤلاء البشر الذين رأيت صورهم مضطرون إلى مواجهة المسألة والتعامل معها رغم أنهم منهكون جدا».

– لكن اضطرارك أنتِ إلى الاستسلام للنوم فى الفصل فى الصباح لن ينفعهم بشىء. فتعالى .

ثم وضع ذراعه حول كتفى ثانية وأعادنى إلى غرفة نومى.

كنت لا أزال أمسك بكوب الماء، وقبل أن أرقد فى فراشى شربت ما تبقى فيه من ماء جرعة واحدة، ثم استلقيت فى فراشى وأخذ أبى يحكم الغطاء حولى برقة وحنان ثم قال: «من يدرى؟ ربما كان ما ستفعله «ساندى» سببًا فى جعل بعض الناس يفكرون، وهذا هو المطلوب دائمًا.. إذن فلتنامى الآن».

حين طلب «محمود» بعض الماء ليشرب ضحك رجل من الرجال ثم أمره أن يلزم الصمت. كانوا قد أخذوه إلى قرية لا يعرفها وحبسوه فى غرفة لا نوافذ لها، ولا شىء فيها سوى دلو فارغ. وكان «محمود» جائعًا خائفًا، وحائرًا، إذ لم يكن يعرف قط ما الذى قد يدفع هؤلاء الرجال إلى اختطاف صبى مثله.

وبعد يوم ونصف– وربما أكثر– جاء من يخرجه من الغرفة. وحين خرج وجد نفسه أمام ثلاثة رجال. أحدهم كان يتحدث فى الهاتف لكنه توقف حين رأى «محمود» وأعطاه الهاتف بعنف وقال: «هذه أختك.. أختك التى فى إنجلترا. قل شيئًا حتى تسمع صوتك». كانت عيناه باردتين قاسيتين، وظن «محمود» أن فى الأمر خدعة ما.. خدعة قاسية للسخرية منه، لكنه فعل ما أمره به الرجل فقال: «جى–رى؟»، وعندئذ سمعها ترد عليه وتناديه باسمه.

وانطلق «محمود» يتحدث بأسرع ما يمكنه محاولا أن يشرح لها ما حدث، إلا أن الرجل ذا العينين الباردتين خطف السماعة منه قبل أن ينتهى من حديثه لأنه كان يريد أن يتحدث بنفسه مع «جى-رى»، وكان ما قاله لها هو أكثر ما أخاف «محمود» فى الأمر كله.

عشرة آلاف دولار!

لم يستطع «محمود» أن يتخيل كل هذا القدر من المال.. كيف يمكن لشخص واحد أن يحصل على مثل هذا المبلغ، لاسيما إذا كان ذلك الشخص ليس إلا فتاة صومالية فقيرة، حتى وإن كانت تعيش فى بلد غنى كإنجلترا. مستحيل.. لكن لو لم تحصل «جى-رى» على المبلغ فذلك يعنى نهايته.

عابدى

ظننت أن «خديجة» ستصرخ وتصيح وتبكى بعد انتهاء المكالمة لكنها لم تفعل، بل أغمضت عينيها وظلت صامتة ساكنة تمامًا حتى إننى لم أكن أراها تتنفس. هل كانت تفكر؟ أم تبتهل إلى الله؟ أم أن الصدمة قد جمدتها فى مكانها؟

وقلت لها: «يمكنكِ أن تطلبى المبلغ من ساندى». لم يهدنى تفكيرى لشىء غير هذا فتابعتُ قائلا: «من يدرى؟ ربما منحتكِ المبلغ إذا صارحتها بسبب احتياجك له»، ففتحت «خديجة» عينيها وقالت:« ماذا تقول؟ هل تمنحنى «ساندى» المبلغ إذا أخبرتها أن المجرمين فى الصومال جميعهم يعرفون أنها عرضت علىّ وظيفة؟ لا تكن غبيا.. المفروض أننا لم نفش السر، ولو علمت بما حدث فلن ترغب فى أن أعمل لديها، وعندئذ لن يكون هناك أى فرصة لإنقاذ محمود».

فقلت: «لكن ينبغى أن نفعل شيئًا.. لو كان الخاطفون هنا لأمكننا الاستعانة بالشرطة، ولكن فى الصومال».

ولم يكن هناك داعٍ لإتمام الجملة.. فى الصومال ليس هناك شرطة، ولا حكومة ، ولا قانون، ولا نظام، ليس فى الصومال سوى المجرمين الخاطفين، وتجار الحروب والقراصنة، والأطفال الذين يجوبون الشوارع حاملين البنادق على أكتافهم، وحاملات المدافع.

لكن «خديجة» أتمت الجملة بطريقة أخرى فقالت: «فى الصومال عائلتى! أبى وأعمامى يبحثون عن «محمود» فى كل مكان! ولو كنت فى الصومال لطلبت منهم المشورة، لكننى وحدى هنا فى هذه البلاد الغريبة.. ولا عون لى».

فقلت بانفعال: «هنا عائلتى»، لكنها قالت: «ليسوا سواء.. مهما يكن فلا يمكن اعتبار عائلتك عائلتى».

وكانت محقة.. بالطبع كانت محقة. هناك مثل صومالى يقول: «أنا وعشيرتى ضد العالم، وأنا وعائلتى ضد عشيرتى». هل من بديل للعائلة؟ هل من أحد يمكن الاعتماد عليه بلا حدود كالعائلة؟

وقلت لها: «لقد تعهدنا بالعناية بكِ، وسنبذل كل ما فى وسعنا فعله من أجلك».. كان هذا هو ثانى أفضل شىء ممكن.

لكن «خديجة» هزت كتفيها وقالت: «هل ستعطوننى المال؟ أم ستأخذوننى إلى الصومال للبحث عن محمود؟»

وأخذت أفكر فيما عساى أن أقوله لها لكننى لم أهتد إلى رد مناسب، وأخيرًا قلت: «تعلمين أنه ليس بمقدورنا فعل هذا ولا ذاك، ولكن لابد أن هناك أحدًا يمكنه المساعدة».

لكن الحافلة أتت فركبنا دون أن نكون قد اهتدينا بعد إلى ذلك الذى يمكنه المساعدة. المنطق يقول إنه لابد أن يكون ممن يعرفون قصة «خديجة» الحقيقية..أمى مثلا؟ إنها تعرف القصة لكنها بالطبع لا تستطيع المساعدة فى أمر كهذا، لكن ربما.. ربما كان هناك فعلا من يمكنه مساعدتنا.

كان فى المسجد–فى الغرفة الصغيرة الواقعة خلف المسجد– يناقش الإمام فى أمرٍ ما.

ونظرنا من الباب الزجاجى فوقعت أعيننا عليه فى اللحظة نفسها. إنه عمى «عثمان» العجوز بلحيته الرمادية ووجهه الحكيم الذى ملأته الغضون، يجلس فى مواجهة الإمام الشاب المتحمس الثائر للحق والخير. وشعرت أنه لا ينبغى أن نقاطعهما، لكن «خديجة» طرقت الباب ثم فتحته دون انتظار الإذن من أى منهما.

رفع عمى «عثمان» وجهه فنظر إلينا، وحين رأى «خديجة» أشار إلينا لندخل ثم قال: «ما الأمر؟»، فقلت بصوت واهن: «حدث شىء ما..شىء خطير».، ثم نظرت إلى الإمام. فقال عمى «عثمان»: «أيا كان هذا الشىء فيمكنكما أن تقولاه لنا نحن – الاثنين –، فليس بيننا أسرار».

وترددت «خديجة» لدقيقة ثم قالت: «لقد اختُطِف أخى «محمود».. فى الصومال، ويريد الخاطفون عشرة آلاف دولار ثمنًا لحياته».

وكان صوتها خاليًا من الانفعال، ثم أردفت: «وقد منحونا مهلة قدرها ثلاثة أشهر لجمع المبلغ».

بدت وكأنها تحكى حكاية لا علاقة لها بها، حتى إننى خشيت ألا يصدقا ما قالت. وأغمض الإمام عينيه لدقيقة، بينما ظل عمى «عثمان» ساكنًا فى مكانه وقد أخذ ينظر إلى كفيه.

أخذت «خديجة» تمر بأصابعها جيئة وذهابًا على حافة منضدة كانت بالحجرة ثم قالت: «لا أطلب منك أن تدفع المبلغ وحدك لكن قد يمكنك الاستعانة بالآخرين فهم جميعًا يثقون بك ويحترمونك، وإذا قلت لهم إن هناك حاجة ملحة إلى ذلك المبلغ وطلبت منهم المساهمة فربما».

وأمسكت عن الكلام وهى تنقل بصرها بينه وبين الإمام، محاولة أن تقرأ فى وجهيهما ما يدور فى رأسيهما، لكنهما لم يقولا أى شىء، بل ظلا منتظرين أن تكمل حديثها، فقالت «خديجة» بيأس: «ليس المبلغ كبيرًا إلى هذا الحد بل يستطيع مائة شخص توفيره إذا ما دفع كل منهم مائة دولار. كم تساوى المائة دولار؟ ستين جنيهًا؟ سبعين جنيهًا؟ إذا دفعت كل أسره سبعين جنيهًا.. قرضًا».

كانت قسمات وجه عمى «عثمان» تنطق بالشفقة، لكن كان واضحًا لكلينا أنه سيرفض الفكرة، فأحنت «خديجة» رأسها وقالت: «أرجوك ساعدنى.. أرجوك.. لا أعرف ما الذى يمكننى فعله سوى طلب المساعدة منك».

وزفر عمى «عثمان» فتصاعدت الزفرة من أعماقه حتى إننى كدت أشعر للحزن بداخله بثقل مادى، لكنه لم يرد، بل كان الإمام من بادر إلى الحديث فقال: «أعرف أن الأمر خطير والمشكلة كبيرة، لكن ينبغى ألا نمنح

الأشرار ما يطلبون يا «خديجة».. إذا ما رضخنا لهؤلاء المجرمين فسوف يكررون فعلتهم، المرة تلو الأخرى، وسيعانى المزيد من الناس».

- على الأقل سينجو «محمود».

كانت «خديجة» تحاول أن تبدو قوية لكن صوتها فضح شعورها بالوحدة والانكسار. وقال عمى «عثمان» : «لن ينجو أحد، فحتى لو تمكنت من تدبير المبلغ فليس هناك ما يضمن أن يعيد هؤلاء الخاطفون أخاكِ سالمًا، بل من الأفضل لهم أن يقتلوه».

وكان عمى «عثمان» يحاول ألا يكون قاسيًا إلا أننى رأيت «خديجة» ترمش بعينيها فى فزع حين تفوه بتلك الكلمات.

ومال الإمام إلى الأمام وقال وقد بدا مستغرقـًا فى التفكير: «ثمة شىء يحيرنى .. ما الذى جعل هؤلاء الرجال يرون فى شقيق «خديجة» صيدًا ثمينًا؟»

كانت الإجابة واضحة أمام عينى، مفزعة تجمد الدم فى العروق. وكان هناك سؤال آخر أفظع لأن إجابته كانت أفظع: كيف عرفوا؟

لكننى قلت: «لقد حاولنا أن نفهمهم أن «خديجة» ليست سوى طالبة بالمدرسة، لكنهم لم يلقوا بالا لذلك».

وقالت «خديجة»: «إنهم قساة أشرار لا يهمهم سوى المال فماذا بيدنا كى نوقفهم؟»

فرفع عمى «عثمان» رأسه وقال: «فلنخبر ولدى «سليمان» بالموضوع فله معارف كثيرون فى الصومال وربما كان يستطيع أن يعرف شيئًا عن مكان أخيك».

لم تمنحنى تلك الكلمات أملا كبيرًا إلا أن «خديجة» شدت قامتها فجأة وبدت فى عينيها نظرة صارمة تنطق بالإصرار وهى تقول: «نعم.. ربما كان بوسعه ذلك.. لم أفكر فى هذا».، ثم نهضت بدون مقدمات وقالت: :شكرًا لإصغائكما إلىّ».

فنهضت وأنا أغمغم بعبارات الشكر، وحين اقتربنا من باب الخروج قال عمى «عثمان» فجأة : «لكن كيف استطاع الخاطفون الاتصال بكما؟»

ولم أجرؤ على الاعتراف بالحقيقة إذ لم أكن مستعدًا لخسران هاتفى ثانية فقلت بسرعة: «لقد أرسلوا إلىّ رسالة على بريدى الإلكترونى ».

فرفع عمى «عثمان» حاجبيه دهشة وقال: «راسلوك أنت؟ لا خديجة؟»

كان الأوان قد فات ولم يعد ممكنًا أن أتراجع عما قلت فابتسمت ابتسامة واهنة وهززت كتفى ببلاهة وقلت: « لا يمكننى أن أشرح لك الأمر».

ثم أسرعت ألحق بخديجة.

خديجة

لم يستطع ذلك العجوز فعل أى شىء لإنقاذ «محمود»، ولا الإمام استطاع أن يساعدنى، ولم يكن هناك متسع من الوقت لأضيعه فى الحديث معهما، لذا غادرت المسجد، وكنت قد وصلت إلى منتصف الشارع حين لحق بى «عابدى» وقال: «ماذا تفعلين؟ تمهلى قليلا» فساقى أطول من ساقيه وسرعتى تفوق سرعته كثيرًا.

وقلت له: «لو تمهلت فسيضيع أخى».

- ألم تسمعى ما قاله عمى «عثمان»؟ لقد وعد بالتحدث مع ابنه «سليمان».

-متى؟ غدًا؟ أم بعد غد؟

واندفعت أقول: «لا يمكننى الانتظار ولو دقيقة واحدة. إذا كان «سليمان» يستطيع المساعدة فعلا فينبغى أن نتحدث معه الآن وفورًا».

وكان مقهى الإنترنت أول مكان يمكننا البحث فيه، لكننا حين وصلنا ونظرنا إلى الداخل من الزجاج لم نجده هناك، بل لم يكن بالمقهى سوى المدير الذى كان منشغلا مع الزبائن الذين عج بهم المكان. وكان من الممكن أن أسأله

عما إذا كان «سليمان» فى مقهى آخر لكننى لم أطق التفكير فى الانتظار للتحدث معه. كنت أحتاج إلى أن أفعل شيئًا لا أن أنتظر أو أتكلم، لذا ظللت أسير مبتعدة عن المقهى دون أن أشرح شيئا مما يدور برأسى لعابدى .

لكنه خمن إلى أين كنت ذاهبة وقال: «هل يمكننا الانتظار حتى الغد؟ سيتضايق «سليمان» إذا ما أزعجناه بزيارته فى منزله هكذا».

– إذا لم يعجبك ما أفعل فلا تأت معى.

ولم أبطئ مسيرى ولو للحظة. ولابد أن «عابدى» قد أدرك وتفهم ما أشعر به، فلو كان مكانى– لو اختطفت إحدى شقيقاته– لما انتظر إلى الغد بالتأكيد.

لم يكن «سليمان عثمان» يعيش فى شقة كأغلب الصوماليين الذين يقطنون «باتل هِل» بل كان يملك منزلا جميلا أبيض اللون يقع عند نهاية الطريق، له ثلاثة صفوف من النوافذ، وأمام بابه الأمامى بعض الدرجات التى صعدتها ثم أمسكت بمطرقة الباب المصنوعة من معدن أصفر على هيئة قبضة مكورة. ودوى صوت الطرقات عاليًا.

وظننت أن «سليمان» سيفاجأ برؤيتى لكن لم تبد عليه أية دهشة، بل ظل وجهه ثابتًا مطمئنًا للحظة، ثم ابتسم.

ولم أمهله ليقول أى شىء بل قلت على الفور: «السلام عليكم يا عمى سليمان!أرجوك.. أرجوك ساعدنى .. لقد اختطفوا أخى!»

وارتفع حاجبا «سليمان» والتفت لينظر إلى «عابدى» ببطء شديد وكأنه يريد أن يفهم معنى خفيا إذ قال لى وجهه: «ليس هذا الأخ بالتأكيد؟»

ثم تراجع إلى الوراء وأشار لنا كى ندخل.

وقال: «ينبغى ألا نناقش مسائل مثل هذه فى الشارع، ادخلا وستعد لكما «أمينة» بعض الشاى».

وأطلت «أمينة» برأسها من خلف أحد الأبواب وهى تربط رأسها بمنديل، وقادنا «سليمان» إلى الغرفة الأمامية وإن هى إلا دقائق حتى جاءت «أمينة» تحمل الشاى والبسكويت وطبقًا صغيرًا فيه تمر فوق صينية، لكنها لم تمكث لتعرف سبب مجيئنا، بل قدمت الشاى ثم انصرفت وأغلقت الباب خلفها كما لو كانت معتادة على مثل هذه المواقف.

وانتظر «سليمان» حتى بدأنا نحتسى الشاى ثم قال: «والآن أخبرينى بالحكاية بالتفصيل».

فقلت: «أنا لا أقصد عابدى» فلوح بيده وكأنه يقول إن هذا مفهوم وقال: «بالتأكيد.. ربما لديكِ أخ آخر لكنه ليس فى إنجلترا.. أليس كذلك؟»

فمال «عابدى» إلى الأمام وقال: «لقد اختطِف شقيقها فى الصومال، واتصلوا بى و».

ووجدتنى مضطرة للتدخل كى يفهم «سليمان» مدى خطورة الأمر فقلت: «وسوف يقتلون «محمود» وليس هناك طريقة لإنقاذه سوى دفع عشرة آلاف دولار أمريكى».

–ولم يصغوا إلىّ حين أكدت لهم أن «خديجة» ليست إلا طالبة.

–وليس فى الأمر أى خدعة فقد جعلوا «مجمود» يتحدث إلىّ فتأكدت بنفسى.

وظل «سليمان» يصغى إلينا وهو يحتسى الشاى منتظرًا أن نفرغ من حديثنا، وحين فرغنا وضع فنجانه فوق المنضدة بتأنٍ ثم قال: «هذا فظيع.. كان الله فى عونك يا «خديجة».. لكن لماذا أتيتما إلى هنا؟»

فقلت باندفاع: «اطلب من أصدقائك فى الصومال أن يعثروا على الخاطفين واجعلهم يطلقون سراح «محمود» يا عمى .

– اجعلهم؟

وارتفع حاجباه ثانية، ثم شبك يديه أمام ركبتيه، ونظر إلينا قبل أن يكمل قائلا: «هل تعنين أنكِ تريدين من أصدقائى أن يعثروا على الخاطفين ثم يفتدون شقيقك؟ وكيف يمكن هذا؟ و ما الذى يمكن أن تقدميه للخاطفين؟»

فقال «عابدى»: «ليس معها أى شىء».

فنظر «سليمان» إليها، ثم لاحت فى عينيه نظرة حادة فجأة وقال: «ربما لا تملك عشرة آلاف دولار لكن بالتأكيد بحوزتها شىء قيم وإلا فلماذا يهتمون باختطاف أخيها هى بالذات؟ ما أكثر الصبية الصوماليين الذين لهم أقرباء فى إنجلترا، فلماذا اختاروا أخاكِ بالذات؟»

ونظر «عابدى» إلىّ.

وتناول «سليمان» فنجانه ثانية ثم أخذ يشرب الشاى ببطء وينتظر أن نتحدث.

لكن ماذا عسانا أن نقول؟

إذا أفضينا له بسرنا مع «ساندى» نكون بذلك قد فرطنا فى الأمل الوحيد فى الحصول على المال.

وحين انتهى «سليمان» من احتساء الشاى وضع فنجانه على المنضدة ثم نظر إلى «عابدى» وقال برقة أقرب إلى الهمس: «ينبغى ألا نقع فى خطأ الاعتقاد بأن الصوماليين أغبياء.. لم يعد هناك مكان للغباء فى الصومال.. كل الأغبياء ماتوا منذ زمن بعيد.. بعيد جدا، فليس بإمكان إنسان هناك أن يبقى حيا ما لم يكن ذكيا».

ولمعت عيناه السوداوان فبدتا كجعرانين انعكست أشعة الشمس على ظهريهما، وحين التفت إلىّ شعرت وكأنه ينظر إلى قلبى مباشرة .

وقال: «إن الرجال الذين اختطفوا أخاكِ ليسوا جهلاء. كونى واثقة أنهم يعرفون كل شىء عنك ويعرفون أنكِ أتيتِ إلى انجلترا عن طريق مهرب لتتعلمى تعليمًا جيدًا، وبالتالى فلن تكسبى أى نقود ما لم تتمى تعليمك، ومع ذلك فقد اختاروا هذه الفترة لاختطاف أخيك، فلابد من وجود سبب لذلك».

ونظرتُ إلى قدمىّ وقلت: «إذا كان هناك سبب فليس من المحتمل أن يكونوا على علم به».

فغمغم قائلا: «ما هذا الذى لا يحتمل أبدا أن يكونوا على علم به؟»

فقال «عابدى» ببطء: «هناك شىء ما، لكنه سر، وإذا ما أذيع فلن يتحقق الأمر أصلا».

فنهض «سليمان» من مكانه وسار ثم توقف أمام النافذة وأخذ يطل منها على الخارج وقد أولانا ظهره.

وبعد برهة قال بصوت منخفض: «أعتقد أنه يمكنكما ائتمانى على سركما.. من – فى اعتقادكما– الذى أعاد الهاتف إليك يا «عابدى»؟»

عندئذ سمعت «عابدى» يشهق، ونظرت إليه فوجدت وجهه تجسيدًا لمعنى الصدمة. كان وجهه خاليًا من أى تعبير سوى تعبير الصدمة والذهول، ولم ينطق بكلمة. كان قد بدأ يصدق أن «سليمان» يتمتع بقدرة على تحقيق أى شىء يريده.

وتمنيت أن يكون اعتقاده بشأن قدرات «سليمان» صحيحًا، وقلت: «لقد عُرضَت علىّ وظيفة.. هناك مصممة أزياء مشهورة اسمها «ساندى دكستر» ..».

ولم يلتفت «سليمان» إلينا، لكنه أومأ إيماءة لا تكاد تلحظ برأسه كى نعرف أنه يعرف من تكون «ساندى»».

وأخذت نفسًا عميقًا ثم قلت: «وقد عرضت علىّ وظيفة. تريد أن تستخدمنى عارضة .. تريدنى أن أرتدى بعض الملابس من تصميمها فى عرض من عروضها».

كانت تلك المرة الأولى التى أتحدث فيها عن الأمر، وبينما كنت أحكى القصة بدأت أدرك خطورة ما فعلناه أنا و«عابدى». وبدأت أرتجف وأنا أتوقع عاصفة من الأسئلة الغاضبة من نوعية «وما الذى يجعلك تعتقدين

أن تلك المرأة محل ثقة؟».. أو «هل تريدك أن ترتدى ثيابًا قصيرة وتكشفى رأسك؟» أو «من أدراك أن تلك المرأة «ساندى دكستر» بالفعل؟»، لكن «سليمان» لم يطرح أى أسئلة، بل ظل ينظر من النافذة برهة ثم التفت إلينا وقال: «هذا هو السبب وراء اختطاف أخيك..لا أعلم كم المبلغ الذى عرضته عليك تلك المرأة، لكننى أعلم أن مجال الأزياء من المجالات التى تدر أرباحًا وفيرة فلماذا لا تطلبين المساعدة من ساندى دكستر؟»

فقال «عابدى»: «لا يمكننا هذا لأنه سيتوجب علينا أن نخبرها بأن الخاطفين قد عرفوا سرنا».

وقلت فى جزع: «لا أعلم كيف عرفوا.. لم أخبر أى أحد، ويجب أن أحصل على هذا المال».

فقال «سليمان»: «هونى عليك»، لكنه لم يكن يفكر فىّ فى الواقع، بل كان واضحًا من نظرته أنه مستغرق فى التفكير فى أمر آخر، ثم قال: «ربما لا يمكنكِ التحدث مع «ساندى دكستر» فى موضوع أخيك لكنها لا تزال هى المفتاح. هل ستقابلينها قريبًا؟»

فقلت بيأس: «هذه مشكلة أخرى، فهى تريدنا أن نذهب للقائها يوم الأحد فى الساعة الرابعة، فى حضور والدينا، لكننى لا أعتقد أن أمى..».

ورفع «سليمان» وجهه فجأة ولمعت عيناه-تمامًا كعيون أعمامى حين يرون السحاب فى موسم الجفاف- وعاد فجلس إلى جوارنا، ثم قال بصوته المنخفض: «من الأفضل عدم إزعاج الوالدة.. أخبريها فقط بأن أخاك قد اختطف يا «خديجة» وقولى لها إننى سأحاول أن أساعدكِ، ثم اتصلى بساندى دكستر وقولى لها إنكِ ستحضرين والدك إلى المقابلة».

وفهم «عابدى» على الفور فقال: «رائع!»

ثم نهض «سليمان» وفتح لنا الباب لنخرج وهو يقول: «سآتى لأخذكما فى الثالثة والربع. ينبغى أن تكونا مستعدين».

وكان «عابدى» يبتسم وكأن المشكلة قد حلت وانتهى الأمر، لكننى لم أشعر بذلك.

وحين صرنا فى الممر المفضى إلى الخارج التفت ونظرتُ إلى «سليمان» ثانية وقلت: «أرجوك لا تنس «محمود».. ينبغى أن ننقذه بسرعة.. استعن بكل من تعرف فى الصومال..».

فأحنى «سليمان» رأسه، وقال: «بالطبع سأفعل.. أعدك أن أفعل كل ما بوسعى للعثور عليه. كل ما فى وسعى».

ثم فتح الباب الأمامى لنا وأخذ يتابعنا بعينيه ونحن نغادر.

وحين عدنا إلى البيت كانت والدة «عابدى» تحيك وكانت قطعة القماش الطويلة تصدر حفيفا وهى تتحرك تحت إبرة ماكينتها القديمة، وحين أخبرها «عابدى» بما حدث لمحمود التفتت نحونا بحدة وقد ارتسم الرعب على وجهها، وقالت: «من الذى اختطفه؟»

وأنى لنا أن نعرف؟ هل تظن أن الخاطفين قد أعطونا أسماءهم؟

وقال «عابدى»: «سيحاول عمى «سليمان» أن يعرف من هم. سيتحدث مع أحد معارفه يوم الأحد».

وقالت أمى: «وما جدوى ذلك؟ ما الذى قد يعرفه «سليمان» عن هذه الأمور؟».

فقلت: «إنه يعرف أشخاصًا قد يكون بوسعهم مساعدتنا... أشخاصًا كثُر.. فى إنجلترا وفى الصومال، ولابد من أنه سيتمكن من معرفة شىء ما».، وكنت أحاول أن أحتفظ بهدوئى ورباطة جأشى، لكن صوتى فضح الصراع الذى كان دائرًا بداخلى. وأحاطت أمى كتفى بذراعها وقالت:« لا تقلقى .. لن يصيب أخاكِ سوء، فحين يدرك الخاطفون أنك لست سوى فتاة عادية فقيرة فحتمًا سيتركونه يعود إلى المنزل فى الحال». وضغطت على كتفى مشجعة.

وفتحت فمى لأتكلم ثم أغلقته ثانية، دون أن أقول أى شىء.

وعادت أمى إلى الحياكة وهى تقول: «سيكون كل شىء على ما يرام».

وبسطت القماش وضغطت الدواس بعنف لتثبته فى مكانه ثم قالت: «لا حاجة لأن يتدخل «سليمان عثمان» فى شئوننا العائلية».

فقال «عابدى» :« ليس تدخلا.. إنه يريد مساعدتنا بالتأكيد فقد كان من أعز أصدقاء أبى .. أليس كذلك؟».

عندئذ توقفت ماكينة الحياكة عن الدوران فجأة، وسكتت حركة يد أمى للحظة، ثم هزت كتفيها وقالت: «مممم.. سيفعل «سليمان» ما يريد كالعادة.. لنأمل أن ما سيفعله سيكون فى صالح أخيك يا خديجة».

ثم عادت إلى الحياكة، وانتهى الأمر.

أو هذا ما ظنناه.

فيريا

كان يوم الأحد موعد حفلة عيد ميلادى.

وحين أقول «حفلة عيد ميلادى» فإننى لا أعنى أننى قد ولدت فى يوم يشابه تاريخه هذا اليوم، بل لقد ولدت فى الواقع فى شهر سبتمبر، إذ انزلقت من داخل «ساندى» فى أحد أيام أسبوع الموضة فى لندن، وقد حظيت «ساندى» بدعاية رائعة وقتئذ (بالطبع.. هل يمكن ألا تتحدث الصحافة والتلفزيون عن مصممة تحيى الجمهور وهى تضم طفلتها الوليدة إلى صدرها؟)

لكن وجودى صار مشكلة منذ ذلك الحين.

خاصة فيما يتعلق بحفلات ميلادى .

فى البداية حين كان أبى لا يزال مصورًا صحفيا جادا يسافر إلى أقاصى الأرض كانت «ساندى» تتولى أمر الحفلة، وتنظمها على طريقتها، فتدعو أصدقائى إلى أماكن لا تخطر على بال، قبل الحفلة مباشرة ، فمثلا كانت تقيم الحفلة أحيانًا فى ستار بكس وتقرر لها موعدًا فى التاسعة والنصف من صباح يوم الاثنين!.

أو فى حديقة الميدان الذى يطل عليه منزلنا، فى منتصف الليل! (وقد حظيت تلك الحفلة بالذات بشعبية كبيرة)، أو فى قطار يتجه إلى مانشستر(وأذكر أن «ساندى» قد أكدت لى أن كل أصدقائى سيحبون تلك الحفلة جدا لأن كل الأطفال يحبون القطارات).

وحين استسلم أبى أخيرًا وبدأ العمل بالتدريس قرر أنه ينبغى أن تقام لى حفلة عيد ميلاد «رسمية»، واختار لها شهر يوليو؛ بحيث يكون من الممكن أن توجد فيها أمى دون أن يكون هناك ما يشغلها. وكان تصوره لذلك الحفل هو أن يكون حفل غداء أرتدى فيه فستانًا جديدًا، على أن يتم الاستعانة بمتعهدين لتوفير الطعام اللازم، وعلى ألا يحضر هذا الحفل أى أطفال خشية حدوث أى مشاغبات، بل يقتصر الأمر علىّ أنا وأبى و«ساندى» بالإضافة إلى أمى وأبى الروحيين، «ميزى» و«سبايك» اللذين كانت لقاءاتهما فى هذه الحفلات مبعث مرح وضحك دائم. كانت «ميرى » تزداد أناقة كل عام، وتزداد الخواتم المتلألئة فى أصابعها، ويزداد شعرها الأشقر أناقة حتى ليبدو وكأنه خوذة ذهبية فوق رأسها، أما «سبايك» فكان يزداد نحولا وشحوبًا وبوهيمية.ولم يكونا يتوقفان عن غيظ بعضهما البعض.

لم يتوقفا إلا منذ عامين..حين مات «سبايك».. وقد فقدت الحفلات بهجتها منذ ذلك الحين.

لكننا لا زلنا نترك له مقعدًا، ونصب له كأسًا من البراندى فى كل عام.

أما حفلة هذا العام فقد بدا أنها ستكون الفضلى على الإطلاق، فقد ظللنا أنا وأبى طوال الأسبوع نفكر فى الأطعمة التى سنقدمها فى الحفل، كما أن

فستانى الجديد-الذى رأيته صبيحة يوم الأحد- كان أنيقًا جدا وعصريا فى الوقت نفسه، بدون شرائط أو فيونكات، وبالطبع بدون علامة تجارية فأبى يقطع الماركة دائمًا ثم يقسم لى إنه اشتراه من «ماركس وسبنسر».

وفى الحادية عشرة دخلت الحمام كى آخذ دشا، واتصل أبى بساندى كى يُذكرها بالموعد. ويبدو أنه كانت هناك مشكلة فقد سمعت ما يشبه الصياح، لكن ما إن ارتديت ثيابى وخرجت من الحمام حتى وجدت «ساندى» قد وصلت، وكانت تحمل باقة من الورود البيضاء وعلبة صغيرة ملفوفة بعناية بورق الهدايا اليابانى الأنيق.

كل شىء بدا رائعًا.

وجاءت «مرى» فاكتملت الروعة. لا تطلق «مرى» العنان لنفسها إلا فى حفلة عيد ميلادى، إذ تحرص دائمًا على أن تبدو عصرية متحررة لكن فى تحفظ بحيث لا ينال مرحها من صورتها المهنية، أما فى حفلتى فهى ترتدى ثيابًا تجعلها تبدو مختلفة كل الاختلاف .. ثيابا ذات ألوان صارخة، كذلك الفستان القرمزى الذى كان يبدو وكأنه انفجار براق .. كان الفستان من قماش التفتاه.. لا زلت أذكره.. وكذلك الفستان الذى كان يبدو وكأنه حبات من مطر معدنى.

أما فى هذه الحفلة فقد ارتدت ثوبًا من الساتان الأخضر الأملس تغطى صدره كشكشات ضخمة .

وحين رأتها «ساندى» وضعت يديها على رأسها وصاحت: «لا يا «مرى» لا لا لا!»

وعندئذ بدت «مرى» راضية مسرورة؛ لأن هذا بالضبط رد الفعل الذى أرادته من «ساندى»، فحفلتى إحدى المناسبات القليلة التى يمكنها فيها ممارسة لعبتها المفضلة: لعبة إثارة دهشة «ساندى». وهزت «مرى» ردفيها حتى تهتز الكشكشات، ثم قبلتنى وقدمت لى هديتى (وكانت حقيبة يد فاخرة قد تدفع أى فتاة- غيرى- نصف عمرها لتمتلكها).

وتظاهر أبى بأنه سيمسك كاميرته فضربته «مرى» على يده وقالت: «إياك! صورة واحدة وسأقاضيك!».

كانت الساعة الأولى من الحفل رائعة، فساندى و«مرى» تكونان فى أفضل حالاتهما وهما معًا، تتبادلان قص الشائعات الفاضحة وقصص النميمة الغريبة. وحين حان وقت إطفاء الشموع وتناول كعكة عيد الميلاد كانتا بالفعل تبدوان وكأنهما لم تعودا تدريان بما حولهما من فرط اندماجهما فى قص الحكايات.

-لن تصدقى أبدًا من كانت المرأة الأخرى!

- لا! معقول؟؟؟ فى منطاد؟؟؟

وكنا جميعًا نضحك ضحكًا هستيريا.

ثم، وبينما كان أبى يقدم لنا الكعكة تغير كل شىء فجأة.

كانت «مرى» قد فتحت حقيبتها لتخرج منديلا لمسح الدموع التى بدأت تنحدر فوق وجنتيها من فرط الضحك. وبينما كانت تمسحها قالت: «آه.. قبل أن أنسى يا «ساندى».. لقد نسيتِ أن تحجزى «سيوبهان» لهذا العام».

فنظرت «ساندى» فى طبقها وأخذت تدفع بشوكتها حبة فراولة صغيرة ثم قالت: «فى الواقع لا أعتقد أننى أحتاج «سيوبهان» هذا العام».

فألقت «مرى» المنديل فى حقيبة يدها ثم رفعت رأسها ببطء وقد اتسعت عيناها.. فى الواقع اتسعت أعيننا جميعًا، لكن «ساندى» ظلت تدفع حبة الفراولة فى أنحاء طبقها دون أن تشرح أى شىء. فقالت «مرى»: «ماذا؟»

ولم تزد.. كان صوتها أقرب إلى الصياح وقد اختفى كل أثر للضحك من على وجهها.

كان من حقها أن تندهش.. كان من حقنا جميعًا أن نندهش، فالجميع يريدون «سيوبهان» دائمًا، تلك الفتاة ذات الوجه الأيرلندى الجميل، ببشرتها الناصعة البياض وعينيها الزرقاوين وشعرها الشبيه بليل حالك الظلمة. الكاميرا تعشق «سيوبهان» التى صارت الوجه المميز لأزياء «ساندى دكستر» منذ وقعت عينا «ساندى» عليها وهى تبيع فى أحد المتاجر. وكانت العميلة رقم واحد لمرى.

ولكن «ساندى» لم ترفع وجهها عن الطبق، وإنما قالت دون أن تواجه «مرى»: «إن مجموعة أزيائى هذه المرة مختلفة نوعًا ما، وأحتاج إلى عارضة مختلفة لأفتتح العرض وأختتمه بها، ولن توافق «سيوبهان» على المشاركة فى العرض ما دامت لن تكون النجمة».

(إحقاقا للحق كانت «ساندى» محقة فى تلك النقطة الأخيرة، فسيوبهان التى لم تتجاوز التاسعة عشرة من عمرها هى الفتاة الأكثر حساسية ونرجسية فى العالم)

وأغلقت «مرى» حقيبة يدها وقالت: «إذن هل تنوين تغيير نظام العرض كله أم تريدين أن نعثر لكِ على وجه جديد؟»

فغمغمت «ساندى» قائلةً: «أعتقد أننا عثرنا بالفعل على الوجه الجديد». ثم رفعت رأسها أخيرًا ونظرت إلى «مرى» وقد رسمت على وجهها تعبيرًا يوحى بالبراءة وقالت: «اسمها قرسون».

-«كارسن؟؟؟»

قالتها «مرى» وكأنها ضغطت بأسنانها دون قصد على ليمونة، ثم صاحت: «ما هذا الاسم العجيب؟»

فقالت «ساندى»: «إنه يعنى «المختبئة» يا عزيزتى»، ثم ضحكت ضحكة صغيرة وقالت: «بالطبع ليس اسمها الحقيقى!»

فابتلعت «مرى» ريقها بصعوبة ثم قالت: «بالتأكيد.. لكن من وكيل أعمالها؟»

ففتحت «ساندى» عينيها فازدادتا اتساعًا وقالت: «يؤسفنى أن أقول لكِ إن هذا سر».

ثم غرست شوكتها فى حبة الفراولة الصغيرة أخيرًا وشرعت تلتهمها وكأن شيئًا لم يحدث، وكأنها لم تحرج وتجرح لتوها أعز صديقاتها.

وكان أبى متسمرًا فى مكانه كالتمثال ممسكًا بطبق فارغ فى يده، ثم اهتدى أخيرًا إلى مخرج من ذلك الموقف فرمش بعينيه وكأنه يعود إلى

الحياة ووضع لنفسه قطعة من الكعكة فى الطبق وهو يقول: «سبق أن أعلنا حفل عيد ميلاد «فيريا» منطقة خالية من الموضة.. ألا تتذكران؟»

وظل يحاول جاهدًا إعادة الحفلة إلى سيرتها الأولى، وقد نجح أو كاد، إذ استجمعت «مرى» شتات نفسها وبدأت تمثل دور الأم الروحية غير المكترثة بما جرى، وحكت «ساندى» قصة طريفة عن «فيفيان وستوود» لم أكن قد سمعتها من قبل، لكن التوتر لم يتبدد تمامًا.

وأخذت أحدق فى كأس «سبايك» فقد كان أفضل رفيق فى تلك الحفلة، حتى فى غيابه.

وماتت المحادثة بالتدريج، ورغم كل محاولات أبى المستميتة لإحيائها، فحين دقت الساعة الثالثة كانت «ساندى» قد توقفت عن محاولة التظاهر بالضحك على فكاهات أى منا، واستسلمت «مرى» أخيرًا فضربت جبهتها براحة يدها وكأنها تذكرت شيئًا فجأة وقالت: «لا بد أننى كبرت وبدأت أفقد الذاكرة.. لقد تذكرت شيئًا مهما كان ينبغى الانتهاء منه فى مكتبى».

وقطب أبى وقال: «مرى .. لستِ مضطرة لأن..».

فتكلفت «مرى» ابتسامة عريضة ثم قالت بمرح: «أيام مرهقة.. فالموضة لا تتوقف أبدًا. إلى اللقاء أيها الأعزاء».

ثم دفعت مقعدها إلى الخلف، وأرسلت لساندى قبلتين فى الهواء، أما أنا فسرت معها إلى الباب كى أودعها، وبينما كانت ترتدى سترتها قالت لى: «ساندى صارت نحيفة جدا.. هل ضغط العمل شديد إلى هذه الدرجة؟»

فقلت باقتضاب: «إنها بخير».

«ساندى» دائمًا تحت ضغط شديد، وهى تحب ذلك، و«مرى» تعرف هذا جيدًا تماما كما أعرفه أنا.

لكنها قالت: «هل هناك مشكلات فيما يتعلق بمجموعتها الجديدة؟»

وكان صوتها كمشرط يتحسس موضعه تحت جلدى، لكننى فتحت الباب وقلت: «كل شىء على ما يرام يا «مرى»..صدقينى.. وأنا أعرف أن الخبر سيكون قاسيًا على سيوبهان».

ولوحت «مرى» بيدها وكأنها تستخف بغضب «سيوبهان» وقالت: «أوه.. «سيوبهان» تستطيع تدبر أمر نفسها.. لا لا.. أنا لا أقصد هذا الموضوع، بل أنا أشعر بالقلق فقط، لكن إذا كنتِ ترين أن كل شىء على ما يرام..».

ثم رفعت حاجبًا ورفعت صوتها وكأنها تسأل لا تقرر واقعًا، وطال الصمت وبدا محرجًا فقبلتنى قبلة سريعة ثم مضت.

ولم أكن أقل منها رغبة فى تفسير لما حدث فعدت إلى الغرفة بمجرد أن رحلت «مرى» وقلت: «إذن؟»

وفتحت «ساندى» عينيها بشدة وقالت: «تعرفين أنه لم يكن بمقدورى إخبارها يا «فيريا».. تعرفين لماذا ينبغى أن يظل الأمر سرا».

وقلت: «لم يكن هناك داعٍ لأن تتصرفى بهذه الطريقة معها. لماذا عاملتها هكذا؟»

فنهضت «ساندى» وقالت: «كان علىّ أن أفعل شيئًا حتى لا تمكث طويلا، فقرسون ستحضر والدها إلى هنا، والمقابلة شديدة الأهمية».

عندئذ قال أبى: «ماذا؟»

فأطلت من صوت «ساندى» نبرة اعتذار وهى تقول: «لا أريد أن يراهم أحد آتين إلى شقتى، وكنت أنوى إخبارك يا «ديفيد» صدقنى».

فقلت: «كيف أمكنك أن تسمحى لنفسك بتحديد مقابلة اليوم؟»

فقطبت «ساندى» وقالت: «اسمعى .. لم أكن أقصد أن تتم المقابلة اليوم، لكننى كنت قد فقدت الأمل تقريبًا فى العثور على تلك الفتاة ثانية، وحين اتصل بى «عابدى» فإننى».

– فإنكِ نسيتِ يوم ميلادى ..أليس كذلك؟

قلتها دون مواربة، فتنهدت «ساندى» ثم أومأت برأسها وقالت: «سوف أعوضكِ عن هذا يا «فيريا» ..أعدكِ بذلك، لكن ينبغى علىّ أن أهتم بكل كبيرة وصغيرة فى هذا العرض، وأنتِ تدركين وتقدرين.. أليس كذلك؟»

وقلت: «بلى .. أدركه تمامًا».

ثم جريت فدخلت غرفتى وصفقت الباب خلفى بعنف.

وبأسرع ما يمكن طوحت قدمى فطار الحذاء الأنيق، وفككت أزرار الفستان الذى أهدانى أبى إياه، ولما سقط فوق الأرض لم آخذه بل تركته

فى مكانه، ثم أرتديت الجينز والتى شيرت ودسست قدمى داخل حذائى الرياضى.

حين خرجت من غرفتى وجدت أن الأطباق والكئوس قد رفعت من على المنضدة، وكان أبى و«ساندى» فى المطبخ يغسلانها.

وكان واضحًا أن أبى غاضب، لكنه لم يكن غاضبًا إلى حد أن يمنعها من إتمام المقابلة المزمعة فى شقته.

وقلت: «سأخرج».

– لا داعى لهذا..

قالتها «ساندى» وهى تضع قطعة القماش التى كانت تستخدمها فى تجفيف الكئوس جانبًا، ثم أضافت: «إذا بقيتِ..».

لم أنتظر لسماع بقية الجملة، بل خرجت من الشقة ونزلت السلم دون أن أنتظر المصعد. لم يكن يعنينى إلى أين أذهب، لكننى كنت بحاجة إلى أن أتمشى.

كان «محمود» نائمًا فى الظلام حين انفتح الباب، وحين انفتح الباب أسرع يجلس ولم يكن قد أفاق تمامًا بعد. وأخذ يحدق فى بقعة الضوء الأصفر التى أخذت تشق طريقها خلال الظلام حين انفتح الباب.

وولج إلى الغرفة رجل يحمل طبقًا يحوى بعض عرانيس الذرة وبعض أصابع الموز، وكوب شاى، وكان الرجل يعلق بندقية على كتفه وكان يبرز من جيبه بطارية.

وبحرص وضع الرجل الطبق على الأرض ثم ضغط زر البطارية ليضيء المكان بعض الشيء، ومد يده بكوب الشاى إلى «محمود».

كان «محمود» يعانى الجوع والعطش، لكن كيف للمرء أن يثق بمن اختطفه من أسرته كما فعل هؤلاء؟ لذا فقد أخذ يحدق فى الكوب والطبق وقد استغرقه التفكير.

وجلس الرجل القرفصاء إلى جواره وهو لا يزال ممسكًا بالكوب، وقال: «هيا.. اشرب.. إن لم تشرب سيصيبك التعب والمرض».

فنظر «محمود» إلى الشاى وقال: «وإذا شربت؟»

ولوهلة حدق الرجل فيه وقد بدا أنه لم يفهم ما قال، ثم فجأة ضحك وقرب الكوب من «محمود» وهو يقول: «إنه شاى وليس فيه ما يؤذى .. اطمئن».

وابتلع «محمود» ريقه فقد كان حلقه جافًا تمامًا، وقال: «اشرب أنت أولا».

ولدقيقة ظل الرجل ممسكًا بالكوب وهو يراقب وجه «محمود» ليرى إن كان سيضعف أمام إغراء الشاى ويستسلم أم لا، لكن «محمود» ظل يبادله نظرته بنظرة ثابتة لا أثر فيها للتردد.

عندئذ ضحك الرجل ومال برأسه فرشف رشفة صغيرة من الكوب حتى يطمئن «محمود» ثم ناوله الكوب، وابتسم حين قبله الصبى منه هذه المرة وقال: «أنت ولد ممتان».

فرد «محمود» ابتسامته بابتسامة امتنان وقال: «بسم الله» ثم شرب.

عابدى

لم تذكر أمى «سليمان» ثانية إلا حين وصل بسيارته إلى مسكننا فى الثالثة إلا الربع كما اتفقنا، ثم نادانا أنا و«خديجة» فتناولنا معطفينا استعدادًا للخروج. عندئذ فقط رفعت أمى رأسها إلينا وقالت: «أنا مضطرة للخروج حالا لذا فستأخذان «زهرة» و«ماريان» معكما».

قالتها ببساطة وكأن هذا شىء عادى جدا.

فقلت: «وماذا عن «فوزية»؟ .. ألا يمكنها أن.»

– لا .. لا يمكنها.

ثم عادت إلى الحياكة قبل أن تقول: «فوزية ستأتى معى».

–لكننا ذاهبان مع عمى «سليمان».

– وهناك متسع لشخصين آخرين فى سيارته الكبيرة تلك.

ثم أومأت برأسها إلى «زهرة» و«ماريان» وقالت: «أحضرا معطفيكما ستذهبان مع عابدى».

فقلت: «لا يمكن هذا.. قولى لها إن هذا غير ممكن يا خديجة».

لكن ماما لم تعط «خديجة» فرصة لتأييدى، إذ طوت الثوب الذى كانت تحيكه ثم قالت: «كما تشاء، مادام لا يمكن أن تأخذهما معك فسوف تبقى هنا لتعتنى بهما حتى أعود».

يا لها من حيرة!..إذا أخذنا الفتاتين الصغيرتين معنا فلسوف تخبران أمى بكل شىء عن المقابلة حين نعود، وإذا رفضنا أخذهما فستدرك أمى أن هناك ما نخفيه.

ونظرت إلى «خديجة» لعلها تسعفنى لكنها هزت كتفيها والتقطت حقيبة يدها وحسب ثم قالت: «هيا فهو ينتظرنا».

وهبطنا السلم تتقدمنا «ماريان» و«زهرة» اللتان أخذتا تتقافزان أمامنا، وكلما اقتربنا من السيارة ازدادت صعوبة تخيلى إياها وقد امتلأت بالأطفال، وتخيلت «سليمان» ينظر إلينا نحن الأربعة ويهز رأسه رافضـًا.

لكنه لم يفعل، بل ما إن رآنا حتى أخرج هاتفه وتحدث مع شخصٍ ما، ثم ابتسم لنا حين وصلنا إلى السيارة.

وقال: «يا لكم من أسرة متماسكة».

فعبست وقلت: «أصرت أمى على أن نأخذهما معنا، ولم أستطع أن..».

فقال: «لا عليك»، ثم أشار لى كى أجلس فى الأمام إلى جواره حتى تجلس الفتيات معًا فى الخلف وقال: «هيا بنا ففرح ينتظرنا».

ولم أعرف من يكون «فرح»، وكنت أود أن أسأله لكننى رأيته ينظر إلىّ من طرف عينه وقد زم شفتيه قبل أن يقول: «كل شىء على ما يرام.. كف عن التململ والقلق وشغل لنا بعض الموسيقى».

فأخذت أبحث بين محطات الراديو، لكننى لم أستطع ألا أقلق. لم أكن أعلم أننا على وشك أن نرى رأى الأعين كيف ينجز «سليمان» أعماله، وكيف يحرص على الإعداد لكل شىء بمنتهى الدقة، ودون جلبة أو ضجة فارغة.

ولم نكد نسير بالسيارة لمدة عشر دقائق حتى توقف «سليمان» بها أمام محل من محال الأثاث. وبينما كان يوقف المحرك خرج صاحب المحل مرحبًا بنا. كان أخًا.. أعنى أنه كان صوماليا مثلنا.

لكنه قطب بشدة حين وقعت عيناه على الفتاتين، على غير عادة الصوماليين المعروفين بحبهم للأطفال، وقال بفظاظة: «ما الذى جاء بهما؟»

فبسط «سليمان» كفيه كمن لا حيلة له وهو يبتسم وقال: «مممم.. تعرف أنه لا يمكن ترك الأطفال وحدهم يا «فرح»، وهما طفلتان مهذبتان ولن تسببا أى متاعب».

فقال «فرح»: « لا يمكن أن تدخلا. أنت تعلم كيف يبدو المكان. إنه ملىء بالأثاث وليس لدىّ تأمين ضد الأطفال».

فبدا على «سليمان» الاهتمام وقال: «نحتاج للتحدث معك فماذا نفعل؟»

فمال «فرح» على نافذة السيارة لينظر إلى الفتاتين ثم ابتسم فجأة وقال: «لا مشكلة.. يمكن أن تعتنى «جان» بهما فهى تحب الأطفال».

ثم التفت خلفه ونظر إلى داخل المحل ونادى قائلا: «جاز.. ما رأيك فى استراحة قصيرة؟ لقد أحضر «سليمان» معه بنتين صغيرتين لطيفتين يمكنك اللعب معهما».

وهكذا وببساطة شديدة خرجت من المحل فتاة آسيوية تمسك بيدها لوحًا مثبت عليه بعض الأوراق وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة، فقال لها «فرح»: « عليّ أن أنجز بعض الأعمال مع السيد «عثمان» فأرجو أن تعتنى بالطفلتين حتى أعود.. اتفقنا؟».

فابتسمت «جان» بابتهاج لماريان وزهرة وقالت: «اتفقنا.. هيا يا بنات».

عندئذ قفزت الفتاتان من السيارة وأخذتا تتسابقان للإمساك بيدها فقالت: «لا لا.. لا داعى للشجار»، ثم أعطت لوح الأوراق لزهرة والقلم لماريان وقالت: «الآن يمكنكما أنتما الاثنتان الإمساك بيدى».

وذهبن دون أن يلتفتن لينظرن إلينا ولو مرة.

وابتسم «فرح» وقال: «أرأيت؟ كله تمام بالنسبة للفتاتين، لكن قبل أن تذهب..».

ثم سارا معًا وبدآ يتهامسان، وظللت أراقبهما من مكانى فغمرنى شعور بالارتياح وبأننا فى يد أمينة. لم يكن «سليمان» كوالده، وإنما كان يعرف كل المعرفة كيف يمكنه تحقيق ما يريد.

وكنت أتحرق شوقًا لرؤيته وهو يتعامل مع «ساندى دكستر».

خديجة

لم يعجبنى الحال. حل «سليمان» مشكلة «زهرة » و«ماريان» لكنه حلها بسهولة مبالغ فيها، وكأنه يمارس مثل تلك الحيل طوال الوقت، ولم يأخذ رأينا فى ترك الفتاتين فى عهدة امرأة غريبة لا نعرف عنها شيئًا، ورغم أننى كنت على يقين من أنهما لن يصيبهما أى شر فقد ظللت أشعر بعدم الارتياح.

لكننى كنت مضطرة للرضوخ فى سبيل إنقاذ «محمود» لذا فقد تناسيت أمر الفتاتين وفتحت حقيبتى فالوقت قد حان لارتداء الملابس السوداء التى طلبت منى «ساندى» أن أرتديها.

وأخرجت الثياب وشرعت أرتديها، ورغم أن سيارة «سليمان» كانت كبيرة فلم يكن هناك متسع لإدخال ذراعى فى العباءة واضطررت إلى الوقوف كى تنسدل العباءة فوق الجينز. وحين انتهيت قمت بلف الإيشارب الأسود حول رأسى، فوق حجابى، ومددت يدى لأتناول النقاب الصغير لأخفى وجهى.

لكنه لم يكن على مقعد السيارة حيث وضعته فاعتقدت أنه قد سقط بسبب حركتى وأنا أناضل كى أرتدى الثوب فى ذلك الحيز الضيق. لكننى لم أجده على الأرض أمامى فانحنيت ومددت يدى وأخذت أتحسس بها

أرضية السيارة، وحين لم أجده أيضًا مددت يدى أسفل مقعد السائق.. مقعد «سليمان».

عندئذ اصطدمت يدى بشىء معدنى بارد.

كان ثمة شىء ملتصق أسفل مقعد السائق، بقطعة من الشريط اللاصق فى أحد الجوانب. وأخذت أصابعي تتعرف على شكله وتستشعر ملامحه وزواياه البغيضة. وعرفته، لكننى لم أكن أتوقع أن أجده فى إنجلترا.

السلاح جزء من الحياة اليومية العادية فى الصومال، فكيف يمكن أن يحمى الرجل عائلته وماشيته من دونه فى تلك الصحراء الموحشة؟ كيف يمكن له أن يصون ما ينبغى عليه صيانته فى تلك المدن التى لا تعترف بالقانون الإلهى؟ البدو فى حاجةٍ دائمةٍ إلى السلاح، وأنا أجيد استخدامه منذ نعومة أظفارى.

لكن لماذا يحتاج رجل مثل «سليمان» للسلاح؟

كان النقاب أسفل المقعد فسحبته من تحته واعتدلت ثانية فى جلستى، وبينما كنت أحاول تثبيته فوق وجهى قلت لعابدى همسًا: «عابدى .. هناك مسدس تحت مقعد سليمان».

فرفع «عابدى» رأسه لكنه لم يتمكن من الالتفات إلىّ. كان «سليمان» و«فرح» قد التفتا إلينا، وكان «فرح» يشير إلينا مودعًا.

وسمعته يقول لسليمان وهو يستعد للمغادرة: «لا تقلق يا أخى .. لا تتأخر كثيرًا».

ورفع «سليمان» يده محييًا وقد التفت نصف التفاتة إليه وقال: «لن أغيب سوى ساعتين، ثم أهتم بمشكلتك الصغيرة تلك.. اتفقنا؟»

وفتح باب السيارة وألقى نظرة، وحين رأى ما كنت أرتديه التوى فمه وارتسمت فوقه ابتسامة ساخرة، ثم ضحك بصوت عالٍ بينما كان يدير المحرك وقال: «هل هذا هو السر الرهيب؟ تحويل النقاب إلى موضة؟ هل أنتِ متأكدة أن «ساندى» لا تسخر منكِ يا خديجة؟»

فقلت: «أنت لا تفهم.. السر هو أنا، لا الثياب. ينبغى ألا يعلم أحد من أنا».

فنظر إلىّ فى المرآة ثم لمعت عيناه وكأنه كان يحاول أن يعرف إذا ما كنت جادة أم لا، لكن بالطبع لم يكن بوسعه رؤية وجهى، وحين بادلته النظر رأيت الابتسامة تتلاشى من على وجهه، لكنه لم يقل شيئًا وهو ينطلق بالسيارة، ولم أقل شيئًا أنا الأخرى بل ظللت أنظر إلى رأسه وأفكر فيما قد يجعله بحاجة إلى ذلك المسدس.

وبعد ربع ساعة توقف بالسيارة أمام مبنى مرتفع حديث. كان عمارة سكنية لها أبواب زجاجية من التى توضع على المداخل لأغراض الأمن والحماية، وأومأ «سليمان» لعابدى وقال: «اتصل بها وأخبرها بوصولنا».

كان «عابدى» قد بدأ يطلب الرقم بالفعل، وحين ردت التفت إلىّ ليخبرنى بتعليماتها

-لابد أن تدخلى وحدكِ يا «خديجة» وسوف ترسل شخصًا ليدخلك.. رجلاً يدعى «ديفيد».

وقال «سليمان» بسرعة: «وماذا عنا نحن؟ هل تقصد أن تخرجنا من الموضوع؟»

ويبدو أن صوته كان مرتفعًا بما يكفى لكى تسمعه «ساندى» ، إذ ما إن نطق بتلك الكلمات حتى اندفعت تلقى بالمزيد من التعليمات.

وقال «عابدى»: «حسنًا.. حسنًا.. سنراك خلال عشر دقائق، و«خديجة» قادمة إليكِ الآن».

ثم لوح فى نفاد صبر يتعجلنى أن أترجل من السيارة، ففتحت الباب واندفعت إلى الخارج وقد اشتبك حذائى بطرف عباءتى حتى كدت أقع.

وصاح السائق خلفنا: «ستكونين أحسن حالا بالمينى جيب يا قطتى!»

فرفعت رأسى قطعت الرصيف بسرعة وبخطوات واسعة.

وحين وصلت إلى الباب الزجاجى كان المصعد قد هبط إلى الطابق الأرضى، وخرج منه رجل طويل القامة، ورفع يديه قليلا لأعرف أنه قد جاء من أجلى . وبعد دقيقة انزلق الباب الزجاجى وانفتح فدلفت إلى المبنى.

وقال الرجل: «أهلا بكِ.. أنا «ديفيد»، والد «فيريا».».

وأعتقد أنه لم يكن من الصعب اكتشاف ذلك فقد كان الشبه بينهما كبيرًا . كان مثلها أشقر شاحبًا، له وجه مربع وعينان زرقاوان فاتحتان.

ورفعت رأسى لأخبره باسمى فقلت: «وأنا.».

– أنتِ «قرسون».. هذا هو الاسم الذى تريد «ساندى» أن يناديكِ الناس به.

«قرسون»... أى المختفية.. اسم جديد آخر، يخفى الاسم الذى أعطاه لى المهرب، كما أخفى الاسم الذى أعطاه لى المهرب اسمى الحقيقى ..اختفاء يقود إلى اختفاء.. سلسلة لا تنتهى.

وقلت فى رضوخ: «أنا قرسون».

فأومأ وابتسم ثم قادنى إلى المصعد، وبينما كنا فى طريقنا إلى الأعلى أخذ يتحدث بصوت هادئ كى يهيئنى لما سوف يحدث.

قال: «هناك احتمال ألا تمر تلك المقابلة بسلام، فقد أصر «ماركو» على حضورها.. «ماركو» مدير أعمال «ساندى»، ولا أعتقد أنه راضٍ عن خطط «ساندى» لكن لا تسمحى له بأن يخيفك. ربما صاح ودق الأرض بقدمه كثيرًا، لكن «ساندى» تنتصر دائمًا فى النهاية».

وتوقف المصعد فخرجنا إلى ممر ساطع الإضاءة مفروش بالسجاد، وأخرج «ديفيد» مفتاحه، وقال: «أعيش هنا، وكذلك «فيريا»، حين لا تكون عند «ساندى».. أهلا بكِ فى منزلنا».

ثم فتح باب الشقة وقادنى عبر الممر القصير الضيق الذى وجدنا أنفسنا فيه إلى الغرفة الرئيسية.

شعرت وكأننى أخطو أولى خطواتى فوق السماء، إذ صرنا فى مساحة واسعة مفتوحة جيدة التهوية. كانت النوافذ تمتد من الأرض حتى السقف. وكان كل شىء فى الغرفة شاحبًا بسيطًا، وكانت النوافذ العملاقة تكشف عن منظر طولى للمدينة التى كان الظلام قد بدأ يغشاها. كان كل شىء هادئًا.. ساطعًا.

ما عدا ذلك الرجل النحيف أسود الشعر الجالس على الأريكة، والذى ما إن رآنى حتى عبس وجهه ثم قال بضيق: «هل هذه هى؟ هل هذه هى السر العظيم الذى ستجعلينه أساس المجموعة كلها؟ بربك يا «ساندى».. لن يجدى هذا».

لم يكن منظره مطابقًا للصورة التقليدية لرجل الأعمال فى ذهنى، بل كان أقرب إلى طفل مدلل غاضب لا أخلاق له، لكن «ساندى» كانت تضحك عليه وهى تقول: «اصبر يا «ماركو» وسلم على قرسون».

فنهض «ماركو» ومد لى يده. كان أقصر منى بكثير، وكان ذراعاه قويين مشعرين، وقال: «مرحبًا.. لا تغضبى منى فأنا ضحية عشرين عامًا من العمل مع «ساندى دكستر» وقد أكد لى الطبيب أن عاهتى مستديمة».

فنظرت إلى يده لكننى لم أصافحه، فليس من عاداتنا مصافحة الرجال، بل اكتفيت بأن أحنيت رأسى بأدب وقلت: «مساء الخير».

عندئذ رفع حاجبيه وتقدم خطوة وقال: « حسنًا.. دعينا نلق نظرة عليكِ إذن».

ومد يده ليميط النقاب عن وجهى لكن يد «ساندى» امتدت بسرعة لتضرب يده، وقالت «ساندى»:

–لا .. لن تلقى نظرة فينبغى ألا يعلم مخلوق من هى.

فحملق «ماركو» فيها.. وأنا أيضًا حملقت فيها.. هل تعتقد فعلا أن بإمكانها الاستمرار فى إخفائى؟ ما الذى يجدر بى أن أفعله إذا حاول

«ماركو» هذا أن يكشف النقاب عن وجهى ثانية ؟ لكنه لم يحاول ثانية بل تراجع عدة خطوات إلى الوراء ونظر إلىّ من فوق لتحت وقال: «هل تستطيع السير؟»

فقالت «ساندى»: «بالطبع» وأومأت لى وقالت: «أريه من فضلك يا «قرسون»..سيرى جيئة وذهابًا كما فعلتِ حين كنا فى مكتب مرى فوكس».

فشددت قامتى وأخذت أتمشى جيئة وذهابًا أمام النافذة الزجاجية الكبيرة. كان رأسى مرفوعًا وكان ذيل العباءة الطويل يتماوج حول قدمى، وكنت مصممة ألا أجعل هذا الماركو يسخر منى .. فلينظر إلىّ، وليرَ أننى أستطيع السير كأفضل ما يكون.

وظل «ماركو» ينظر إلى ويراقبنى وهو يشد حلمة أذنه وكأنه مستغرق فى التفكير، وقد أخذ يدير رأسه مع حركاتى. كنت أسير بثقة دون أن أسمح لعينى بأن تنظر إلى وجهه، وكنت أتخيل أننى أسير فى الخارج.. خارج النافذة.. فوق السماء.. وأخطو من سحابة إلى أخرى .

ولابد أننى قد سرت لمدة تقارب الخمس دقائق قبل أن يرفع يده ليأمرنى أن أتوقف.

ثم قال بغيظ: «لا بأس.. ستخطف الأبصار وهى تسير على المشى».

ثم التفت ليواجه «ساندى» وقال: «وهذا كل ما تحتاجين.. ليس هناك إذن مبرر منطقى للسفر إلى صحراء تسيطر عليها العصابات لتقديم العرض.. فلتبقى هنا فى لندن أنتِ والثياب، فعملاؤك وجمهورك سيكون هنا».

فقالت «ساندى» بهدوء: «لن أقدم العرض فى لندن.. لقد سبق أن أخبرتك بما سأفعله يا ماركو».

فاحتقن وجه «ماركو» بالدماء وجحظت عيناه ثم اقترب منى وقرب وجهه من وجهى حتى صار ينظر فى عينى مباشرةً، وقال: «ما رأيك يا «قرسون»؟ .. هل أنتِ مستعدة لتفويت أسبوع الموضة اللندنى فى سبيل السير جيئة وذهابًا لمدة عشرين دقيقة فى الصومال؟.. الصومال!.. من بين كل الأماكن البشعة فى العالم.. هل يسرك هذا؟»

وقبل أن أتمكن من الاستفسار كان قد عاد إلى الصياح فى وجه «ساندى» ثانية :

– إنها مجموعة رائعة! مذهلة! ومع ذلك تريدين تدميرها بسبب تلك الفكرة السخيفة.. فكرة السفر إلى أكثر بلدان العالم خرابًا ووحشة.. إلى تلك الأرض التى تخلى عنها الرب.

لكن لم يكن لصياحه أى تأثير على «ساندى» التى جلست على الأريكة وأخذت تنظر إليه وقد عقدت ذراعيها فى حجرها: أعتقد أنها كانت تنتظر أن يبح صوته فيعجز عن الصياح حتى تقول له «لا» ثانية دون أن تضطر إلى رفع صوتها كثيرًا.

لكننى لم أكن لأتركه يتفوه بمثل تلك الفظائع لذا تقدمت خطوة وحاولت أن أتدخل فقلت: «معذرة!»

وأعتقد أنه لم يسمعنى أصلا فقد ظل يصيح وقد ازداد وجهه احتقانـًا. كان يقول:

– لا داعى للتصرف وكأنكِ لا تريدين ترويج تلك الملابس وبيعها فعلا.

– معذرة!!!

لم أكن أقصد أن أصيح، إلا أن صوتى كان عاليًا جدا.. أعلى من صوت «ماركو» نفسه. وتوقف «ماركو» عن الصياح وفغر فاه وهو ينظر إلىّ بذهول، فقلت بأدب:

– علىّ أن أخبرك بأن الله لم يتخلَ عن الصومال كما تقول، وليست الصومال بلدًا بشعًا بل هى بلد جميل ولو طلبت منى «ساندى» السفر إلى هناك فسأسافر بكل سرور.

ولدقيقة خيم على المكان صمت مطبق، وكأن حبى لبلادى أمر عجيب يستعصى على الجميع فهمه.

ثم قالت «ساندى» برقة: «أرأيتما؟ أرأيتما؟»

كانت توجه حديثها للرجلين. وأكملتْ قائلة : «كيف يمكنكما الحديث عن الصومال إذا كنتما لم تذهبا إلى هناك؟ كيف يمكن أن أبيع هذه المجموعة وكيف يمكن أن يكون لها أى مصداقية إذا لم يكن الناس على يقين من أننى لا أعبث وحسب؟ بالطبع سأذهب إلى الصومال».

وحسمت الطريقة التى قالت بها هذه الكلمات المناقشة. كان واضحًا أن أوان تغيير رأيها قد فات وأنها عقدت عزمها وانتهى الأمر.

وظننت أن «ماركو» هو من سيجيب، فهو من بدأ الصياح أساسًا، لكننى كنت مخطئة فى ظنى إذ كان المتحدث هذه المرة هو «ديفيد».

كان وجهه قد ازداد فوق شحوبه شحوبًا وكأن كل الدماء قد غاضت منه فجأة. وقال: «إذا كنتِ ستذهبين إلى الصومال فأنا أيضـًا سأذهب».

ونظرت «ساندى» إليه وهى ترمش بعينيها. كانت مندهشة جدا، وقالت: «وماذا عن فيريا؟»

فأغمض «ديفيد» عينيه ووضع يده على الأريكة وكأنه عاجز عن الوقوف دون الاستناد على شىء، ثم قال: «لا أستطيع تركك.. هل تعتقدين أننى سأفضل «فيريا» عليكِ؟ لا يمكننى أن أتركك تسافرين بدونى يا ساندى».

وكنت أشعر أن ما قاله فظيع. لم أكن أعلم لماذا، لكن شيئـًا ما فى صوته، وفى نظرة «ساندى» إليه وهو يقول هذا جعلنى أشعر بذلك الشعور.

وللحظة ران الصمت على كل شىء.

صمت مخيف.

ثم تناهى إلينا من الصالة صوت أجش يقول بخشونة: «حسنـًا.. لا تعتقدا أنكما ستتركانى هنا. إذا كنتما ستذهبان إلى إفريقيا فأنا ذاهبة معكما».

وظهرت «فيريا» عند مدخل الغرفة. كانت ترتدى جينزًا قديمًا وحذاءً رياضيا مستهلكـًا.

فيريا

هل سمعت ما قاله أبى؟ بالطبع سمعته. كنت قد حضرت منذ حوالى دقيقة. وكان «عابدى» و«سليمان» يقفان ورائى .. وسمعت كل ما قيل، وهما أيضًا سمعاه.

وقد أخرس دخولى الدرامى الجميع، لكننى ظللت أتحدث بمرح وكأن شيئًا لم يكن فقلت: «انظروا من قابلت وأنا آتية إلى هنا؟! لقد أحضرتهما كى ينضما إلى حفلتنا!».

وأشرت إلى «عابدى» و«سليمان» كى يدخلا الغرفة، بينما تراجعت للخلف لأرى إن كانا سيندمجان أم لا، إذ تلت لحظة من تلك اللحظات التى يبدو فيها كل شىء ممكنًا، ثم تقدمت «ساندى» للأمام وقد مدت يديها وقالت لسليمان: «مرحبًا.. يسرنى لقاؤك.. ابنتك شديدة التميز يا سيد موسى».

وكان من الواضح أن فى المسألة سوء فهم فقد فتح «عابدى» و«خديجة» فميهما وكأنهما يريدان أن يقولا شيئًا إلا أن «سليمان» كان أسرع منهما إذ تقدم من «ساندى» وانحنى انحناءة خفيفة وقد وضع أحد كفيه على صدره. وقال: «إن الأسماء الصومالية معقدة جدا لذا أرجو أن تنادينى باسم «سليمان».. كيف يمكن أن أساعدك؟».

كانت طريقته فى التعامل مع «ساندى» توحى بأنه معتاد على الوجود فى مثل تلك الشقق الفاخرة والتعامل مع نجوم المجتمع.. ربما كان كذلك فعلا. من يدرى؟

ودخلت «ساندى» فى الموضوع مباشرةً قائلة : «أريد أن أقدم عرض أزيائى القادم من الصومال، لكن «ديفيد» يصر على أن الوضع هناك شديد الخطورة.. فما رأيك؟»

ظل «سليمان» صامتًا لثانية، ثم قال بتأنٍ: «إن الذهاب إلى الصومال ليس كالذهاب إلى فرنسا. ينبغى اتخاذ بعض الاحتياطات وعندئذ.. نعم.. يمكنكِ الذهاب إلى هناك بكل تأكيد.. الناس يسافرون إلى هناك طوال الوقت».

فأومأت «ساندى» برأسها إيماءة خفيفة تنم عن رضاها ثم قالت: «وهل تكلفة ذلك فى حدود قدراتى؟ سأحتاج إلى أن آخذ معى عشر عارضات على الأقل، بالإضافة إلى جميع مصففى الشعر وخبراء الماكياج والفتيات اللواتى سيساعدن العارضات على ارتداء الثياب. وكذلك سأذهب أنا و«ديفيد» و«ماركو»».

فقاطعها «ماركو» قائلا: «لن أسافر!»

وقلت: «وأنا أيضًا سأذهب».

ثم أضفت فى غضب: «لا تظنى أنكما ستخرجانى من هذا الموضوع».

وفتح أبى فمه، ثم أغلقه ثانية . وكنت أعلم ما يفكر فيه. كان سيعترض لكنه آثر ألا نتجادل فى الأمر أمام الناس.

ولوحت «ساندى» بيدها تلويحة غير مفهومة وقالت: «نحن نتحدث مبدئيا وحسب. أما الأرقام المحددة ففيما بعد». ثم استمرت فى طرح الأسئلة على «سليمان» وقالت: «سنحتاج إلى مكان نقيم فيه العرض، وأريد أن أبثه على الهواء مباشرة ».

ولم يبد على «سليمان» أى اندهاش وهو يسمع «ساندى» تقول هذا، بل لم يبد عليه أى اندهاش حين بدأت تتحدث عن النقود. إن كل ما يتعلق بالموضة يتضمن الحديث عن مبالغ فاحشة من المال، لكن «سليمان» ظل هادئًا رابط الجأش عند ذكر تلك الأرقام الفلكية. إما إنه قد أجرى بحثًا دقيقًا على الإنترنت عن الموضة ونقود الموضة أو إنه معتاد على التعامل مع المبالغ الطائلة.

إلا أن «عابدى» لم يكن مثله فقد رأيت عينيه تتسعان وبدأ يهمس لخديجة، ولم أكن أعلم إذا كانت ترد عليه أم لا فلم يكن بإمكانى سماعها أو رؤية تعبير وجهها الملثم.

وتقدمت منهما وقلت: «فيم تفكران؟»

فهز «عابدى» كتفيه وحاول أن يبدو ثابتًا هادئًا ولم يقل أى شىء. كانت «خديجة» هى من أجابتنى إذ غمغمت قائلة: «وأنا أغادر منزلنا هذا الصباح كنت أرى أن العشرة آلاف دولار مبلغ كبير، لكنها تبدو لى الآن وكأنها.. لا شىء».

فقلت بخشونة: «لا تدعى الأوهام تخدعك، فعشرة آلاف دولار مبلغ كبير بالفعل فى العالم الحقيقى، أما عالم الموضة فهو عالم مستقل بذاته».

فلمعت عينا «خديجة» من فتحة النقاب وقالت: «هل تعتقدين أن «ساندى» ستدفع لى العشرة آلاف دولار؟»

كانت دقتها فى تحديد المبلغ دون زيادة أو نقصان أمرًا غريبًا، وأردت أن أقول: «بالطبع لا! هل من العدل أن تكسب فتاة لا تزال بالمدرسة عشرة آلاف دولار مقابل العمل لمدة ساعة؟»، لكننى فى الواقع كنت أعلم كم هو مجنون عالم الموضة، وكم أن «ساندى» مستعدة لفعل أى شىء فى سبيل تحقيق ما تريد.

وقلت: «لماذا عشرة آلاف دولار بالتحديد؟»

فغمغمت «خديجة» قائلة : «لأن هذا هو المبلغ الذى أحتاجه».

ولم تكن تلك إجابة مقنعة، ولكننى لم أستطع أن أستوضح الأمر أكثر، فقد أشاحت بوجهها بعيدًا عنى كى تصغى إلى «سليمان» و«ماركو» اللذين كان من الواضح أنهما قد اندمجا معًا إلى أبعد الحدود. صار «سليمان» عضوًا فى المجموعة- لا دخيلا عليها- فى غضون ربع الساعة. كان يجلس إلى جوار «ماركو» على الأريكة وقد أمسك كل منهما بهاتفه البلاكبيرى. أعتقد أن «ماركو» كان يغبط نفسه على هذا الاكتشاف، فقلما يجد فى عالم الموضة من يملك عقلا عمليا كعقله. وهكذا انهمك الاثنان فى التخطيط بينما كان أبى و«ساندى» يقفان خلفهما يستمعان إلى كل كلمة ينطقان بها.

كان «سليمان» يقول: «لماذا إهدار كل هذا المال على إرسال الناس إلى الصومال؟ أكنتم ستحتاجون إلى كل هذه الأعداد من الناس إن كنتم ستقيمون العرض فى نيويورك ؟»

فقال «ماركو» فى ضيق: «بالطبع لا، بل كنا سنستعين بطاقم عمل من نيويورك.. نيويورك مختلفة جدا».

فعبس «سليمان» وقال: «هل تظن أن كل الصوماليين رعاة إبل وإرهابيون؟ إن لدينا مصففى شعر وخبراء تجميل أيضا، والبلد ملىء بالنساء الفاتنات».

فقال «ماركو»: «لكن عملنا يحتاج إلى مهارات خاصة جدا، وسأكون مندهشًا جدا إذا اكتشفت أن فى الصومال من يتمتع بمثل تلك المهارات».

ومالت «ساندى» فوق كتفه وقالت بحدة: «ينبغى أن يكون العرض مثاليا وأنا على استعداد لدفع أى مبلغ كى يتحقق ذلك».

فابتسم لها «سليمان» ليطمئنها ثم قال: «أنا متأكد من هذا. لكن لا داعى لإنفاق المال بلا ضرورة. امنحينى فقط بضعة أيام حتى أتصل بأحد معارفى فى «إيل»، وأعتقد أنه سيتكفل بتنفيذ ما تريدين. الصومال بلد فيه أموال كثيرة».

– أموال القراصنة!

قالها أبى بامتعاض فحدجه «سليمان» بنظرة وقال: «القراصنة كغيرهم من الأغنياء يحبون أن يعيشوا فى رغد ورفاهية، وكذلك زوجاتهم،

فإذا عثر لنا صديقى هذا على بعض من يمكنهم تصفيف الشعر ووضع الماكياج ومساعدة العارضات فى ارتداء ثيابهن فإن تلك الرحلة ستصير.. ستصير اقتصادية أكثر».

وقال «ماركو» بتؤدة: «نحتاج إلى شخص قادر على الإشراف على الرحلة كلها.. شخص يفهم طبيعة الأمور هنا وفى الصومال».

وتبادل النظرات مع «سليمان» الذى قال: «يمكننى أن أفعل هذا، إذا ما أردتم».

فهز «ماركو» رأسه موافقًا، وعاد الاثنان فانكبا على حساباتهما وأرقامهما ثانية ، وقلت فى نفسى: «سوف تحدث تلك الرحلة.. سوف تحدث فعلا».

ولم أكن أستطيع تحديد شعورى حيال هذا، لكن كان ثمة شىء واحد كنت متأكدة منه: لن أبقى حيث أنا، بل سأسافر معهم.

حين انفتحت النافذة للمرة الثانية بدا الرجال سعداء جدا، إذ كانوا يضحكون ويمزحون معًا، وكانوا يبتسمون لمحمود وكأنهم يتوقعون منه أن يضحك هو أيضًا، وقال له أحدهم، وكان شابًا يناديه الآخرون باسم «رشيد»: «انهض!»

كان ذلك الشاب يبدو دائمًا صموتًا قلقًا، لكنه كان مرحًا فى ذلك اليوم وهو يأمر «محمود» بالنهوض ثم يقول: «سنذهب معًا فى رحلة!»

وقال «محمود» فى نفسه: «إنها النهاية.. اليوم سيقتلوننى»، وشد قامته ورفع رأسه كى لا يدرك أحد ما به من خوف.

واصطحبه الرجال إلى خارج المبنى حيث كانت شاحنتهم التويوتا القديمة المتهالكة، ودفعه «رشيد» ليركب فى الكابينة ثم ركب إلى جواره. كان المكان ضيقًا وكان «محمود» يشعر بفوهة مسدس «رشيد» وقد التصقت بضلوعه.

وقفز رجلان فركبا فى صندوق الشاحنة، ثم قفز ثالث فجلس فى مقعد السائق. لم يكن سوى ذلك الحارس الودود الذى كان يجلب لمحمود الطعام، والذى كان رفاقه ينادونه باسم «سانيارى»، أو الأنف الصغير.

وقطب «سانيارى» حين رأى مسدس «رشيد» وقال: «لا داعى لهذا.. الولد ليس غبيا». وظل محدقًا فى وجه «رشيد» بإصرار حتى أبعد الأخير المسدس عن «محمود»، ثم أدار بعدها المحرك.

وقد أنفقوا سحابة يومهم فى الانتقال بالسيارة عبر طرق وعرة، ومن قرية إلى أخرى من تلك القرى الصغيرة المتربة. وتوقفوا مرتين.. مرة لشراء الطعام والمشروبات الغازية ومرة لملء خزان الوقود من صفائح كانوا يضعونها فى مؤخرة الشاحنة. كان من الواضح لمحمود أنهم متوجهون إلى الشمال الشرقى، لكنه لم يكن يعلم أى شىء عن الوجهة التى يقصدونها.

وكان الظلام قد حل أو كاد حين وصلوا إلى الساحل، وأوقف «سانيارى» السيارة ثانية ثم فتح الباب المجاور له وقال: «ينبغى أن أتصل بسانوينى فاهدءوا جميعًا».

فوضع «رشيد» يده الضخمة على فم «محمود» الذى شعر أنه يكاد يختنق تحت وطأة اليد القوية، وسمع «رشيد» يغمغم متسائلا عن السبب الذى يجعل من غير المسموح لأى شخص سوى «سانيارى» بالاتصال بالزعيم فى لندن. وأخذ «محمود» يصغى إلى «سانيارى» وهو يتحدث فى الهاتف وقد تملكته الدهشة من سذاجة تلك الأسماء الطفولية التى يستخدمها الخاطفون فى مخاطبة بعضهم بعضًا. «سانوينى» و«سانيارى».. الأنف الصغير والأنف الكبير!، وكأنهما طفلان يلعبان معًا.

وأنهى «سانيارى» المكالمة ثم ركب السيارة ثانية، وقال: «لقد دبر لنا «سانوينى » مكانًا. ينبغى أن نسأل عن رجل يدعى «يوسف» حين نصل إلى هناك».

وظلوا يسيرون بالسيارة على طريق الساحل لما يقارب العشر دقائق، ثم أوقف «سانيارى» السيارة آخر الأمر أمام مجموعة من المبانى التى اصطفت إلى جوار بعضها البعض، وفتح «رشيد» الباب وقفز خارج الشاحنة وهو يشير إلى «محمود» بمسدسه قائلا: «تقدم!»

كانت ساقا «محمود» ترتعشان من طول ما جلس داخل الشاحنة، فخرج بصعوبة، ونخسه «رشيد» بمسدسه ليسير نحو مبنى كبير يتكون من طابق واحد، ويقع فى الجهة الأخرى من الطريق.

وكان ثمة رجل يقف عند المدخل وكان يمضغ أوراق القات وقد أخذت عصارتها الخضراء تسيل من ركن فمه، قال له «سانيارى»: «يوسف يعرف بقدومنا».

فأشار الرجل بإصبعه قائلا: «ادخلوا».

كان المبنى يعج بالأضواء ويضج بالأصوات، وكان الضوء مبهرًا حتى إن «محمود» الذى اعتاد الظلام فى الخارج قد شعر بأن عينيه تؤلمانه.

وكان هناك رجلان ممددان على مقعدين يشاهدان سباقًا للسيارات على شاشة تليفزيون كبيرة وقد وُضِعَت على الأرض أمامهما زجاجات البيرة وأطباق فيها بقايا أرز ولحم مطبوخ.

ورفع «سانيارى» صوته كى يسمعاه، إذ كان صوت التلفزيون مرتفعًا جدا، وقال: «لقد أرسلنا «سانوينى» لمقابلة يوسف».

فقال أحدهما: «أنا يوسف». كانت عيناه ضيقتين حادتين وقال: «إذن فهذه هى دجاجتنا التى تبيض بيضًا ذهبيا.. أليس كذلك؟»

وشفع قوله بنظرة فاحصة إلى «محمود» بينما كان ينخسه بإصبعه القاسى فى ضلوعه..

وقال «سانيارى»: «نحتاج إلى غرفة لإخفائه فيها»، فأومأ «يوسف» فى ضيق وقال: «لا تقلقوا.. تم ترتيب كل شىء، وسأريكما المكان ما إن ينتهى السباق». ثم عاد إلى متابعة السباق باهتمام شديد وهو يرشف رشفة كبيرة من زجاجة البيرة أمامه.

وهز «رشيد» كتفيه ثم جلس على مقعد، وجذب «محمود» فأجلسه على الأرض وهو يغمغم قائلا: «ابق فمك مغلقًا واستمتع بالفرجة.. فلن ترى التلفيزيون لفترة طويلة».

وبحذر جلس «محمود» على الأرض وأخذ يراقب السيارات وهى تدور وتدور حول حلبة السباق.

عابدى

كان «سليمان» واثقًا جدا من نفسه وسعيدًا حين غادرنا بعد انتهاء المقابلة، إذ سمعته يغنى بصوت منخفض طوال الطريق إلى متجر «فرح»، وقد اختلس النظر إلىّ مرة أو مرتين، وكنت أعلم أن هناك أشياء ينبغى مناقشتها، لكن الوقت لم يكن قد حان بعد.

وأخذنا «زهرة» و«ماريان» ثم توجهنا إلى المنزل، وبينما كنت أترجل من السيارة مال «سليمان» نحوى ثم قال بصوت أقرب إلى الهمس: «اتصل بى فى منزلى الليلة، بعد أن تأخذ «خديجة» إلى المتجر».

ولم يكن لدىّ أى فكرة عما يرغب فى قوله لى، لكننى شعرت بنبضى يتسارع، وبينما كانت سيارته تنهب الطريق مبتعدةً عنا وجدتنى أفكر فى الطريقة التى تولى بها زمام الأمور أثناء المقابلة اليوم، وفى المسدس الموجود أسفل مقعده.

كانت الأشياء قد بدأت تسير بالطريقة التى تمنيتها، وشعرت بأننى أخرج من منطقتنا الضيقة حيث نشأت إلى العالم الواسع.. وأسبح فى تياره الجامح.. وكنت أعلم إلى أين أريد الذهاب.

****

كانت أمى تنظف بعد الحياكة حين وصلنا إلى الشقة، وما إن رأتنا حتى قالت لخديجة: «ما الذى أخركما إلى هذا الحد؟ أين كنتما؟»، وكأننا كنا ذاهبين للتسوق مثلا!

عندئذ اندفعت «زهرة» و«ماريان» تحكيان لها بحماسة شديدة عن «جان» وجهاز الكمبيوتر وماكينة تصوير الأوراق التى عندها، وعن علب طلاء الأظافر الذى تحتفظ بها فى خزينة ملفاتها.. كانتا منفعلتين وهما تقولان إن لديها عشرة ألوان من طلاء الأظافر. وصاحت «ماريان» بصوتها الحاد وهى تلوح بكفها أمام عينى أمى: «انظرى يا أمى! لقد وضعت لى لونًا مختلفًا على كل ظفر من أظفارى».، وكانت «زهرة» مصرة أيضًا على المشاركة فى الحديث فقالت: «لقد علمتنا الرسم على جهاز الكمبيوتر، وسمحت لنا بطباعة الرسوم التى رسمناها.. انظرى يا أمى!»

ومرة أخرى وجدت نفسى أشعر بالإعجاب الشديد بسليمان. كان من المستحيل أن تنجح أمى فى استجوابنا أنا و«خديجة»، فكلما كانت تسألنا سؤالا كانت الفتاتان تقاطعانها لتتحدثا عن شىء آخر من تلك الأشياء «العجيبة» التى رأتاها فى مكتب «جان».

لكن هذا لم يمنع أمى من القلق، ولم يبد عليها الارتياح حين أخبرتها بأننى ذاهب إلى منزل «سليمان» وقالت: «أعتقد أنك ستقضى معظم أوقاتك هناك من الآن فصاعدًا. كنت أعلم أن هذا ما سوف يحدث منذ بدأ يتدخل فى الأمر».

فقلت: «إنه لا يتدخل.. إنه يحاول مساعدتنا فحسب.. ألا يهمك أمر شقيق خديجة؟»

فقالت أمى وقد عيل صبرها: «بل أهتم بالطبع لكن ماذا بوسع «سليمان» أن يفعل لمساعدته؟»

وأردت أن أخبرها بكل شىء فقط كى أرى عينيها وهما تتسعان فى دهشة حين أنطق بكلمات مثل «عارضة أزياء» و«موضة» و«تصوير».. أردت أن أخبرها بكل الترتيبات وأردت أن أحكى لها عن تلك المبالغ الضخمة التى يمكن لخديجة أن تجنيها، لكننى لم أستطع أن أفعل أى شىء سوى حبس نفسى فى غرفتى حتى يحين موعد لقائى بسليمان.

حتى «خديجة» نفسها لم يبد عليها أنها تدرك كم نحن محظوظون! فبينما كنا نسير متجهين إلى المتجر حيث تعمل قالت لى: «هل تعتقد أننا محقان فى ثقتنا فى سليمان؟»

فانتابتنى الحيرة وقلت: «ماذا تقصدين؟ بالطبع لنا الحق كل الحق فى الثقة به».

– لماذا يحمل مسدسًا فى رأيك؟

فقلت: «حتى لا يتلاعب الناس به، وهذا ما نحتاج.. أليس كذلك؟ شخص قوى مثله يمكنه الوصول إلى الخاطفين».

-هذا إذا كان بالفعل بالقوة التى تظن..كنت أتساءل عما إذا كان قد استمع لرسالة «ساندى» قبل أن يعيد إليك هاتفك.

فقلت وقد أوشك صبرى أن ينفد: «وماذا فى ذلك؟ إن النساء اللواتى يحملن اسم «ساندى» كثيرات، وليس هناك ما يدعوه لأن يربط بين المتحدثة وبين «ساندى دكستر» بالذات.. أليس كذلك؟ «سليمان» لم يكن يعرف شيئًا قبل أن نخبره نحن.. لم يكن من الممكن أن يعرف شيئًا قبلها.. أليس كذلك؟»

ولدقيقة شعرت أنها تريد أن تقول شيئًا آخر لكن لم يكن هناك وقت لمحاولة استنطاقها، إذ كنا قد وصلنا إلى المتجر، وكنت أريد الذهاب إلى «سليمان».

وقلت لها: « كفاكِ قلقًا.. اتفقنا؟ سوف ننقذ «محمود» ونحصل على رحلة مجانية إلى الصومال أيضًا. إلى اللقاء».

وتركتها ومضيت.

أعتقد أن «سليمان» كان ينتظرنى فما إن طرقت الباب حتى فتح لى، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة جعلتنى أشعر أننى كبرت وطالت قامتى فجأة.

وقال: «هل أنت مستعد للعمل الجاد؟»

وكادت أنفاسى تنحبس حين سمعت ذلك، وقلت له: «هل تريدنى أن أعمل عندك؟»

فقال: «تتطلب الرحلة إلى الصومال إعدادًا كثيرًا، وأنا بحاجة إلى مساعد يتولى مهمة إجراء المكالمات الهاتفية ويتابع كل شىء.. شخص أثق به».

ثم نظر إلىّ من قمة رأسى إلى أخمص قدمى قبل أن يقول: «هل تعتقد أنه بوسعك تولى تلك المهمة؟»

فقلت: «بالطبع يمكننى ذلك» (إذ ما الصعوبة فى تلقى المكالمات وتدوين الملاحظات؟)

وترددت برهة قبل أن أقول: «وهل سيكون لى راتب؟»

فابتسم «سليمان» فصار أنفه حادا كمنقار الطائر وهو يقول: «بل أفضل من ذلك.. إذا عملت بجد فسأضمن لك أن ترافقنا فى تلك الرحلة.. هل يكفيك ذلك؟ هل يكفيك رحلة مجانية إلى الصومال؟»

كان هذا أكبر مما كنت أحلم به، وما إن نطق بتلك الكلمات حتى تيقنت أننى يجب أن أوافق.

وقلت: «هل تعتقد أن بإمكانك أن تجعلهم يأخذوننى معهم؟»

فضحك «سليمان» وقال: «بالطبع.. لكن عليك أن تباشر عملك من الآن.. هل نحن متفقان؟»

فسحبت نفسًا عميقًا كى أهدئ نفسى وأستعيد توازنى ثم قلت: «متفقان!» .

ودلفت معه إلى المنزل

خديجة

منذ ذلك الحين صار «عابدى» دائمًا يدور فى فلك «سليمان».. ماذا كانا يفعلان؟ كان الوقت يمر بسرعة.. ثلاثة أسابيع.. أربعة.. خمسة..ولم أكن أسمع عن أى شىء سوى التجهيزات لعرض «ساندى».. كانت أموالا طائلة تنفق على هذا العرض، وكان الوقت كله يكرس للترتيب له.. لكن ما نفع ذلك كله؟ وما علاقته بموضوعنا؟ ألا يعلم «سليمان» أن حياة «محمود» فى خطر؟

كانت رسائل البريد الإلكترونى التى تصلنى من والدىّ تزداد جزعًا مع مرور الوقت: «لا أحد يعرف شيئًا عن «محمود».. جربنا كل شىء.. لكن.. لماذا اختار الخاطفون ابننا؟»

كانت تساؤلاتهما خناجر تخترق قلبى لأننى كنت أعرف الإجابة، لكننى كنت عاجزة عن البوح لهما بها. إنه خطئى، لكن لم أكن لأجرؤ على الاعتراف لهما بذلك حتى لا أتسبب فى المزيد من الألم والمتاعب.

وحين حاولت أن أتحدث مع «عابدى» لم يزد على أن طلب منى أن أصبر. ثم أضاف: «سليمان يعرف ما يفعل.. المهم الآن هو تأمين وصول «ساندى» إلى الصومال، وحين تصل وترى الحال هناك بنفسها ستعطيكِ العشرة آلاف دولار دون شك وفى الحال.إنه مبلغ تافه مقارنة بكل ما تنفقه على عرضها الجديد هذا، لكن «سليمان» يقول إن علينا أن نوصلها إلى الصومال أولا».

لم يعد على لسانه سوى «سليمان يقول».. لاسيما وقد بدأت الإجازة الصيفية، إذ لم أعد أرى «عابدى» منذ بدايتها سوى فيما ندر، وحين كنت أسأله عما يفعلان كان يكتفى بأن يقول لى إنه يتصل بالناس ويجرى الترتيبات، فهناك الكثير من الأمور التى يجب تسويتها وتدبيرها.

إذن فلماذا لا يحدث أى شىء؟

لم نكن قد فاتحنا أمى فى الأمر بعد، وكنت أخشى مفاتحتها، وكان «عابدى» قد نصحنى أن أدع الأمر لسليمان لكننى لم أكن مطمئنة وكنت أشك فى أنه يمكن لأى مخلوق أن يقنعها.

ثم كان يوم ذهبت فيه للتسوق، وحين عدت وجدت «أمينة» زوجة «سليمان» جالسة مع أمى فى غرفة الجلوس، وكانتا تتحدثان فى تحفظ شديد وهما تحتسيان الشاى.

وحين دخلت ابتسمت لى أمى ابتسامة لا أثر للبهجة فيها وقالت: «أنتِ محظوظة جدا، فقد عرضت عمتك «أمينة» وعمك «سليمان» أن يأخذاكِ أنتِ و«عابدى» معهما إلى الصومال.. إنهما يعتقدان أن بإمكانهما العثور لكِ على شقيقك».

قالتها وكأنها لُقنَت تلك الكلمات، وكنت أشعر أنها غير سعيدة، لكن فليكن.. المهم أن «أمينة» قد أقنعتها بطريقة ما أن تدعنا نذهب.

ووضعت «أمينة» فنجان الشاى على المنضدة وأشرق وجهها بابتسامة وهى تقول: «أمامنا الكثير مما ينبغى إنجازه وليس لدينا سوى وقت قليل. أولا ينبغى التقاط صور لكِ ولعابدى لوضعها فى جوازى سفريكما. فلنذهب الآن.. سيارتى فى الخارج ويمكننا أن نمر على «عابدى» فنصطحبه».

ثم رنت إلىّ طويلا وهى تتناول حقيبتها وقالت: «ماذا تودين أن ترتدى فى تلك الصور؟ ربما شيئًا مميزًا!؟»

بدت عيناها وكأنهما تقولان: «افهمينى!»، ولبرهة وجدت نفسى فى حيرة، ثم أدركت أنها كانت تكذب بشأن جواز السفر وأننا كنا فى الحقيقة ذاهبين إلى «ساندى».

كانت الملابس السوداء فى حقيبتى، فحقيبتى هى المكان الوحيد الذى لا تصل إليه عينا أمى. وكانت «أمينة» قد صارت عند باب الخروج قبل أن ألتقط الحقيبة حتى. وسمعتها تقول بينما كنا نهبط درجات السلم: «ستضطرين إلى تبديل ثيابك فى السيارة. يقول «سليمان» إنه لابد أن تحرصى على إخفاء وجهك.. لا أعلم لماذا»

وفتحت باب سيارتها ودلفت إلى الداخل وجلستُ فى الخلف وأنا أقول بمرح: «أنا «قرسون».. الفتاة المختبئة.. ينبغى ألا يرى أحد وجهى أبدًا».

وأدارت «أمينة» المحرك، وقالت: «ما الداعى إلى ما سيحدث اليوم إذن؟ المفروض أننى أصحبكِ الآن إلى جلسة تصوير فما الداعى لها إذا كان وجهك سيكون ملثمًا؟»

ونشرتُ العباءة وهززتها لأردها وقلت: «لا تسأليني .. إننى حتى الآن لا أعرف إلى أين نحن ذاهبتان».

لكن «عابدى» كان يعرف كل شىء بالطبع. وتوقفت «أمينة» أمام منزلها لتصطحبه وتعرف منه كل التعليمات التى نحتاج. وقال لنا: «نحن ذاهبون لمقابلة «ساندى» فى شقة «ديفيد» فهى تريد أن تُلتقَط بعض الصور لكِ حتى يبدأ الناس فى الحديث عن «قرسون».. وسوف يقوم «ديفيد» بالتقاط تلك الصور فهل تعرفين الطريق إلى منزله يا عمتى أمينة؟»

فقالت «أمينة» وقد بدت أمارات الاهتمام على وجهها: «لعل من الأفضل أن نشغل نظام القيادة الآلية».

وأعتقد أنها كانت تعابثه وحسب، إلا أنه بالفعل قام بتشغيل النظام الآلى وظل يبحث حتى عرفنا كيف الوصول إلى هناك، ثم أخرج هاتفه واتصل بساندى ليخبرها بأننا فى الطريق إليها.

حين وصلنا كان «ديفيد» فى انتظارنا عند مدخل العمارة، وفتح الباب فى الحال وأدخلنا إلى المصعد بسرعة، وبينما كان المصعد فى رحلته إلى أعلى رفع حاجبيه وهو ينظر إلىّ وقال: «هل أنتِ مستعدة للعمل الشاق؟»

فاعتقدت أنه يمزح وقلت: «وما المشقة فى التقاط بعض الصور؟»

فضحك وحك بيده رأسه الذى كان شعره قد بدأ ينحل، وقال: «ستعرفين قريبًا جدا.. فقبل أن تنتهى جلسة التصوير ستكونين قد شعرتِ بأننى وحش، وستكتشفين أن «ساندى» يمكنها أن تكون قاسية متسلطة أيضـًا».

فقالت «أمينة» وكأنها لا تصدق أذنيها: «هل «ساندى» هنا؟»

فابتسم «ديفيد» وقال: «ستقابلينها بنفسك».

ولم تكن «ساندى» فى الشقة وحسب، بل كانت قد احتلت الشقة وسيطرت عليها تمامًا. كانت الغرفة الرئيسية معدة لالتقاط الصور، إذ تم تغيير الإضاءة فيها، كما ثبتت فيها عدة شاشات، وحولت «ساندى» غرفة نوم «ديفيد» إلى غرفة تبديل ملابس، إذ رأيت فيها مجموعة من الثياب المعلقة على شماعة طويلة. كان من المفروض أن أرتدى تلك الثياب، وكانت «ساندى» منهمكة فى تفحصها والتقليب فيها.

وتوجهت «أمينة» مباشرة إلى غرفة النوم كى تسلم على «ساندى» التى رفعت رأسها وابتسمت حين رأتها وقالت: «لابد أنكِ والدة خديجة».

فقالت «أمينة» بلهفة: «أنا سعيدة جدا بلقائك.. إننى أعشق تصميماتك».

ثم رنت إلى شماعة الثياب خلف «ساندى» فاعترى ابتسامتها شىء ما، أما «ساندى» فقد اتسعت ابتسامتها وقالت: «هل كنت تعتقدين أننى سأجعل ابنتك ترتدى جونلات قصيرة وبدلاً خشنة كالأفرولات؟؟؟ إن أساس الموضة هو التغيير والاختلاف كما تعلمين».

فقال «ديفيد» بجفاف وهو يطل برأسه من الباب: «خاصة عندكِ أنتِ».

فعبست «ساندى» فى وجهه وقالت: «اذهب من هنا فليس مسموحًا لأحد بالوجود هنا، عداى أنا و «قرسون»..؟»

--أمينة

قالتها «أمينة» وهى تبتسم بتهذيب وتنظر إلى «ديفيد» ثم تقولْ: «لعل «عابدى» قد أثبت أنه مساعد ذو نفع لك؟»

فابتسم «ديفيد» وقال: «لعل «عابدى» قد أثبت أنه يحتاج إلى بعض القهوة.. سنأخذ استراحة ما دام بوسعنا ذلك».

ثم أغلق الباب، وسحبت «ساندى» شماعة من على المشجب الطويل ثم قالت: «ما رأيكِ فى أن نبدأ بهذا؟»

فأومأتُ موافقة وإن لم أنظر إلى ما اختارت تقريبًا. ماذا يهم؟ أنا لا يعنينى ما سأرتدى .. لا يعنينى سوى إنقاذ «محمود»، وشرعت أخلع ملابسى السوداء، ولكن «ساندى» هزت رأسها فى حزم وقالت: «سيكون الأمر أسهل لو ساعدناكِ.. أليس كذلك يا أمينة؟»

فبدت «أمينة» مسرورة وقالت: «بلى!»

ووقفتُ مشدودة القامة بينما كانتا تتحركان لتعدلان وضع الثياب فوق جسدى وتثبتان الدبابيس وتغلقن الأزرار وكأنهن يجهزن عروسًا لزفافها. ولم تكن مهمتهما سهلة فلم يكن للثوب الطويل أن يستوى فوق جسدى دون كم هائل من الدبابيس الخفية، كما اضطررن إلى حشو حذائى بمجموعة من المناديل الورقية حتى لا ينخلع من قدمى . وكذلك كان عليهن أن يعقصن شعرى إلى الخلف. وقامت «ساندى» بعد ذلك برسم عينى بالمكياج.

قالت وهى تختار الألوان: «عادة أستعين بمحترفين لوضع الماكياج لكن لا نريد أن يرى وجهك أحد سوانا، لذا سأقوم بالمهمة بنفسى، لكننى سأحرص على أن يكون الماكياج بسيطًا نوعًا ما».

بعد ذلك عرفت أن «بسيطًا نوعًا ما» تلك كانت تعنى خطوطًا سوداء حول عينى وظلالاً بنفسجية دكناء فوق جفونى. وكنت أشعر بثقل هذا كله فوق جفونى كلما رمشت.

ولفت «ساندى» الحجاب حول رأسى وثبتت النقاب فى مكانه، ثم تراجعت إلى الوراء لتلقى نظرة وقد مالت برأسها إلى جانب، وقالت «أمينة»: «واو! !! هذا رائع!»

كانت تبدو كأخت لى أكثر منها كأم.

وحين نظرت إلى صورتى فى المرآة للمرة الأولى احتبست أنفاسى، فما رأيته أمامى كان عمودًا من الذهب، وكان الضوء ينداح كدوائر فى بحيرة ألقى فيها حجرًا كلما تحركتُ. كان المشهد جميلا كالماء .. هشًا كفقاعة هواء. وبدت عيناى داكنتين من خلال فتحة النقاب..كالليل حين يتسلل ليعقب الغروب.

وقالت «ساندى» : «فلنبدأ».

كان «ديفيد» محقـا حين حذرنى من أن العمل سيكون شاقـًا، فلمدة ثلاث ساعات ظللت أسير وأقف وأجلس وأستلقى وأروح وأجىء وأفعل كل ما يأمرنى به، بدقة ما وسعتنى الدقة. وبدلت ثيابى مرتين خلال جلسة التصوير تلك، وفي كل مرة كان لابد أن أتخذ أوضاعًا مختلفة.

وكنت أسمعه يهمس: «هذا جيد.. أنتِ بارعة فى التصوير حقـا!»، لكننى أدركت أنه لم يكن ينظر إلىّ فى الواقع بل كان ينظر ويتحدث إلى «قرسون». كانت «قرسون» صورة نصنعها معًا، وكان كل منا يلعب دورًا فى عملية صناعتها وحسب.

ولم تتحدث «ساندى» سوى مرة أو مرتين، إذ ألقت سؤالا مرة، وقامت بتوجيهنا مرة، لكنها كانت بوجه عام صامتة ومستغرقة فى التركيز، ولم يكن «ديفيد» يستفيض فى الرد عليها حين تتحدث، لكن تعاونهما كان أوضح من أن تخطئه عين، وكنت أنا جزءًا منه.

وكانت «أمينة» جالسة تراقب ما يجرى دون أن ترمش بعينها تقريبًا، أما «عابدى» فقد اختفى فى المطبخ. أعتقد أنه كان يشاهد التلفزيون أغلب الوقت، ولكنه كان يظهر من حين لآخر وقد أمسك بقدح من القهوة وبعض البسكويت.

وكان إحساسى بالجوع من جراء المجهود شديدًا إلى حد لا يُصدّق، وأخيرًا أومأ «ديفيد» ووضع الكاميرا جانبًا وغمغم قائلا: «انتهينا! أعتقد أننا قد استنفدنا هذه الثياب تصويرًا.. شكرًا لكِ يا قرسون».

ثم تردد قليلا قبل أن يقول: «أعلم أننى قد أرهقتك وضايقتك كثيرًا، لكن هل لى أن أطلب منكِ شيئًا إضافيا؟»

فنظرت «أمينة» فى ساعتها وسعلت وقالت: «أعتقد أن..».

فقال «ديفيد»: «لن يستغرق الأمر سوى عشر دقائق.. أريد التقاط صورة لها وهى ترتدى الثياب السوداء التى حضرت بها إلى هنا».

فقالت «ساندى»: «تلك الثياب؟»، وبدت وكأنها تريد الاعتراض وتوشك على المجادلة، لكنها هزت كتفيها آخر الأمر وقالت: «حسنًا.. ما المانع؟ وعلى أى حال سوف ترتديها لتغادر بها فلم لا؟»

وهكذا لم تحدث مشكلة هذه المرة فقد أخذت «ساندى» الثياب التى كنت أرتديها للتصوير وتركتنى كى أرتدى الثياب التى جئت بها، وصرتُ جاهزة فى دقيقتين.

وفتح «ديفيد» الأبواب الزجاجية الضخمة المفضية إلى الشرفة وطلب منى أن أدخل معه إلى هناك. كان الظلام قد بدأ يعم الكون، وكانت مبانى المدينة الشاهقة تبدو كعماليق سوداء تنتصب أمام سماء الليل التى لاحت من خلف تلك المبانى وقد كساها لون ذهبى ضارب إلى الحمرة.

وكان «ديفيد» يعرف ما يريد بالضبط فأنجز المهمة بسرعة بالغة، إذ جعلنى أتكئ على إفريز الشرفة، بحيث يكون منظر الغروب خلفى تمامًا ثم التقط الصورة التى كان من المقدر أن تجعلنى مشهورة.. صورتى وقد تسربلت بالأسود من قمة رأسى إلى قدمى، وقد بدا حضور جسدى المتشح بالسواد قويا بينما كنت أطل على المدينة السابحة فى الشفق.. وشمس المغيب تموت.

إنها الصورة التى تقفز إلى أذهان الناس حين يسمعون كلمة «قرسون». -

وعدت فى الوقت المناسب فتوجهت إلى متجر عمتى «صفية».. كنت مرهقة جدا لكننى كنت أشعر بالارتياح وأنا أؤدى عملى فى مكان مألوف وكانت عمتى «صفية» تعاملنى بطيبة شديدة تفوق طيبتها المألوفة المعهودة

الدائمة حتى . كانت طيبة غريبة بدا لى أنها تنطوى على شىء من التوتر. أعتقد أنها كانت مرتبكة بسبب أنباء رحلتنا إلى الصومال، لكنها لم تطرح أى أسئلة على أى حال، بل أعدت لى كوبًا من الشاى وأعطتنى بعض البسكويت لآكله أثناء قيامى بالتنظيف، وحين انتهيت من أداء عملى رافقتنى إلى الباب ثم قالت لى ولعابدى الذى كان ينتظرنى كالمعتاد: «إذن فأنتما ذاهبان إلى الصومال فى خلال أربعة عشر يومًا؟»

فقال «عابدى» وقد لمعت عيناه لمعانًا ضاريا: «بل عشرة».

–ستسافران إلى دبى ومنها إلى هارجيسا؟

فهز «عابدى» رأسه نفيا، وقال: «لا لن نسلك هذا الطريق، بل سنطير مباشرة إلى جالكايو».

ولم أكن قد سمعت بهذه الخطة من قبل، وقفز قلبى بين ضلوعى حين خطر لى أننا سنقترب من الأماكن التى تهيم فيها عائلتى، لكن عمتى «صفية» عبست وقالت: «ليس هذا ما قاله لى «سليمان» فهل غير رأيه أم أنكما لم تفهما ما قال جيدًا؟»

فتردد «عابدى» قليلا ثم قال وهو يومئ ببطء: «نعم نعم.. لابد أننى أسأت الفهم».

لكننى كنت أعرف أنه يكذب.

وكذلك عمتى «صفية» كانت تعرف لكنها لم تقل شيئًا.

وظلت واقفة فى مكانها تراقبنا بينما كنا نغادر.

فيريا

لماذا لم أحضر جلسة التصوير «التاريخية» تلك؟

لأننى كنت مع «مرى»، فقد اتصلت بى فجأة بينما كنت أتسكع أنا و«روبى » و«بن» أمام واجهات المحال التجارية. كنت أنا و«روبى » نحاول تنظيم حياة «بن» العاطفية كالمعتاد، لكن كانت أفكارنا مختلفة هذه المرة (بالتأكيد لا علاقة لهذا بموضوع «مرى» لكننى أردت أن أوضح فقط أننى لست فاشلة بل لى أصدقاء كثيرون يحبوننى، خاصة روبى وبن)

كانت «روبى » تقول لبن: «قل لها إنها ينبغى أن تتفهم شعورك.. قل لها يا بن».

وحين رن هاتفى قمت بالرد، لكننى ظللت فى نفس الوقت أصغى إلى «روبى» كما يحدث أحيانـًا؛ لذا فقد مرت برهة قبل أن أستوعب ما كانت «مرى» تقوله كل الاستيعاب.

سمعتها تقول: «حبيبتى .. أنا آسفة جدا لأننى حولت حفل عيد ميلادك إلى دراما بهذه الطريقة. هل يمكننى أن أعوضك عما فعلت هذا المساء؟»

فقلت وقد شرد ذهنى: «لا داعى لذلك حقـا يا «مرى» صدقينى».

يكفى أننى سمعت صوتك واطمأننت عليكِ وعرفت أنك لم تدوسى على لغم أرضى فعلا..

بالطبع لم أقل ذلك الجزء الأخير بصوتٍ عالٍ .. لم يكن عقلى مشوشًا إلى ذلك الحد.

وأجابت «مرى» بصوت حاد: «لا تقلقى .. لن أتسبب لكِ فى أى حرج، بل لدى فكرة لذيذة».

كان ينبغى علىّ أن أنصت لكننى فى تلك اللحظة بالذات سمعت «روبى» تهمس لبن ثانية وتقول: «انظر..ها هى ..الحق بها وأخبرها أنك لا زلت تحبها قبل أن تفقد شجاعتك ثانية ».

لا لا.. هذه نصيحة فظيعة! لذا كان علىّ أن أنسى الهاتف والمكالمة لأمنع «بن» من إيذاء نفسه ثانية ، وهكذا حين قالت «مرى»: «هل آتى لآخذك من منزل والدك خلال نصف ساعة؟» غمغمت قائلة: «نعم شكرًا سيكون هذا رائعًا» دون أن أستوعب ما قالته قبل ذلك السؤال. ثم قبضت على ذراع «بن» فى اللحظة الأخيرة فى ذلك الجزء من الثانية الذى كان يفصله عن الكارثة المؤلمة.

وقالت «مرى» قبل إنهاء المكالمة: «ارتدى شيئًا جميلا».

لم أستوعب ما قالت تمامًا إلا بعد حوالى خمس دقائق. عندئذ فقط أدركت ما فعلته، وأردت أن أعاود الاتصال بها لأخبرها أننى لن أستطيع فعل ما طلبته، لكننى كنت أخشى أن أضايقها وأحبطها.

• وقلت لروبى وبن: «علىّ أن أغادر.. لا ترتكبا شيئًا سخيفًا فى غيابى .. اتفقنا؟»

ولابد أننى كنت صارمة جدا وأنا أقولها فقد سمعتهما يضحكان وأنا أغادر.

كان هذا قبل جلسة التصوير الشهيرة بالفعل.. قبلها بكثير. وحين فتحت باب الشقة بمفتاحى ودخلت اكتشفت أن أبى قد ذهب إلى ورشة «ساندى» ليجمع معها الملابس التى ستستخدمها فى جلسة التصوير وأننى وحدى.

ووقفت أنظر إلى ملابسى المعلقة فى خزانة الملابس وأفكر وأقول فى نفسى ما هذا الذى فعلت؟ وأى ثوب يمكن أن تعتبره «مرى» جميلا؟

وبعد تفكير ارتديت ثوب عيد ميلادى، فهو الزى الوحيد الذى قد يكون مناسبًا. وما كدت أرتديه وأصفف شعرى سريعًا حتى اتصلت بى «مرى» لتخبرنى أنها تنتظرنى فى سيارتها فى الخارج، فقلت لها إننى فى الطريق إليها ثم ألقيت الهاتف فى حقيبتى وأسرعت أغادر الشقة.

كنا قد ابتعدنا كثيرًا حين تذكرت أننى لم أترك رسالة لأبى . كان ينبغى أن أبلغه بما حدث ولكن «مرى» ظلت تثرثر وتتحدث عن الشاى والكيك والحلويات الخفيفة الرائعة التى طلبتها خصيصًا. وفجأة أدركت أنها تأخذنى إلى «بنسون» فحمدت الله على أننى قد اخترت ثوب عيد الميلاد!

كانت تقول: «لقد نظمت حفلة صغيرة لن يحضرها سوى أناس تعرفينهم فلا داعى للقلق».

فأخذت أدعو الله ألا يكون ضيوف الحفلة من عارضات الأزياء.

لكنهن كن عارضات أزياء بالطبع..هل يمكن أن تعرف «مرى» فتيات فى مثل سنى إلا إذا كن من عارضات الأزياء؟ ما إن وصلنا إلى بهو الفندق حتى وقعت عيناى عليهن.. «سيوبهان» و«لورى-لى » و«مولى باركر» و «ناديا ك».، وست أخريات. كن جالسات على الأرائك المريحة الضخمة يثرثرن وكأنهن سرب من الطيور طويلة السيقان حط فى بهو الفندق. طيور الكركى أو الفلامنجو ربما.

وحين رأيننى نهضن من فورهن وأخذن يغنين بأعلى أصواتهن «عيد ميلاد سعيد يا فيريا»، وهمست لى «مرى» قائلةً: «لست مسئولة عن هذا، لكن ينبغى أن تشكريهن وتعبرى عن سعادتك بلطفهن».

ولم تكن تلك نهاية اللطف بل كن جميعًا قد أحضرن هدايا لى .. حقائب وإيشاربات وأساور أصغر من أن تناسب حجم معصمى .. ربما لم يشترينها بل حصلن عليها من مكانٍ ما، لكنها تظل أشياء مما قد تفعل معظم الفتيات أى شىء لاقتنائها، بل إن « سيوبهان» قد عثرت لى على حذاء ماركة «فيفيان وستوود» كان على مقاسى تقريبًا.

وأخذت أخرج الهدايا، الواحدة تلو الأخرى، من الأكياس الورقية وأنا أصيح: «آه.. أوه» عند رؤيتى لكل منها، وحشرت قدمى فى الحذاء ثم رفعت الثوب فكشفت عن كاحلىّ، وكأنهما منظر جميل يستحق أن يرى!وكانت الفتيات يصحن بأصواتهن الحادة كلما أخرجت شيئًا جديدًا، ويتناولن الإيشاربات فيربطنها لى فى حزامى ويتجادلن حول أى حقيبة تناسب الثوب أكثر.

وظلت «مرى» طول الوقت تلعب دور الأم الروحية الطيبة، إذ طلبت الشاى والتوست الساخن والأطايب المثلجة والفطيرات الخفيفة التى وعدتنى بها. وأقبلت العارضات–ماعدا المصابات بمرض كراهية الأكل منهن– على الطعام بشراهة، وحين اختفت كل الأطعمة والمقبلات ظهرت كعكة عيد الميلاد. لم تكن شيئًا مبالغًا فيه، بل كانت كعكة خفيفة تزينها أزهار البنفسج الكريستالية حول حافتها، وتتوسطها شمعة فضية.

وانحنيت لأطفئ الشمعة، وعندئذ قالت «سيوبهان»:حدثينا عن «قرسون».. من هى؟

ونفخت الشمعة لكنها لم تنطفئ. إذن فهذا هو السر وراء كل ذلك الكرم واللطف؟

وقلت: «لا يمكننى أن أخبركن فالأمر سر».

فقالت «مولى» بلهجة ظافرة: «إذن فأنتِ تعرفين بالفعل من هى! «مرى» تقول إنكِ كنتِ مع «ساندى» حين اكتشفتها».

فقلت وأنا أحاول أن أتظاهر باللامبالاة قدر الإمكان: «تقصدين تلك الفتاة؟»، ثم تناولت سكينًا وقطعت شريحة من الكعكة وقلت: «لماذا تعتقدين أن تلك الفتاة هى «قرسون»؟ لقد قالت «ساندى» إنها لا تصلح بعد أن رأتها تسير.. أليس كذلك يا مرى؟»

فقوست «مرى» حاجبيها وقالت: «إذن لماذا ركبتم جميعًا السيارة فى ذلك اليوم؟»

ليس أمرًا ممتعًا على الإطلاق أن تكتشف الفتاة أن أمها الروحية -تلك الساحرة الطيبة- ليست سوى ساحرة شريرة.

وقطعت قطعة كبيرة من الكعكة ثم وضعتها فى طبقها وقلت برقة: «ألم تسمعى عن التمويه؟» فضحكت الفتيات مما قلت.

وأومأت «مرى» وكأنها تثنى على حسن تصرف «ساندى» لكننى كنت أعلم أنها لم تصدق، فتناولت إحدى الفطيرات وقضمت قضمة كبيرة حتى امتلأ فمى تمامًا، بحيث أجد فرصة للتفكير فى الإجابات إذا كن ينوين استجوابى.

لكنهن لم يسألن أية أسئلة أخرى، بل نظرت «مرى» إلى نقطةٍ ما ورائى وقالت: «طونى! لقد تمكنت من المجىء!»

ومن خلفى سمعت صوتًا مألوفًا لزجًا يقول: «مرى حبيبتى! ومنذ متى وأنا أخذلك؟ ألا تعرفين أنكِ المفضلة لدى؟»

كان المتحدث «طونى مورلن» المصور الفوتوغرافى الأكثر إزعاجًا وتملقًا ومداهنة ونفاقًا فى العالم كله. كان «طونى» أصلا مصور أزياء، لكنه لم يكن يتورع عن بيع صور النجوم لصحف الإثارة إذا ما كان المقابل مجزيًا. كان كل ما فيه كريهًا بغيضًا عدا الصور التى يلتقطها. وكان بين الفتيات الحاضرات اثنتان على الأقل تدينان بانطلاقتهما فى عالم الأزياء لصورة التقطها لهما «طونى مورلن».

لا مفر.. تجمعت الفتيات حولى وأحطن بى حتى كدت أختنق، وضيق «طونى» عينيه ونظر إلى الضوء ثم بدأ يتقافز ويتبختر حولنا، ويجلس القرفصاء أمامنا تارة، ثم يقفز فوق الأريكة تارة أخرى وكان يغمغم: «المهم هو الزاوية.. علىّ أن أجد الزاوية المناسبة، وربما احتجنا إلى بعض التعديلات البسيطة».

ثم انطلق كالسهم نحوى وأمسك بفتحة ثوبى وأزاح طرفها قليلاً ثم قال: «هذا أفضل.. والآن فلتنظرن جميعًا إلى اليسار، وفكرن فى كعكة الشوكولاتة».

عندئذ ارتسمت على جميع الوجوه المحيطة بى نظرة لهفة وتوق ويأس . وكان «طونى» يسوى الصف تمهيدًا لالتقاط الصورة حين دق جرس هاتفى المحمول.

وجاهدت لأصل إلى جيبى وسط هذا الزحام، وبينما كنت أجيب الهاتف أشاحت جميع الفتيات بوجوههن عنى إلا أننى كنت أعرف أن الجميع يصيخون السمع آملين أن تكون «ساندى» المتصلة.. لعلها تقول شيئًا يقود إلى حل اللغز..لغز «قرسون».

لكن حظهن لم يكن مواتيا فقد كان المتصل أبى..

وسمعته يقول: «أين أنتِ؟ لقد ظننت..».

فقاطعته بسرعة قبل أن يقول أى شىء من شأنه أن يفضح سرنا: «أهلا يا أبى .. أنا فى بنسون».

– فى ماذا؟

ووجدت أن من الضرورى أن أعمل عقلى بسرعة فتظاهرت بالحماس وقلت بصوت أبله، على أمل أن يفهم أبى الأمر: «لقد أعدت لى «مرى» حفلة شاى رائعة، حضرتها «سيوبهان» و«لورى-لى» والجميع. وجاء «طونى مورلز» ليلتقط صورة لى!»

وفهم أبى فى الحال فصاح قائلا على الفور: «هل نسيتِ أنه ينبغى أن تكونى فى المنزل؟ أريدك هنا خلال عشرين دقيقة!»

ثم أنهى المكالمة فى الحال، وأعدت الهاتف إلى الحقيبة وأنا أحاول أن أبدو محرجَة وقلت: «أنا آسفة... أنا مضطرة إلى المغادرة الآن»

لكن «مرى» لم تكن لتستسلم بسهولة، فقالت برقة: «لا تقلقى يا حبيبتى.. سوف يوصلك «طونى» بسيارته إلى المنزل.. أليس كذلك يا طونى؟ لن يستغرق الأمر سوى خمس عشرة دقيقة إذا أحضروا سيارته إلى هنا».

ثم أومأت إلى نادل كى يتدبر أمر إحضار السيارة، وصفقت بيديها وقالت: «لا يزال هناك وقت للصورة إذا أسرعنا.. هيا.. كعكة الشوكولاتة يا فتيات».

فأدارت جميع الفتيات رءوسهن جهة اليسار فى استسلام ورسمن على وجوههن تعبير الاشتياق اليائس مرة ثانية، أما أنا فقد حدقت فى العدسة ببرود حتى انتهى «طونى» من التقاط الصورة فقفزت كى أجمع الهدايا وأنا أنثر الابتسامات وعبارات الشكر فى كل مكان.

كانت «لورى-لى» قد أهدتنى حقيبة ضخمة قوية فقمت بحشر كل شىء فيها، ثم بدأت أقبلهن قبلات الوداع وأنا أتراجع فى نفس الوقت لأغادر المكان، وحين وصلت إلى باب البهو كنت أكاد أجرى حتى إن البواب لم يكد يجد فرصة ليفتح البوابة الزجاجية الكبيرة.

وطوال طريقنا إلى المنزل ظل «طونى» يحاول أن يجعلنى أقول أى شىء عن «قرسون» فلم يعد عندى أى شك فى أن معرفة السر كان الهدف الوحيد وراء هذه الحفلة المفاجئة. كانت «مرى» تتحرق لمعرفة هوية الفتاة التى ستكون وراء النقاب، لذا أحاطتنى بأناس كان من المستحيل ألا يسألوا عن الأمر، على أمل أن يزل لسانى .

مممم.. لكننى سأخيب أملها. وهكذا جلست إلى جوار «طونى» فى السيارة وقد أغلقت فمى وحاولت أن أصم أذنى عن صوت «طونى» المتزلف الذى ظل يقول: «فيريا يا حبيبتى .. لا أريد سوى تلميح بسيط..تلميح بسيط فقط لجعل الأمر أكثر إثارة.. كلمة.. كلمة واحدة».

وكنت مصممة على ألا ينال مأربه أبدًا، وقد كدت أنجح فى ذلك إذ ظللت يقظة حذرة حتى وصلنا إلى مدخل مسكن أبى، وبينما «طونى» يضغط مكابح السيارة ليوقفها إذ انفتح الباب الزجاجى وخرج ثلاثة أشخاص: امرأة.. وصبى .. وشبح طويل متشح بالسواد.

وقال «طونى» بحدة: «هل هذه هى؟»

فقلت: «لا !»

لكننى لم أكن سريعة بما فيه الكفاية، وكان ارتفاع صوتى الشديد مدعاة لعدم تصديقه إياى. نظر «طونى» إلى وجهى ثم تناول كاميرته، وقفزنا نحن -الاثنين- من السيارة فى نفس اللحظة، وصحت: «لا.. لا تدعيه يراكِ!»

أما «طونى» فقد التقط الصورة قبل أن تلمس قدماه الرصيف.

كان «عابدى» أول من سمع صيحتى وتصرف بسرعة، إذ غمغم قائلا شيئًا للمرأة فأخفى الاثنان وجهيهما بأيديهما وأمسكا بخديجة، ثم أسرعا يجريان و«طونى» يجرى خلفهما كما يفعل مصورو الباباراتسى.

لم يستمر الأمر سوى بضع ثوانٍ، ثم استقلوا سيارتهم وانطلقوا بينما كان «طونى» عائدًا إلىّ وهو يتصفح الصور التى التقطها ليرى إن كان من بينها ما يصلح للاستغلال.

وظهرت الصورة المنشودة فى صحف الصباح.. كانت صورة ذات طابع درامى مؤثر .. لشبح طويل أسود تنعكس صورته على الخلفية الزجاجية التى وقف ملتصقًا بها.. «قرسون» الغامضة.. الوجه الذى يريد الجميع رؤيته.

وكانت «ساندى» فى قمة السعادة إذ حضرت إلى شقة أبى فى الصباح وهى تلوح بالصحيفة وقد أشرق وجهها بابتسامة عريضة وقالت: «أنتِ بارعة جدا يا «فيريا»! كيف استطعتِ ترتيب الأمر على هذا النحو؟»

فقلت: «إنها مجرد صدفة».

فاحتضنتنى «ساندى» وقالت: «لكن لم تكن لتحدث بدونك.. إن التوقيت رائع.. هذه هى نوعية الأشياء التى تعشقها الصحافة ووسائل الإعلام. أمامنا أسبوعان قبل العرض لتنتشر القصة وتكبر بعد ما حدث بالأمس».

وأفسح أبى لها مكانـًا على مائدتنا وقال: «هل ترغبين فى شىء من التوست؟» لكنها لوحت بيدها وكأنها تقول إن الطعام ليس أمرًا ذا بال، ثم قالت: «لا أرغب إلا فى صورة.. هل لى أن آخذها الآن؟ أعتقد أنه من الأفضل أن آخذ تلك الصورة التى التقطتها لها فى الشرفة وهى بالملابس السوداء فهى تربطها بالصورة التى التقطها لها «طونى». يمكننا تسريبها للصحافة خلال يومين كى نعطى الأمور بعض الإثارة، ثم سأجعل «كارميل» تسرب تفاصيل رحلتنا أيضـًا وتقول إن «قرسون» ستسافر على نفس الطائرة لكن ليس معنا».

وقال أبى وقد تجاهل رفضها للطعام وأخذ يجهز لها التوست: «احذرى فإن اللعب مع الصحافة بهذه الطريقة خطر».

– ليس هذه المرة.. سيكون الأمر مثاليا هذه المرة ولن يجرؤ أحد –أى أحد– على محاولة العبث بالعرض، حتى ولو كانت الأزياء فى قارة أخرى!

لا أعتقد أننى رأيتها فى حياتى كلها بهذه السعادة.

وأعتقد أن «طونى مورلن» كان سعيدًا هو الآخر، فبعد يومين أرسل لى نسخة بالحجم الكبير من الصورة التى التقطها لى مع الفتيات فى الفندق وقد كتب على ظهرها: «لقطتان رائعتان فى يوم واحد. شكرًا لك يا «فيريا» (قبلات من «طونى مورلن».. يا للقرف!)

كانت صورة قبيحة وكنت أبدو فيها وكأننى مسخ وقد أحاطت بى كل هؤلاء العارضات بوجوههن النحيلة الجميلة وأخذن ينظرن إلى اليسار بينما أنا بينهن أبدو غريبة بثيابى المحافظة ومظهرى المتحفظ وقد حدقت بعناد فى العدسة مباشرة .

وبلغ تقززى من الصورة أقصى حد وهممت بتمزيقها لكن فى تلك اللحظة جاء أبى ونظر إلى الصورة من خلفى وقال: «كيف يمكن لرجل بغيض مقيت مثل «طونى مورلن» أن يلتقط مثل تلك الصور الرائعة؟»

فقطبت وقلت: «وأين الروعة فى هذه الصورة؟ لقد جعلنى أبدو حمقاء!»

فقال أبى: «لا .. ليس حقيقيا..لقد جعلكِ تبدين كما أنتِ فعلا.. عنيدة مستقلة.. وكذلك جميلة جدا».

ثم طبع قبلة على طرف أنفى، ولوهلة شعرت وكأنه لا شىء البتة قد تغير فى علاقتنا.

ووضعت الصورة على المنضدة وقلت: «يمكنك الاحتفاظ بها..بشرط أن تأخذنى معك إلى الصومال».»

-«فيريا»! لقد سبق أن ناقشنا تلك المسألة .. الوضع خطير فى الصومال وسيكون اصطحابك مخاطرة كبيرة.

-الحقيقة أنك لا تريدنى أن أكون معكما هناك.

- لا..ليس..

–بلى .. تلك هى الحقيقة.

قلتها بعنف، ثم أكملت:

– أنت تريد أن تركز كل اهتمامك على حماية «ساندى» ووجودى سيشتت انتباهك.. حسنًا.. ماذا إذن لو حدث شيء لكما؟ ماذا لو لقيتما حتفكما؟ هل تعتقد أننى سأكون مسرورة حينئذ وحدى هنا؟

فقال: «ها قد بدأت تحولين الأمر إلى ميلودراما».

لكننى كنت أعلم أنه يحاول قلب الآية علىّ وحسب وأنه فى الحقيقة يدرك جيدًا ما أشعر به.. أليس ما أشعر به هو نفس ما جعله يصر على مرافقة «ساندى»؟

ولم تكن لدىّ نية للتراجع، ولا هو أيضـًا .. كنا نحدق ببعضنا البعض بنظرات نارية وكان من الواضح أنه –مثلى– يحاول جاهدًا ألا يقول أشياء لا يمكن غفرانها حين ينتهى الأمر. نعم.. لم تكن المسألة مجرد رحلة إلى الصومال.

وكان النقاش يوشك أن يتحول إلى معركة حقيقية حين أدركت فجأة الطريقة التى يمكننى بها تحقيق ما أريد!

اكتشفت أننى كنت أهدر وقتى فى محاولة إقناع أبى فى حين يمكننى ببساطة أن أجعل «ساندى» تأخذنى معها، فقط إذا ما وجدت فى نفسى القدرة على القسوة.

وهززت كتفى بلامبالاة وقلت: «كما تشاء».

ثم دفعت الصورة نحوه فوق المنضدة وقلت: «فلتبعد هذه الصورة البشعة من أمامى وحسب».

وشعرت أنه يوشك أن يحتضننى لذا أسرعت بالابتعاد قبل أن تسنح له الفرصة، وبمجرد أن احتوتنى غرفتى شرعت أرسل رسالة من هاتفى المحمول إلى «ساندى» قلت فيها: «خذينى إلى الصومال وإلا أفشيت سر «قرسون» لطونى مورلز.. وأنا لا أمزح».

كانت يداى ترتعشان وأنا أرسل الرسالة. كنت أعلم أن خطتى ستنجح وأن أبى وأمى لن يطيرا إلى دبى وحدهما، وأننى سأذهب معهما إلى الصومال.

ولم أستطع التفكير فى أى شىء سوى هذا.

كانت غرفة «محمود» الجديدة جيدة الإضاءة والتهوية، وكانت على أرضيتها مرتبة لينام عليها، فوقها بطانية جديدة ناعمة. ولم يكن يعانى الوحدة إلا نادرًا إذ كان «سانيارى» يمكث معه أغلب الوقت ويقص عليه القصص ويتلو عليه القصائد ويغنى له كى لا يشعر بالملل. وكانا يتناولان الطعام معًا ويصليان معًا. وكان «محمود» يضحك كثيرًا من النكات التى كان «سانيارى» يقولها له.

بل كان أحيانًا يخترع له النكات. ذات مرة دخل عليهما «رشيد» بالطعام فبادره «محمود» قائلا: «فى أى يوم نحن؟ هل هو يوم يخنة لحم الماعز ولبن الإبل؟»

فضحك «سانيارى» ثم مال نحو «محمود» وربت رأسه فشعث له شعره كما يفعل الأب مع ابنه، وابتسم «رشيد» وهو يمد يده نحوه بطبق فيه

عصيدة ذرة، وقال «محمود»: «بل أفضل من يخنة الماعز. فطعام اليوم من أفضل مطاعم إيل.. مطعم ماكاياد رشيد!»

فقال «سانيارى» وهو يتظاهر بالجدية وقد قطب جبينه: «لا أحد يطهو مثل «رشيد».. طعامه لا مثيل له، وكذلك الشاى الذى يعده. مذاقه لا يعلى عليه».

وظل الاثنان يسخران من «رشيد» حتى تظاهر ذلك الأخير بأنه يفقد أعصابه ودق الأرض بقدمه وغادر الغرفة، ثم جلس «محمود» و«سانيارى» متجاورين وأخذا يتحدثان ويأكلان.

لم يكن من الصعب أن يجد «محمود» فى «سانيارى» صديقًا. لكن الصديق لا يحمل مسدسًا وهو يحدثك، وحين يضطر لمغادرة الغرفة فهو لا يغلقها بالقفل خلفه. لم يكن لكل تلك النكات والقصائد أن تغير من الأمر شيئًا، كما لم تكن لتعمى «محمود» عن الحقيقة.

كان يعلم أن وجوده فى ذلك المكان ليس سوى جزء من خطة، وأنه حين يحين الوقت المناسب فإن «سانيارى» والآخرين سوف يستخدمونه سلعة للمقايضة، دون أى مراعاة لشعوره، سيعاملونه كشىء.. شىء لا يختلف عن السكين أو البندقية.. شىء يجب استغلاله لتحقيق غرضٍ ما.

ولم يكن بوسعه إلا الانتظار والتمهل وتحين الفرصة..أى فرصة قد تسنح للهرب.

عابدى

•

قال لى «سليمان»: «إذا اجتهدت فى أداء المهام التى أكلفك بها فأعدك أن تذهب معنا إلى الصومال».. كان ذلك اتفاقنا، وقد حرص «سليمان» كل الحرص على ألا أتقاعس ولو لثانية عن تنفيذ جانبى من الاتفاق، فلم يسبق لى فى حياتى كلها أن انكببت على جهاز كمبيوتر كما انكببت عليه طوال هذين الأسبوعين السابقين لسفرنا. كانت الترتيبات اللازمة لا تنتهى بينما كان الوقت المتاح قصيرًا جدا.

لكننى لم أتضايق، بل كنت أقول فى نفسى- فى كل مرة أرسل فيها رسالة من الكمبيوتر إلى الصومال بناءً على أوامره- «لم يبق إلا أسبوعان.. أسبوعان فقط وأرى الصومال بعينى».

وكنت لا أكاد أصدق هذا.

وقد ظللت طوال الإجازة أقضى أغلب أوقاتى فى منزل «سليمان» وأتابع وأدون الملحوظات بينما كان يجرى سيلا لا ينقطع من المكالمات. وحتى حين بدأ الفصل الدراسى ظللت أقضى الساعات الطويلة فى منزله أنسخ أوراقًا وأكتب قوائم بالمهام للجميع.

كان من المقرر أن نسافر فى مجموعتين بحيث أسافر أنا فى الدفعة الأولى مع «سليمان» و«أمينة» و«خديجة» على أن نهبط فى دبى ونستقل الطائرة إلى «جالكايو» مباشرةً ومن هناك يتصل «سليمان» بكل من سيساعدنا في مسألة الإعداد للعرض، ويقابلنا السائقون والحرس هناك، أما الآخرون جميعًا بما فى ذلك متخصصو الماكياج والفتيات اللواتى سيساعدن الفتيات فى ارتداء الثياب والنجارون وفنيو الكمبيوتر فسيكونون فى انتظارنا فى قرية بالقرب من إيل.

كان «سليمان» منهمكًا فى إتمام صفقة استئجار معدات البث الحى المباشر التى كلفتنا كثيرًا، وكان سيتولى مسئولية نقلها إلى دبى ثم استلامها عند وصولها إلى مطار «جالكايو» مما يعنى المزيد والمزيد من المكالمات الهاتفية.

أما «ساندى» ومجموعتها فلم يكونوا ليبدءوا رحلتهم إلا بعد انطلاقنا بيومين. كانوا سيطيرون مثلنا إلى دبى، حيث يتولى «سليمان» مسئوليتهم بمجرد وصولهم إلى هناك. كان الهدف من ذلك التنسيق هو ضبط توقيت البدء، إذ كان من المقرر أن تهبط «ساندى» فى الصومال فتسافر من فورها إلى القرية حيث الفنانون والفنيون.. بحيث لا يستغرق الإعداد للعرض أكثر من ثلاثة أيام.

وعجز عقلى عن استيعاب الصورة كاملة فاكتفيت بالوجود فى منزل «سليمان» وإنجاز الأعمال الكتابية والإصغاء إليه وهو يتحدث إلى أقاربه وأصدقائه وأصدقاء أصدقاء أقربائه، ويجادلهم ويداهنهم ويساومهم. كان حديثه جادا وكأنه شخصية فى فيلم من أفلام الحركة، لكنه لم يكن يمثل

بل كان الأمر حقيقيا جدا. كنا بالفعل نوشك على اقتحام ذلك العالم الغريب وكان «سليمان» هو حلقة الوصل.

وفى الليلة التى سبقت سفرنا كنت فى منزل «سليمان» أحجز تذاكر سفرنا من على الإنترنت، وحين انتهيت نهضت لأغادر لكنه أمسك بيدى واستبقانى قائلا: «انتظر دقيقة»، ثم أنهى مكالمة هاتفية على عجل وأدار مقعده ليواجهنى وقال: «إذن سنسافر غدًا.. أخيرًا.. فهل أنت قلق؟»

فقلت بسرعة: «أنا بخير».

فابتسم لى ابتسامة ساخرة وقال: «كيف يعقل أن تكون بخير وقد قضيت حياتك كلها تسمع أشياء فظيعة مخيفة عن الصومال وعن تجار الحروب والقراصنة والدولة المنهارة التى لا سلطة للقانون فيها؟ إن الأخبار التى تصلنا هى الأسوأ على الإطلاق، ولو لم تتأثر بها لما كنت بشرًا».

فتحاشيت النظر إلى عينيه كى لا يدرك أن ما يقوله صحيح، فضحك ولكمنى فى كتفى برفق ثم قال: «من الطبيعى أن تخاف، لكن لا تدعهم يخوفونك، ففى خلال يومين سترى الحقيقة بنفسك. والحقيقة هى أن بلادنا جميلة.. مليئة بالمساحات الشاسعة المفتوحة وضوء الشمس.. وهى زاخرة بآيات الشجاعة والإقدام.. هل تعرف الأغنية؟»

فهززت رأسى أن لا. عندئذ أغمض «سليمان» عينيه وشرع ينشد بصوت رقيق:

روحُ بلادنا

هى هؤلاء الصبية الذين يرعون الإبلْ

من دون أن يكترثوا بالجوع.

روحُ بلادنا

هى أرضنا الحمراءُ حيث أنام

بلا وسادة أو مرتبةْ

روح بلادنا خيامُ البدوِ والدروع

تلك التى تلمع إذ يحملها المحاربون

فيا إلٰهنا الظافر

احفظ لنا قوتنا

وحريتنا.

وكنت أعلم أن الصور تتداعى إلى ذهن «سليمان» وهو ينشد، وقلت فى نفسى: «قريبًا أرى تلك الصور بعينى.. قريبًا سأكون هناك».

ثم فتح عينيه وابتسم لى وقال: «إن الصومال رائعة يا «عابدى»... إنها بلادنا.. حيث ننتمى».

وأثارت كلماته فى نفسى ذكرى عزيزة مؤلمة، فقلت: «هذا ما اعتاد أبى قوله».

فأومأ برأسه وقال: «نعم.. هكذا كان «أحمد» يتكلم..أحمد مثل نبات لا يمكن اقتلاع جذوره من أرضها».

ثم عاد إلى إجراء المكالمات وتركنى أغادر.

وأغلقت الباب خلفى بهدوء وأنا أفكر فى أبى. لقد تحدث «سليمان» عنه وكأنه لا يزال حيا رغم مرور كل تلك السنوات على وفاته. كيف يعقل أصلا أن يموت أبى؟ كيف يعقل أن تتبدد كل تلك الحيوية التى كان يفيض بها؟ تلك الحياة التى كان وجوده يبعثها حيث يكون؟ وأخذت أتخيله وقد انبثقت شجرة خضراء وارفة من جسده فنشرت ظلالها بردًا وسلامًا على رمال الصحراء.

هل كان هذا ما قصده «سليمان» حين قال إن جذوره ضاربة فى أرض الصومال؟

وبدأنا الاستعداد للرحيل فى الصباح الباكر، ورغم أن الشمس لم تكن قد ملأت الدنيا بأنوارها بعد فإن أمى وأخواتى نزلن معنا ووقفن يشاهدننا ونحن نضع حقائبنا فى سيارة «سليمان»، كما نزل الكثير من جيراننا كى يُحملونا رسائل لتوصيلها إلى أهلهم وذويهم فى الصومال، بل إن صديقى «لبيان» نفسه كان قد أفاق من نومه بما يكفى ليرسل لى رسالة نصية قال لى فيها: «استمتع بالعودة إلى الجذور يا أخى».

كان الجيران جميعًا يبتسمون ويتحدثون، وكانت «فوزية» و«مريم» و«زهرة» يتقافزن من فرط الإثارة. أمى وحدها هى التى ظلت هادئة متماسكة حتى اللحظة الأخيرة، لكن ما إن أدار «سليمان» محرك السيارة استعدادًا للانطلاق حتى هجمت على النافذة المجاورة لى وأخذت تطرق عليها كى أفتحها، ثم قالت بعنف: «تذكر من أنت.. وعد سالمًا».

ثم مدت يدها وربتت على يدى، ثم انتصبت ثانية، وقد زمت شفتيها بقوة كأنما لتحبس دموعها.

كان هذا كل شىء، وغادرنا.

كانت رحلتنا كحلم أسرع من أن يدركه المرء قبل فواته. كنت أظن أنها ستكون مملة مليئة بالمتاعب لكن مع «سليمان» كانت كل المتاعب والصعوبات تصير وكأنها لم تكن. وصلت الطائرة فى ميعادها بالضبط، ولم نكد نتناول طعامنا ونشاهد بعض الأفلام حتى كانت الطائرة تهبط فى دبى.

وتأخرت الطائرة التى كانت ستقلنا إلى مطار «جالكايو» لكن من ذا الذى قد يصيبه الملل فى مطار دبى؟ ظللت أتجول فى أرجاء المطار وأتأمل المعروضات الباهظة الأثمان وأختار الملابس التى كنت لأختارها لو أننى كنت أملك المال الكافى. وبينما كنت أتأمل مجموعة من النظارات الشمسية جاء «سليمان» واشترى لى أجملها وهو يقول: «ينبغى أن يكون مظهرك مناسبًا مادمت تسافر معى».

بالطبع كان يمزح، لكن مزاحه كان من النوع الذى يجعل المرء يفخر بنفسه.

وفى رحلتنا إلى الصومال جعل «سليمان» «خديجة» و«أمينة» تجلسان معًا حتى أجلس أنا إلى جواره، بجانب النافذة. انطلقت الطائرة فى الصباح الباكر جدا، وكان الظلام مخيمًا على الأجواء أغلب الوقت فلم أستطع أن أرى الكثير، لكن حين أشرقت الشمس لمس «سليمان» ذراعى ثم مال على مقعدى ليشير من النافذة ويقول: «انظر!»

حين نظرت إلى الأسفل اكتشفت أننا نطير فوق الساحل الصومالى الذى بدا كخط رفيع يشق زرقة البحر الغالبة على المشهد. وحين بدأت الطائرة تهبط ألصقت وجهى بزجاج النافذة وأخذت أحدق فى المنحدرات والتلال والوديان التى كانت تلوح لعينى.

كانت تلك نظرتى الأولى إلى تلك الأرض.. حيث أنتمى.

خديجة

ما إن خرجت من الطائرة حتى شعرت أننى عدت إلى الوطن، إذ كانت الشمس ساطعة تضىء وجهى، وكان للهواء تلك الرائحة النظيفة المألوفة.. رائحة الصحراء، وحين لمست قدماى الأرض شعرت أننى أوشك على البكاء، فعندما كنت فى إنجلترا، حيث ضوء الشمس الرمادى البارد، والمطر الذى يتساقط دون انقطاع، كنت أتجنب التفكير فى مدى افتقادى للصومال، أما الآن فقد اندلعت كل مشاعرى التى طال كبتى لها وأنا أجتاز أرض المطار.

لكن الوطن ليس مكانًا وحسب، بل هو العائلة أيضًا، ولم يكن بانتظارى أى فرد من أفراد عائلتى. لم يكن إحضارهم لاستقبالى يتطلب أكثر من رسالة بريد إلكترونى واحدة، إلا أن «سليمان» منعنى من إخطارهم بقرب وصولى قائلا إن فى ذلك خطورة كبيرة.

وأضاف: «لا نعرف من قد يرى تلك الرسالة، ولا نريد المجازفة.. لا يمكننا المجازفة بتعريف الخاطفين بمكانك. فعندئذ قد يرون أنك أكثر قيمة من «محمود» فيختطفونك بدلا منه».

فقلت: «على الأقل سيكون «محمود» حرا».

بدا على وجه «سليمان» تعبير ساخر ثم قال: «هل تعتقدين أنهم سيدعونه يعيش؟ لا تكونى غبية يا «خديجة».. إذا أردتِ أن تنقذيه ينبغى أن يظل أمر هذه الزيارة سرا».

ولم أكن متأكدة مما يقصد، لكن كلماته الأولى ظلت ترن فى أذنى. «لا ندرى من قد يقرأ هذه الرسالة». إذا كان ثمة من رأى رسالتى إلى «محمود»، تلك التى أخبرته فيها بأمر «ساندى» معى، فإننى السبب فيما يعانى الآن.

لكن هل رأى أحد رسالتى؟ كيف يمكن هذا؟

كان «سليمان» محقا بشأن شىء واحد، وهو أننى لم أكن لأجازف وأسبب المزيد من المشاكل لمحمود. وهكذا ذهبت إلى الصومال باعتبارى «خديجة أحمد موسى» التى تزور البلاد مع شقيقها «عبد الرحمن أحمد موسى» واثنين من أصدقاء العائلة.

ولم يكن هناك ما يدعو للقلق من أن يتعرف علىّ أحد بالصدفة، فمنذ وطأنا أرض دبى أخفيت وجهى بالنقاب الأسود، وارتديت الثياب التى حولتنى إلى «قرسون». لم ير أحد وجهى وأنا أقف فى المطار مع «عابدى» و«أمينة»، أرمق «سليمان» وهو يدفع الجمارك. .

ثم التقط «سليمان» حقائبنا وشرع يبحث لنا عن سيارة أجرة تقلنا إلى «جالكايو». ولم أكن أريد أن أحبس فى مدينة. كنت أريد أن أجرى تحت السماء الممتدة بلا نهاية، أتنفس الهواء النظيف وأنعم بملمس الرمال الساخنة تحت قدمى، لكن لم يكن هذا ضمن خطة «سليمان». وهكذا انحشرنا

أنا و«عابدى» و«أمينة» فى المقعد الخلفى لسيارة قديمة بالية مغلقة النوافذ، ووضعنا أمتعتنا فوق سيقاننا، وكنت أتنفس بصعوبة شديدة بينما السيارة تغادر المطار وتنطلق إلى قلب المدينة.

وظل «عابدى» ينظر إلى الطريق من النافذة وقد ألصق وجهه بزجاجها. كان يصيح كلما رأى شيئًا، حتى ولو كان ذلك الشيء جملا أو قطيع أغنام ليس إلا، كما كان يصيح عند رؤية الصور المعلقة أمام المتاجر. وحين مررنا بمتجر ذخيرة كان متحمسًا جدا حتى إنه طلب من «سليمان» إيقاف السيارة.

لكننا لم نتوقف حتى وصلنا إلى وسط المدينة، وعندئذ أمر «سليمان» السائق بأن يوقف السيارة قرب الباب، ثم أشار لنا لندخل بسرعة قبل أن يتجمع الناس ليروا من القادم كالعادة.

كان بالمنزل امرأة منهمكة فى إعداد الشاى والفطائر. كانت عجوزًا بدينة بطيئة الحركة. وكانت تتحسس الأشياء أحيانًا وكأنها كليلة البصر. وحياها «سليمان» كما يحى المرء أقاربه، فهمست تجيبه مغمغمةً بصوت أوهن من أن نسمعه، ثم جلسنا جميعًا وشرعت تصب لنا الشاى.

وهمستُ لأمينة قائلةً: «ماذا يجرى؟ لماذا نحن هنا؟»

فهزت كتفيها ورأسها كأنها تخبرنى بأنها لا تعلم.

كان «عابدى» هو الذى لديه إجابات جميع الأسئلة، إذ قال: «علينا المكوث هنا حتى تصل ساندى»، ثم أضاف وقد تقمص دور الرجل المهم: «وعندئذ سنغادر هذه المدينة إلى القرية التى سيقام فيها عرض الأزياء. لقد رتب «سليمان» كل شىء».

فقلت: «وماذا عن «محمود»؟ علينا أن نبحث عنه بدلا من البقاء هنا والجلوس دون فعل أى شىء».

فقال «عابدى» بجدة: «إياكِ أن تحاولى تغيير خططنا الآن. إن «سليمان» يعرف جيدًا ما يفعله، فدعى الأمر له ولا تتدخلى».

وكدت أصيح فيه ردا على ما قال، إلا أن «أمينة» وضعت يدها على ذراعى وقالت بهدوء: «دعيهم يدبروا الأمر بطريقتهم فهذا أفضل».

ولم أفهم كيف تسمح للآخرين بتحريكها هكذا، فقد كانت امرأة ذكية. وقلت: «عابدى لا يعرف أى شىء فليس إلا صبيا. ولم يزر الصومال من قبل».

فقالت: «لكنه يعمل مع سليمان»، ثم صمتت، كما لو أن ما قالته قد حسم كل شىء.

وبقينا نزلاء ذلك المنزل الصغير المظلم لمدة يومين، وكان ثمة رجال يترددون على المنزل للحديث مع «سليمان» وكانت المرأة الصامتة تطهو للجميع فتعد الشاى والفطائر ويخنة الماعز. كان اسمها «حليمة»، لكن «سليمان» لم يخبرنا قط أبدًا من تكون أو لماذا تعيش وحدها، دون زوج أو أبناء.

وبالطبع عرضت «أمينة» أن تساعدها، لكنها لم يكن قد سبق لها أن قامت بالطبخ إلا على الموقد الإنجليزى، وحين حاولت أن أُعلمها الطهى على الطريقة الصومالية أمرنى «سليمان» ألا أتدخل، كما كان يصر على أن أخفى وجهى، حتى داخل البيت كان علىّ أن أخفى وجهى.

وكذلك منعنا «سليمان» من الخروج، وقد شقّ ذلك كثيرًا على «عابدى»، لاسيما أن هذه كانت زيارته الأولى للصومال وأنه كان تواقـًا للخروج واستكشاف كل شىء، لكن «سليمان» كان حازمًا صارمًا فى إصراره على عدم خروجنا فقال: «ليس مسموحًا لأحد سواى بالخروج، فلدى مهام ينبغى إنجازها ولا أريد أن يكون بالى مشغولاً بالقلق عليكم، لذا ستظلون هنا مع «حليمة» حتى تصلنا أخبار من ساندى».

ووصلتنا الأخبار فى اليوم الثالث، فى الصباح الباكر. أيقظ صوت الهاتف الجميع، وسمعت «حليمة» تهتف متذمرةً بأن «سليمان» قد خرج ليتحدث، ثم نهضت متثاقلةً وأخذت تقلب نار المدفأة.

لم يغب «سليمان» لأكثر من دقيقتين أو ثلاث، ثم عاد وشرع يصدر الأوامر، فقال: «ساندى دكستر الآن فى الطائرة القادمة من دبى، ومعها طاقمها كله، وهى تتوقع أن ترانا فى المطار بمجرد هبوط طائرتها، فاحزموا كل أمتعتكم بأقصى سرعة، وسيأتى ابن عمى «عيد» ليقلنا فى سيارته».

وتثاءب «عابدى» وفرك عينيه بيديه، وبدأت «أمينة» تبحث عن أقراص الفيتامينات التى تتناولها صباحًا، واستغرقا وقتـًا طويلا حتى يفيقا ويبدآ اليوم كما ينبغى، فقبل أن ينهضا من الفراش كنت قد ملأت حقيبتى حتى نصفها، ولو كان الأمر بيدى لحزمت حقيبتيهما أيضـًا. لماذا لا يسرعان؟

كنت أريد أن أستقل السيارة وأصل إلى المطار بأقصى سرعة فبمجرد أن تصل «ساندى» سيمكننى أن أبدأ فى العمل أخيرًا. هذا ما جئنا من أجله.

نعم.. لم نجئ إلا لجنى المال الكافى لإنقاذ حياة «محمود».

فيريا

كانت رحلتنا إلى الصومال مختلفة جدا جدا.

خرج «عابدى» و«خديجة» من إنجلترا بسهولة ويسر دون ضجة على الإطلاق كعائلة عادية يذهب أفرادها لزيارة وطنهم الأصلى، أما نحن فقد صرنا أهم قصة فى عالم الموضة.

فقبل رحيلنا بيومين قام «ماركو» و«ساندى» بتسريب الصورة التى التقطها أبى لخديجة فى الشرفة، كما أطلقا مجموعة من الشائعات التى سرعان ما تلقفتها صحف الإثارة وأخذت تتناقلها.

وظهرت تلك الصحف تحمل مانشيتات من نوعية «وجه سوبر «قرسون» الخفى: ما الذى تخفيه تلك الفتاة؟»

وانتشرت القصص المجنونة فى أرجاء لندن وقد أخذت تزداد غرابة وجنونًا كلما تناقلتها الأفواه.

فشاع أن «قرسون» تخبئ وجهها لأنه مشوه فقد ألقى عليه أحدهم ماء النار.

ونفى آخرون تلك القصة فقالوا إنها تخفى وجهها لأنها أصلا فنانة مشهورة تريد أن تجرب العمل بعرض الأزياء لكنها لا تريد لذلك أن يؤثر

على مسيرتها الفنية. (ثم يقولون بلهجة العالم ببواطن الأمور: «ولن تصدقوا أبدًا من هى!»)

فتقول مجموعة ثالثة: كلام فارغ.. «قرسون» هذه ليست سوى رجل.. رجل بلحية سوداء كثيفة.

وحين جاء يوم مغادرتنا لندن–اليوم السابق لأسبوع الموضة مباشرة – كانت هناك كتيبة من المصورين ترابط أمام مسكن «ساندى»، وما إن رأونا حتى تبعونا خطوة بخطوة إلى المطار وأحاطوا بنا ونحن نحاول الترجل من السيارة.

وقد حرصت «ساندى» على التمويه حتى يظلوا فى حيرتهم. كانت الصورة التى التقطها «طونى مورلن» لخديجة قد أظهرت جزءًا من الحذاء الرياضى الرخيص الذى كانت تنتعله، فاشترت «ساندى» حذاءً مشابهًا وجعلت إحدى العارضات الجديدات المسكينات اللواتى كن يصاحبننا فى الرحلة تنتعله.

يا للفتاة المسكينة! ليتكم رأيتم وجهها وهى تتلقى ذلك الحذاء من «ساندى»، لكنها لم تستطع أن ترفض انتعاله بالطبع، فعرض أزياء «ساندى» سيكون انطلاقتها.

ولم تكن تلك الفتاة الوحيدة التى عانت نتيجة لتخطيط «ساندى»، فقد كان على عارضة شابة أخرى أن تحمل على ظهرها حقيبة من الجينز الرخيص، تمامًا كحقيبة «خديجة»، وكان على ثالثة أن تقلد طريقة وقفة «خديجة» كما تظهر فى الصورة التى التقطها أبى.

ولم تكن أى من الثلاثة سعيدة بما تفعل لكنهن لم يكنّ يجرؤن على الرفض. وقد ابتلع المصورون الطعم وأخذوا يتهامسون ويتساءلون عمن تكون «قرسون» الحقيقية.

كانت «ساندى» محشورة بالطبع بين كبار الزوار، لكن الفتيات كن مضطرات للوقوف فى الطوابير العادية، وقد أتت مرة أو مرتين لتتحدث معهن حتى يظل المصورون على تحفزهم، وبالفعل، فى كل مرة كانت تظهر كانت أضواء الكاميرات وأصواتها تنبعث من كل مكان، وتنهمر عليها الأسئلة.

– أى واحدة هى؟

–أرجوك يا «ساندى» ارحمينا!

كانت صالة كبار الزوار أكثر هدوءًا لكنها لم تكن أكثر سلامًا فقد كان أبى غاضبًا جدا بسبب موافقة «ساندى» على اصطحابى، وهكذا كلما ظهرت «ساندى» كان أبى يحاول جعلها تغير رأيها.

كان يقول: «تصرفك غير مسئول.. لا يصح أن تحضرى «فيريا» معكِ لمجرد أنها تريد الحضور. ليست «فيريا» كبيرة إلى الحد الذى يسمح لها باتخاذ قرارات مثل هذه».

فلم تكن «ساندى» قد أخبرته عن قيامى بابتزازها، وهكذا فقد ظلت متمسكة بغموضها، وكانت تلوح بيديها وتقول : «تحتاج «قرسون» إلى من يساعدها فى ارتداء ثياب العرض، وينبغى أن تقوم بهذه المهمة فتاة أثق فيها، ولا أريد أن أزيد عدد من عرفوا سر «قرسون» لذا ينبغى الاعتماد على فيريا».

وقد كررت ذلك كثيرًا حتى إن كلامها بدا مقنعًا آخر الأمر وكف أبى عن معاودة لومها حتى قبل أن نصل إلى دبى. وتركته فى تجهمه وذهبت لأبحث عن بعض الأشياء على الإنترنت فقد كنت أحتاج إلى قراءة ما كُتِبَ عن «قرسون»، لذا فبعد أن تصفحت مواقع الأخبار المعتادة انتقلت إلى بعض المواقع المجنونة وأخذت أقرأ مقالا مجنونًا يقوم على نظرية المؤامرة. كان المقال الغريب يقول: «لماذا يخفون وجهها؟ لأنه ببساطة ليس وجهها.. إنها أول إنسان يتم استنساخه على هذا الكوكب، ولن تكشف وجهها إلا فى القارة التى بدأت فيها الحياة البشرية .. ينبغى أن نضع حدا لهذا العبث الآن».

وبينما كنت أقرأ إذ مال شخص على كتفى وتسلل صوته مألوفًا مخيفًا إلى أذنى.

– أرجوكِ يا «فيريا».. ساعدينى. هذا السبق من حقى أنا.

أنا لا أتمنى لأحد أن يشعر بهذا الشعور المقزز المقيت الذى ينتاب المرء حين يفاجئه «طونى مورلن» وينفث أنفاسه الكريهة على عنقه بهذه الطريقة، إذ ما إن شعرت بأنفاسه تلمس عنقى حتى انتفضت واقفة وابتعدت عن المقعد وحذائى يكاد ينخلع من قدمى، وبالطبع لم يهمه كم أفزعنى، بل أخذ يضحك من التعبير الذى ارتسم على وجهى.وقال: «لا تحرجينى يا فيريا.. أنا لا أطلب منكِ أن تخبرينى بالقصة كلها.. لا أريد إلا أن أعرف رقم رحلتكم إلى الصومال».

فقلت وأنا أبعد: «رحلة لن تكون أنت فيها».

وحين أخبرت «ساندى» بما كان ينويه صفقت بيديها فى جذل وقالت: «رائع! ينبغى أن نحرص على وجوده. إن «طونى» مفيد جدا فى الدعاية، وإذا تمكن من التقاط صورة جيدة فقد ضمنا أن نكون على الأغلفة والصفحة الأولى من كل الجرائد والمجلات..لكنهِ سنيشنك إذا أتيحت له تلك الفرصة بسهولة. لماذا لا نصطحب «زوى» لتناول فنجان قهوة وندعه يسمع ما سنقول؟»

كانت «زوى» طالبة استعانت بها «ساندى» لتنظيم عمل خبراء الماكياج. كانت فتاة ضخمة مرحة ثرثارة، وذهبت إلى صالة المغادرة لأحضرها، وحين أخبرتها بما سنفعل كانت سعيدة جدا بالاشتراك فى عمل مثير شبيه بعمل الجواسيس.

واشترينا كوبين من القهوة باللبن وتركتها تثرثر عما يمكنها أن تفعله لجعل عينى تبدوان أوسع وبشرتى أجمل، ولم أغفل ولو لثانية عن المرآة التى كانت خلف البار، وحين رأيت «طونى مورلن» يتسلل ليجلس على المقعد الذى خلفنا نظرت فى ساعتى وقلت بهمس مصطنع: «ألم تهبط طائرتنا بعد؟»

عندئذ قفزت «زوى» من مقعدها وذهبت تنظر إلى اللوحة التى تعلن مواعيد الرحلات ثم صاحت: «قولى لى ما رقم الرحلة ثانية».

فقطبت مستنكرة فى نفاد صبر وأنا أسير نحوها، ثم قلت: «ليس هناك مليون رحلة إلى جالكايو.. انظرى .. هذه هى رحلتنا.. وواضح أن الطائرة لم تصل بعد».

فألقت «زوى» نظرة خاطفة خلفها ثم همست: «أحسنت .. لقد ذهب جريا لحجز مقعد فى طائرتنا. وأتمنى ألا يكون الأوان قد فات».

فقلت: «اطمئنى .. لم يفت الأوان.. «ساندى» لا تترك أى شىء للصدفة».

وكنت محقة، فحين صعدنا على متن الطائرة الصغيرة كان قد سبقنا، وجلس بعدنا بصفين.

ووصلنا إلى «جالكايو» مع بواكير الصباح الأولى، ولم أكن قد أفقت من نومى تمامًا بعد وأنا أغادر الطائرة بخطوات مترنحة. ورغم أن الشمس لم تكن قد أشرقت تمامًا بعد فإننى كنت أشعر بالحرارة تتصاعد من الأسفلت تحت قدمى، وحاولت ألا أفكر فى حال الجو عند حلول الظهر.

وسمعت وأنا أهبط سلم الطائرة أبى يحبس أنفاسه، وحين صرنا على الأرض أحاط كتفى بذراعه وقال: «هل تشمين تلك الرائحة؟»

فأخذت نفسًا عميقًا، وشعرت بأن الهواء معبق برائحة.. رائحة غريبة مثيرة. وقلت لأبى: «ما هذه الرائحة؟»

– إنها رائحة إفريقيا. لم أكن أعرف أننى أفتقدها إلى هذا الحد.

ثم ابتسم لى ابتسامة حزينة وقال: «على فكرة.. كنت أتمنى دائمًا أن أحضرِك إلى هنا».

فعبست وقلت: «أنت تضحك علىّ».

فقال: «لا .. أنا أعنى ما أقول فعلا.. الحكاية وما فيها أن.».

ثم هز كتفيه قبل أن يضيف: «لكننى كنت فقط أفضل الانتظار حتى تتحسن الأحوال».

فقلت: «ربما تحسنت الأحوال فعلا...أنى لنا أن نعرف؟»

وأخذنا نسير متجاورين على ممر الهبوط بينما العارضات يتعثرن خلفنا بأحذيتهن السخيفة ذات الكعوب العالية، وحين بلغنا صالة الوصول توقف أبى ريثما تلحق بنا «ساندى».

ثم قال لها: «هل هناك من ينتظرنا فى المطار؟ هل رتبتِ ذلك الأمر؟»

فقالت: «سيكون «سليمان» بانتظارنا ومعه السيارات التى ستقلنا جميعًا إلى الصحراء».

فأجفل أبى من فرط دهشته وقال: «ماذا؟ سنذهب إلى الصحراء مباشرة ؟»

فقالت «ساندى» بحزم: «بالطبع.. ليس لدينا سوى ثلاثة أيام للإعداد للعرض، وبعدها البث الحى.. للعالم كله. ليس هناك وقت نضيعه».

ثم تقدمتنا إلى صالة الوصول.

فجأة–بعد مرور ثلاثة أيام على «محمود» فى الغرفة نفسها مع «سانيارى» فى رتابة وكأن ما من شىء جديد يمكن أن يحدث– انفتح الباب ودخل ذلك الرجل الذى يدعى «يوسف»، وخلفه «رشيد»، وهما يشيران ببندقيتيهما.

كان «يوسف» يبدو كسولا مسترخيًا حين كان ممددًا أمام التلفزيون، أما فى تلك اللحظة فقد كان الكسل والاسترخاء قد تبخرا تمامًا، حتى إنه كان من الواضح أنه المسئول.

وقال: «سنلتقط لك صورة فانهض».

وابتسم «رشيد» وضرب «محمود» بكفه على ظهره وهو يقول: «ستصير مشهورًا».

كان «يوسف» قد تأبط صحيفة، لكنه فجأة رماها نحو رأس «محمود» دون سابق إنذار حتى كادت تصيب وجه الصبى إلا أن «محمود» مد يده بحركة تلقائية فأمسك بها قبل أن تصيبه.

وقال «رشيد» وهو يشير إلى أحد العناوين: «أخبار جديدة! اقرأها! ينبغى أن تكون مطلعًا على مجريات الأمور».

ثم ضحك ضحكة ساخرة.

وقرأ «محمود» العنوان فشعر وكأن الكلمات تصرخ فى وجهه. كان العنوان يقول: «قراصنة الصومال يخطفون ناقلة نفط ثالثة».

وتساءل فى نفسه عما يقصده «رشيد».. هل سيبيعونه إلى القراصنة؟

فقال «سانيارى» برقة: «لا تقلق.. نحتاج لهذه الصورة كى نثبت لأسرتك أنك لا زلت حيا. هذا كل ما فى الأمر».

ودفع «يوسف» «محمود» بيده فألصقه بالجدار وأخذ «رشيد» يضبط الكاميرا، ثم قال: «حسنًا.. هل أنت مستعد للابتسام؟»

كان المفروض أن تلك دعابة ساخرة ولكن «محمود» ابتسم على أى حال.. ابتسامة عصبية قلقة، وكان «رشيد» قد بدأ يلتقط الصورة بالفعل فصاح بعصبية: «هل أنت غبى؟ هل تريد أن تظن أختك أنك سعيد هنا؟ ألا تعلم أننا سنقتلك إذا رفضت أختك دفع النقود؟»

وكان «محمود» يعلم أن «رشيد» يصيح هكذا كى يخيفه، فقد كانوا يريدونه أن يبدو خائفًا ليثير الشفقة، لكنه لم يكن ليسمح بأن يراه أحد خائفًا، لذا حافظ على ابتسامته باستماتة. كانت عضلات وجهه تزداد توترًا وتؤلمه بشدة لكنه كان يفضل الموت على الاسترخاء وترك نفسه على سجيتها، فتلك الابتسامة هى الشىء الوحيد الذى يمنعه من البكاء.

والتقط «رشيد» عدة صور وذهب إليه «يوسف» كى يتفرج عليها، وقد أضحكه ما رآه ، ثم قال: «لا داعى لالتقاط المزيد.. هذه الصور ستحقق مأربنا».

ثم انتزع الصحيفة بسرعة وعنف من يد «محمود» وذهب هو و«رشيد» من حيث أتيا بعد أن صفقا الباب خلفهما بشدة، وصار «محمود» وحده فى الغرفة.. مع «سانيارى» ثانية .

وهكذا صار بوسعه أخيرًا أن يطلق العنان لما يشعر به، وأن يتوقف عن الابتسام.

عابدى

كان «سليمان» قد جهز أسطولا كاملا من السيارات والشاحنات لاستقبال «ساندى» فى المطار، ثلاث أو أربع منها كانت حافلة بالفتيات، عارضات الأزياء الإنجليزيات وكذلك «زوى» متخصصة الماكياج.

كما كانت هناك سيارة أخرى لى ولأمينة و«خديجة» وثالثة لفيريا و«ديفيد».

وأصرت «ساندى» على ركوب الشاحنة التى تحمل الملابس، والتى شغلت عشر حقائب سفر سوداء ضخمة. ولم ترفع عينيها ولو للحظة عن الحراس وهم يضعون الحقائب فى الشاحنة، وحين انتهوا من وضع الحقيبة الأخيرة أمرتهم بأن يربطوها جيدًا ثم قالت بصرامة: «إذا حدث أى مكروه لتلك الحقائب فسيلغى كل شىء، وسنحزم أمتعتنا ونعود إلى الوطن ولن يحصل أى أحد على أى نقود».

ثم انتظرت وأخذت ترمق الرجال وهم يتناقلون تلك الكلمات فيما بينهم.

وكان وجود كل هؤلاء الحراس هو السبب الوحيد وراء احتياجنا لكل تلك السيارات، فقد بلغ عددهم عشرين حارسًا. وكانوا طوالا يحملون بنادقهم على أكتافهم، كما كانوا يعلقون فى أحزمة سراويلهم خناجر

ذكرتنى بخنجر والدى. هذه الأسلحة هى أساس عملهم، ومصدر رزقهم. وتجمع الرجال حول «سليمان» يثرثرون معه ويمضغون أوراق القات الخضراء التى كان يوزعها عليهم ويراقبون ما يجرى باهتمام.

وسارت «ساندى» نحو «سليمان» ثم مالت عليه وغمغمت :«هل نحتاج فعلا لكل هؤلاء الرجال؟»

فهز «سليمان» كتفيه وقال: «إذا أخذناهم معنا فربما.. ربما لا يحدث شى يجعلنا بحاجة إليهم.. أما إذا لم نأخذهم..»

ثم قطب جبينه وهز رأسه وقال: «إن معنا الكثير مما يستحق الحماية لذا فالاحتياط واجب فى رأيى، والقرار قرارك على أى حال».

وكانت عارضات الأزياء يهمسن ويتنقلن من مكان إلى مكان بخفتهن المعهودة وقد صوبن نظرات قلقة إلى الحراس من تحت رموشهن الطويلة، وسمعت إحداهن تقول: «لم أكن أعرف أن الأمر سيكون هكذا».

ونظر «سليمان» إلى «ساندى» ثم نقر بإصبعه على ساعته وقال: «أمامنا طريق طويل فإذا أردتِ تغيير الترتيبات فعليكِ أن تفعلى هذا فورًا».

وفجأة ظهر «ديفيد» إلى جوار «ساندى» وقال باقتضاب: «إنها لا تريد تغيير أى شىء.الترتيبات جيدة كما هى».

فبدت «ساندى» وكأنها تفيق على صوته وأومأت موافقة على ما قال. كانت تلك المرة الأولى التى أراها فيها تذعن له.

عندئذ قال «سليمان»: «فلننطلق إذن». ثم التفت وأشار للحراس الذين شرعوا يتكومون داخل الشاحنات.

وكانت «فيريا» واقفةً وقد أولتنا ظهرها وأخذت تجول ببصرها فى أنحاء الأراضى الجرداء الصخرية التى تحيط بالمكان، وحين لمس «ديفيد» كتفها أجفلت ثم استدارت فقال لها باقتضاب: «سنتبع الشاحنة التى ستسير فى المقدمة.. هيا يا فيريا. ينبغى أن نصل قبل غروب الشمس».

ثم فتح باب السيارة التى ستقلهما وأدخلها بسرعة.

وكنت فى السيارة مع «أمينة» و«خديجة» فى المقعد الخلفي وقفز حارسان فجلسا فى المقعدين الأماميين فظننت أننا سنتحرك على الفور، لكن لم تسر الأمور بهذه السرعة، بل ظللنا محشورين فى السيارة المكتظة التى كان الجو فيها خانقًا لمدة ربع ساعة قبل أن ننطلق أخيرًا.

كنا فى القلب من ذلك الموكب الطويل من السيارات المتجهة إلى.. إلى لا مكان! فقد كنا تركنا جالكايو خلفنا وانطلقنا نسير وتنهب سياراتنا الأراضى الجافة الصخرية التى لا تنمو فيها أى نباتات عدا حفنة من الأشجار الشوكية القصيرة. كان الهواء ساخنًا ثقيلا وكنا محاطين بسحابة من الغبار الذى تثيره السيارات التى أمامنا. وحين نظرت من زجاج السيارة الخلفى رأيت بقية السحابة معلقة على ارتفاع من الأرض وكأنها ذيل طويل للسيارات.

واستمر الحال على هذا المنوال لمدة عشر ساعات، إذ ظللنا نسير ونسير ونسير، ونمر من حين لآخر بالقرى التى لم تكن سوى مجموعات من البيوت الصغيرة المسقوفة بعروق من الحديد. وكانت هناك سيارات أخرى

على الطريق معنا، لكنها كانت قليلة، وكذلك رأينا بعض الأطفال يسوقون أمامهم قطعانا من ماعز عجفاء، ونسوة يحملن فوق رءوسهن بقجًا ثقيلة.

وظللت أجاهد للتواصل مع ما يحيط بى. ظللت أقول لنفسى: «هذا هو بلدك.. هذا هو المكان الذى إليه تنتمى»، لكننى لم أكن أدرك حتى ما يعنيه هذا الكلام الذى كنت أردده لنفسى.

فى «باتل هِل»، حين كان الكبار يتحدثون عن الصومال كانوا يسترسلون فى وصف السماء الممتدة كقبة لا حدود لها ويسهبون فى الحديث عن المساحات المفتوحة الشاسعة الخالية من أى شىء، وكأن الخلاء والفراغ مدعاة للفخر! ولم أفهم قط وجهة نظرهم، ولم أفهم، فحين كنا نغادر جالكايو كنت أشعر وكأننا نجتاز حدود العالم.. ترى كيف يكون شعور المرء إذا ما عاش حياته كلها هنا؟ يرعى الماعز تمامًا كهؤلاء الأولاد الذين رأيناهم منذ قليل؟ يستحيل حتى أن أتخيل هذا. ماذا يفعلون حين يريدون الاستماع للموسيقى؟ وأين يقابلون أصدقاءهم؟ لو كنت جالسًا إلى جوار «خديجة» لسألتها عن بعض الأشياء، لكن «أمينة» كانت تجلس بيننا وقد مالت إلى الأمام لتنظر من نافذة السيارة من بين أكتاف الحراس. لم أدرك أنها هى أيضًا تزور البلد للمرة الأولى إلا بعد برهة. كانت مثلى.. كان كل ما تراه جديدًا عليها كل الجدة.

وأخيرًا توقفنا فى قرية أكبر من كل القرى التى مررنا بها. كان بها ثلاثون أو أربعون مبنى على الأقل، بعضها كان من الواضح أنه دائم فقد كان مبنيا من الحجر وحديد التسليح، والبعض الآخر كان عبارة عن هياكل

مؤقتة مصنوعة من أفرع الأشجار والحصر المخيطة ببعضها البعض، وكان هناك أعمدة إنارة تبدو منها الأسلاك الكهربية فى الأفق، كما كان هناك متاجر رسمت بعض اللوحات على واجهاتها.

ولم نستطع تكوين فكرة واضحة عن القرية. وكنا كلما مررنا بمجموعة من الناس تركوا شئونهم أيا كانت وتزاحموا حول سياراتنا.

كان «سليمان» قد استقل الشاحنة مع «ساندى»، وحين ترجل منها تحلق حوله جمع من الناس وأخذوا يتسابقون فى تقديم أنفسهم له، وتدريجيا بدأت أفهم ما يقولون، وعندئذ أدركت أن أغلبهم لا يعيش فى القرية أصلا، بل هم ممن استأجرهم «سليمان» من أجل العرض.

وما إن ترجلت من السيارة حتى نزلت «ساندى» من الشاحنة وجرت نحوى وقالت: «ابق على مقربة من أختك.. لا أريد أن يرى أحد ولو لمحة من وجهها».

هل كانت حقا تظن أن ثمة من يهتم بمسألة «قرسون» هذه على الإطلاق هنا؟ وشعرت بأنها موسوسة لكن الكلمة كلمتها على أى حال؛ لذا أومأت فى إذعان فربتت على كتفى وذهبت لتلحق بسليمان.

كانت «أمينة» و«خديجة» تقفان عند طرف المجموعة تصغيان إلى النسوة اللواتي كن يحاولن التحدث مع «زوى» التى كانت تقول: «من هنا للعمل معى؟ أنا مسئولة التجميل».

ثم أخذت تحرك يديها فترسم بها خطوطًا فى الهواء كى تفهمها النسوة اللاتى أخذن يضحكن ويلكز بعضهن بعضًا، ثم فتحت «زوى»

صندوق أدوات الزينة فبدأت النسوة يتفحصن محتوياته بأعين ناقدة ويتناقشن حول الألوان ويجربنها على أيديهن.

وكانت على أيدى بعضهن نقوش بالحناء، وحين رأتها «زوى» صاحت من الفرحة بصوت حاد وكأنها طفلة فى السادسة من عمرها وقالت: «انظرى يا «ساندى» إلى هذا! هل يمكننى استخدام هذه الأشياء فى العرض؟»

فأسرعت «ساندى» نحوها وانكبت تفحص أيدى النساء، وأضاء وجهها تمامًا كوجه «زوى» حين رأت النقوش، وقالت: «واو! لقد رأيت رسومًا شبيهة بهذه سابقًا، لكننى لم أر شيئًا بهذا الجمال من قبل. من رسمها؟ هل يمكن أن يدلنا أحد على من رسمها؟»

وتلفتت حولها باحثة عمن عساه أن يترجم كلامها فوقعت عيناها فى الحال على «خديجة» التى كانت منهمكة فى الحديث، بالصومالية ثم بالإنجليزية ثم بالصومالية، إلخ. كان شكلها مميزًا جدا وله طابع درامى وهى تقف بثيابها السوداء وسط كل هؤلاء اللواتى كن يرتدين ثيابًا طويلة زاهية الألوان ويغطين رءوسهن بإيشاربات عريضة.

وحين ترجمت لهن ما قالته «زوى» ضحكن ولوحن بأيديهن، وسرعان ما انطلقن يتحدثن واختلطت اللغتان الصومالية والإنجليزية فى ثرثرتهن. لم يكن ذلك المكان بالمناسب لى فابتعدت وذهبت للبحث عن «سليمان».

كان «سليمان» و«ديفيد» مع الرجال. كانت عملية التعارف دائرة، وكان ثمة حديث مهذب يجرى على الألسن، واقتربت أكثر آملا أن أجد لى مكانًا بينهم، لكن وقبل حتى أن يلاحظوا وجودى ظهرت «فيريا» فجأة

بجانبى. كان وجهها يطل من تحت القبعة التى ارتدتها شديد الاحمرار، وكان واضحًا أنها تعانى الحر والتعب الشديدين، لكننى كنت أعرف أن ثمة سبب آخر لاحمرار وجهها على هذا النحو، إذ سمعتها تقول بضيق وهى تشير إلى ما وراء المنازل: «انظروا !»

كانت هناك سيارة ضخمة من السيارات المخصصة للسير فى الصحارى والأراضى الوعرة، لكنها كانت متهالكة نوعًا ما، وكانت توشك على دخول القرية. كان بالسيارة حارسان ورجل قصير ممتلئ يضع لطخة من الكريم الواقى من الشمس على أنفه.

وقلت: «من هذا؟ هل هو من رجال ساندى؟»

فقطبت «فيريا» وقالت: «هل تمزح؟ هذا «طونى مورلز» فى مهمة شخصية، فهو يريد تصوير الوجه المختبئ خلف نقاب «قرسون»، وإن لم نراقبه جيدًا فلربما توجه إليها مباشرة وشد النقاب»

وقلت فى نفسى: «لا يمكن أبدًا لهذا أن يحدث». فستكون هذه إهانة كبيرة لاسيما هنا. صحيح أن «خديجة» ليست أختى فعلا لكن علىّ أن أحميها من أشياء كهذه.

وقلت: «ينبغى أن يحذرها أحد»، وكنت أقصد أن أحذرها بنفسى لكن «فيريا» كانت أسرع منى إذ قالت: «سأذهب أنا لتحذيرها»، وانطلقت قبل أن أتمكن من قول أى شىء. كانت تجرى تقريبًا رغم شدة الحرارة.

خديجة

جاءت «فيريا» جريًا إلىّ وكانت النساء قد بدأن الحديث معى لتوهن.

لم تتفهم «ساندى» قط مدى صعوبة وجود المرء فى قرية صومالية دون إخبار أهلها باسمه. بالطبع ارتابت النساء فى أمرى فقد كن يرين أنه من الطبيعى أن أخبرهن من أنا وإلى أى عائلة أنتمى، وأعرف بالطبع ما قلنه فى نفوسهن حين أخبرتهن بأننى لن أفصح عن تلك الأشياء.. أعرف أنهن يعتقدن أن من تفعل هذا فلابد أن لديها أسرارًا، وأنها تخشى فضيحة ما. لكن حتى لو كان مسموحًا لى بإخبارهن فأى اسم كنت سأقول؟ «خديجة أحمد موسى»؟ أم «جى–رى»؟ أم ربما اسمى الحقيقى الذى يكشف كل شىء؟ كان من الأسهل أن أقول إننى «قرسون» وحسب.

كنت أحاول شرح الأمور لهن بعد ترجمة ما تقوله «زوى» و«ساندى»، وكانت النساء قد بدأن يظهرن الود حين جاءت «فيريا» جريًا وهى تلوح بذراعيها.

وغمغمت إحداهن قائلة: «لن تستطيع تلك الفتاة أن تصمد طويلا إذا ما ظلت تجرى هكذا».

كان اسمها «نور»، ولم تكن قد قالت الكثير قبل تلك الملاحظة، أما الآن فقد ظلت تراقب «فيريا» التى كانت تعدو نحونا. وقطبت الأخريات وأومأن برءوسهن. كان الطقس خانقًا شديد الفظاعة.

كان وجه «فيريا» محتقنًا جدا لكن الظاهر أنها لم تكن تلاحظ ذلك أو تهتم مطلقًا فما إن اقتربت منا حتى أخذت تتحدث بسرعة كالمجنونة، وألقت بنفسها أو كادت على «ساندى» وهى تقول: «طونى مورلز هنا.. انظرى.. لقد وصل للتو! ينبغى أن نأخذ حذرنا!»

فأمسكت «ساندى» بكتفيها لتهدئها ثم قالت بحزم: «هذا جيد.. سيمنحنا هذا فرصة رائعة للدعاية».

لكن «فيريا» لم تهدأ وقالت: «لكن إذا ما حاول نزع النقاب عن.»

فقالت «ساندى»: «لن يجرؤ.. ربما هو مصمم على النجاح لكنه ليس أحمق إلى هذه الدرجة، ومع ذلك فمن الأفضل تحذير الناس منه».

ثم التفتت إلىّ وقالت: «هل يمكنكِ تحذيرهم؟»

كانت بعض النساء قد فهمن وبدأن يتناقلن الخبر قبل أن أتخذ أى خطوة لتحذيرهن، وكان يبدو عليهن الحيرة والقلق وحين شرعت أتحدث إليهن ثانية بدت نظراتهن أكثر تعاطفًا من ذى قبل، لاسيما حين قلت: «إن الرجل الذى وصل حالا يريد تصوير وجهى، ولا يمكن أن أدعه يفعل هذا فهل هناك مكان يمكننى الاختباء فيه؟»

وسرت همهمات بينهن ثم ابتسمت لى «نور» ابتسامة عريضة وقالت: «يمكنكِ دخول منزلى فى أى وقت تشائين، وكذلك أصدقاؤك.. ربما كان من الأفضل أن نذهب الآن فهى تحتاج لحماية من الشمس».

وهزت الأخريات رءوسهن مؤمنات على ما قالت فأمسكت بيد «فيريا» وقلت لها: «إن «نور» تعرض علينا مكانـًا للاختباء فيه فهل نذهب ونلقى نظرة؟»

كان منزلا صغيرًا مكونـًا من غرفة واحدة على أطراف القرية وكان ضيقـًا شديدة الحرارة، لكننا على الأقل صرنا فى مأمن من الشمس الحارقة، وتنهدت «فيريا» وخلعت قبعتها. وقالت: «الحمد لله أننى أستطيع خلع تلك القبعة اللعينة أخيرًا.. إننى لا أطيقها ولكننى مضطرة لأن أعتمرها. لقد ابتل شعرى بسببها».

ثم مرت بأصابعها خلال شعرها فتناثرت الخصلات الرطبة حول وجهها.

وأشارت «نور» إلى القبعة باستهجانٍ وقالت بالإنجليزية: «لا فائدة منها».

ثم هزت رأسها وهى تنظر إلى سروال «فيريا» الضيق الخصر والساقين ثم ارتسم على وجهها تعبير غريب وهى تقول: «حرارة.. حرارة.. حرارة».

فقالت «فيريا» بضيق: «أعلم لكن علىّ أن أغطى كل جسدى وإلا احترقت تمامًا وصار جسدى قرمزيا».

لم تفهم «نور» كل هذا الكلام لكنها كانت تدرك مقصد «فيريا» فى العموم فنظرت إليها مليا وبدا عليها الاستغراق فى التأمل ثم رفعت يدها وقالت: «انتظرى.. سأعود حالا».

وما إن خرجت من المنزل حتى سمعت الأخريات يناديـنها قائلات: «ماذا تفعلين يا «نور».. تعالى لترى «زوى» نقوش الحناء التى ترسمينها».

ولم أسمع إجابة «نور»، لكننى وجدتها تعود بعد دقيقتين حاملة ثيابًا كثيرة ذات ألوان زاهية وهى تقول لفيريا: «هذا أفضل».

وأدركت فورًا– من نقوش الثياب وخاماتها والعناية التى طويت بها– أنها أفضل ثياب «نور».. الثياب التى تحتفظ بها للمناسبات المهمة.

لكن «فيريا» ظلت تحملق فى الثياب ثم غمغمت قائلة: «ماذا تريد؟ ما الذى يفترض أن أفعله؟»

–إنها تقرضك بعض ثيابها وهذا تصرف غاية فى الكرم. ينبغى أن ترتدى هذه الثياب.

– ولكن كيف؟

كانت تلك المرة الأولى التى أرى فيها «فيريا» تبدو مترددة، ورأيتها تمد يدها فتلمس القماش بينما كانت «نور» تفرد الثوب، وقلت: «اخلعى كل تلك الثياب الضيقة الخانقة».

لكننى احتجت لبعض الوقت كى أقنعها، وحين اقتنعت أخيرًا اضطررنا أنا و«نور» للتعاون على إلباسها وكأنها طفلة صغيرة، ووقفت هى ساكنة تمامًا بينما كنا ندخل رأسها فى فتحة الثوب، ثم ذراعيها فى الأكمام.

أما اللحظة الحرجة حقا فقد كانت حين تناولت «نور» إيشاربًا عريضًا لتلفه حول رأسها. عندئذ قالت «فيريا»: «تريدنى أن أضع هذا على رأسى؟»

وتراجعت خطوة للوراء.

وقطبت «نور» وقالت بالصومالية: «لابد أن تغطى رأسها.. ألا تعلم أن أشعة الشمس قد تسبب لها المرض؟»

فقلت: «بلى، لكن فى رأسها بعض الخزعبلات الحمقاء.. انتظرى قليلا!»

ثم تحولت إلى الحديث بالإنجليزية فقلت وأنا أهز رأسى: «اسمعى يا «فيريا».. أعرف ما تفكرين فيه، لكن الأمر مختلف فى الصومال. إن الإيشارب أفضل ما يمكن أن ترتديه المرأة فى الصومال فأرجو أن تجربيه».

فنظرت «فيريا» بحذر إلىّ وقالت: «أنا لا.».

فقلت: «من فضلك»

لم أكن أطيق مجرد التفكير فى رؤيتها مرة ثانية ترتدى تلك القبعة الفظيعة الغارقة فى العرق.

ومدت «فيريا» يدها فلمست القماش وأخيرًا قالت: «حسنـًا.. لكن يجب أن ترينى كيف ألفه؟»

فلففته لها حول رأسها وكتفيها وأريتها أين ينبغى أن تضع الدبابيس إذا ما احتاجتها، ثم تراجعت إلى الوراء قليلا لأشد الثوب فأسويه فوق جسدها وقلت: «الآن حاولى أن تسيرى».

كان المنزل ضيقـًا جدا، فلم يكن من الممكن أن تسير سوى بضع خطوات، ومع ذلك فقد رأيت تعبير وجه «فيريا» يتغير وهى تشعر بتيار الهواء يداعب جسدها بينما تنورة الثوب الطويلة تتماوج حول ساقيها، وأدركت «نور» ذلك أيضـًا فابتسمت ثم قالت: «والآن سأعد بعض الشاى».

فيريا

كان واضحًا أن «نور» تعتبرنى شديدة الغباء، فحين ناولتنى كوب الشاى وضعت يدها قرب فوهته ثم قالت: «ساخن.. ساخن جدا!»

لكننى لم أتضايق فقد كانت طيبة جدا ورقيقة، ولن أكذب على نفسى.. أنا بالفعل لم أكن أبلى بلاءً حسنًا.. كنت بالفعل عاجزة عن مواجهة ذلك الجو الحار بالشكل المناسب. كانت نظرة واحدة إلىّ تكفى كى يعرف كل ذى عينين ذلك.إلا إنه لم يكن هناك داعٍ للشكوى والتذمر، فأنا التى صممت على الحضور إلى الصومال. الخطأ خطئى وحدى لذا قلت فى نفسى: «تحملى يا «فيريا» وافعلى أفضل ما فى وسعك».

وجلست على الأرض بين «نور» و«خديجة» (لم أكن حتى قادرة على التربع بطريقة صحيحة) وأخذت أرتشف الشاى وبداخلى شعور شديد بالغربة والغرابة.

ومالت «خديجة» نحوى وغمغمت بالإنجليزية قائلة : «هل تحبين سماع قصة؟ لقد أخبرتنى إحدى السيدات أن «نور» أفضل راوية قصص فى القرية» وكانت تقول هذا وكأن القصة جزء من واجب الضيافة.

وأردت أن أقول نعم لكننى أحسست أن الأمر سيكون معقدًا جدا، وحاولت أن أنقل لها شعورى فقلت: «لكنكِ ستضطرين إلى ترجمة القصة كلها لى».

فوضعت «خديجة» يدها على كتفى برقة وقالت: «لا مانع عندى.. أنا أيضًا أريد سماع حكاية من حكايات بلادنا».

ثم أومأت برأسها لنور وهى تقول شيئًا بصوت منخفض رقيق.

وأومأت «نور» بدورها وأغمضت عينيها برهة.

وحين ساد الصمت تمامًا بدأت تتحدث، وكانت تتوقف بعد كل جملة ريثما تترجم «خديجة» ما تقول. لم تكن هناك أى ضجة أو جلبة، بل صوتان يتبادلان الحديث بالترتيب.

«كان يا ما كان... كان هناك رجل له ثلاث زوجات غيورات جدا. كانت الثلاث فى مكايدات مستمرة حتى إنهن ظللن يطالبن زوجهن بأن يخبرهن من منهن الأقرب إلى قلبه»

يبدو أن هذه القصة ستكون.. مؤلمة.

وأحطت كوب الشاى بيدى وأحنيت رأسى حتى تخفى الظلال وجهى.

«وحاول الرجل أن يتملص .. وأن يتهرب.. وأن يقنعهن بأن يتوقفن عن الإلحاح.. لكنهن ظللن يسألنه دون توقف ويقلن: قل لنا.. قل لنا من تلك التى تحب أكثر من الباقيات؟»

وتناهى إلى سمعى صوت «سليمان» يتحدث إلى بعض الرجال فى الخارج. كانوا يضحكون ضحكات خشنة، وأعتقد أنهم كانوا يمازحونه، لكن أصواتهم بدت لى آتية من مكان بعيد.. فى جزء آخر من العالم.

«وذات يوم وجد الزوج المسكين نفسه عاجزًا عن الاحتمال فجمع زوجاته وقال لهن: حسنًا.. سأخبركن بما تردن معرفته.. لكن أولا.».

وحبست أنفاسى فى انتظار لما بعد «لكن»، لكن قبل أن تكمل «نور» جملتها دوى صوت حاد كأنه يخترق الضوضاء التى كانت بالخارج، فأخرس كل ما عداه.

صوت طلقة رصاص.

وبعدها بدقيقة سمعنا ضجة هادرة.. كانت تحدثها سيارة «جيب» تنطلق بأقصى سرعة نحو وسط القرية، ثم أصوات أناس يتحدثون، ويصيحون بفظاظة.

وهبت «نور» و«خديجة» واقفتين فى الحال، أما أنا فقد تأخرت عنهما قليلا ريثما استطعت تخليص قدمى من ذيل الثوب الطويل، وحين بلغت الباب كانتا قد خرجتا قبلى، ورأيتهما واقفتين تنظران إلى بقعة ما بجوار المبنى المواجه.

وجريت لألَحق بهما، لكننى لم أتوقف حين لحقت بهما، فقبضت «نور» على ذراعى وجذبتنى للخلف وهى تهمس: «لا..لا!»

كانت السيارة الجيب قد توقفت فى المساحة الشاسعة الممتدة أمامنا، وكان ركابها يصيحون بمزيج من الإنجليزية والصومالية. ولم أفهم أى شىء تقريبًا، عدا عبارة واحدة كانت واضحة

– عشرة آلاف دولار!

لابد أنهم قالوها ثلاث أو أربع مرات، وكأنهم يبصقونها فى تحدٍ، ثم دار محرك السيارة، وانطلقت ثانية ، وحين ابتعدنا عن البيت رأيناها تنهب الطريق وسط سحابة من الغبار.

كان الجميع مذهولين وكأن على رءوسهم الطير، عدا «طونى مورلن»، فما إن بدأ الرجال يبتعدون بالسيارة حتى قفز من وسط الجموع وطفق يلتقط صورًا لكل شىء وأى شىء يقع فى مجال بصره.. السيارة الجيب المغبرة الآخذة فى الابتعاد، ووجوه العارضات وقد بدت عليها الصدمة.

والصورة.. الصورة التى كانت ملقاة على الأرض.. التى ألقاها الرجال من السيارة الجيب على الأرض.

ومرت بضع ثوان قبل أن أدرك أنه ما من أحد قد أصيب، وحين أدركت هذا كانت «خديجة» قد أخذت تعدو نحو الصورة لتلتقطها. لكن «ساندى» سبقتها بنصف خطوة وخطفت الصورة قبلها، بيديها الاثنتين.

وقالت «ساندى»: «ما الأمر؟ ما الذى يريده هؤلاء الرجال؟»

– ما يريدونه واضح جدا.

كان القائل هو «طونى مورلن» الذى يدس أنفه فى كل شىء كالمعتاد، ثم أردف: «إنهم يريدون فدية.. عشرة آلاف دولار فدية لشخص ما».

كان الجميع قد بدءوا يتحلقون حول «ساندى» لرؤية ما تركه الرجال. وحشرت نفسى بين «سليمان» و«زوى» وأخذت أشق طريقى بين الواقفين حتى وصلت إلى «خديجة» التى كانت يداها ترتعشان وهى تمسك بالصورة.

وما إن رأيت الصورة حتى أدركت أن «طونى مورلن» كان محقا فيما قاله عن الفدية. كان الفتى فى الصورة يمسك نسخة من صحيفة اليوم، كما يحدث عادة عند تصوير المختطفين لإثبات أنهم لا يزالون على قيد الحياة، أو–على الأقل– لإثبات أنه كان حيا منذ ساعات. كان فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره، وكان يحدق فى الكاميرا وقد رسم على وجهه ابتسامة مصطنعة متحدية. كان صبيا خائفًا يجاهد كى يبدو شجاعًا، وكان المنظر فظيعًا يدمى القلب.

وقالت «ساندى» بحدة: «من هذا؟ ما الذى يجعلهم يظنون أننا سندفع عشرة آلاف دولار لغريب لا نعرف عنه شيئًا؟»

وظننت أن «خديجة» ستقول شيئًا، لكن قبل أن تتمكن من الكلام مد «سليمان» رأسه من خلفها وتنهد بصوت عال وقال: «ليس الولد غريبًا بالنسبة لى. إنه من أقاربى».

فقالت «ساندى»: «وهل يعتقدون أنك ستدفع عشرة آلاف دولار فدية له؟»

فهز «سليمان» كتفيه وقال: «إنهم يعلمون أننى لا أملك عشرة آلاف دولار، لكن لعلهم يعتقدون أنك..؟»

وقطع جملته الحائرة، وترك السؤال معلقًا فى الهواء.

حين عاد الرجال بالسيارة الجيب كانوا يمضغون أوراق القات وهم يصيحون ويربتون على ظهور بعضهم بعضًا، وكانت أصواتهم المرتفعة تصل إلى «محمود» فى الغرفة الصغيرة حيث كان يجلس مع «سانيارى».

وقال «سانيارى» بصوت خشن: «إنهم سعداء.. أعتقد أن يومهم كان موفقًا».

كان الظلام قد حل، وحين فتح «سانيارى» الباب سطعت أضواء الكشافات الأمامية للسيارة الجيب فى الحجرة الرئيسية، فنهض «محمود» وهو يظلل عينيه بذراعه.

وازدادت صيحات الرجال ارتفاعًا حين رأوه، وصاح «رشيد»: «والآن يا «محمود» هل أنت جاهز لجعلنا أثرياء؟»

شىء ما قد حدث.. فقد كانوا يتصرفون وكأنهم يشمون رائحة النقود تقترب من أنوفهم، بل وكأن النقود قد صارت فى أيديهم، حتى إن «محمود» قد شعر وكأن قلبه يصاب بعدوى الخفة التى سرت فيهم، وضحك قبل أن يستطيع منع نفسه من التصرف بتلك الطريقة غير الملائمة.

ما حدث بعد ذلك حدث بسرعة شديدة. تقدم «يوسف» نحوه وهو يضحك متجاوبًا مع ضحكات «محمود»، وبينما كان يضحك رفع بندقيته فى الهواء، ثم هوى بها.

أصاب كعب البندقية فم «محمود»، وأسنانه الأمامية.. كانت الضربة قاسية مؤلمة.

صرخ «محمود» ووضع يده تلقائيا على وجهه، وحين رفعها وجد اثنتين من أسنانه الأمامية فى كفه، مكسورتين وملطختين بالدماء. واختنق الضحك فى حلقه وهو ينظر إلى أسنانه.

وغمغم «سانيارى» وكأنه سيحتج، لكنه لم يحتج، إذ نظر «يوسف» فى عينيه مباشرة نظرة عدوانية ثم تقدم خطوة فأشاح «سانيارى» بوجهه عن «محمود» ونكس رأسه.

وضحك «يوسف» ثانيةً وهو يضرب «محمود» بكعب بندقيته مرة أخرى. هذه المرة ضربه فى ضلوعه.

ونظر «محمود» إلى فوهة البندقية وود لو أسعفته شجاعته للبصق عليها. وببطء وتردد فتح فمه ليبتسم ابتسامة مصطنعة.. ابتسامة غارقة فى الدماء. وقال وأومأ برأسه «يوسف»: «جيد.. جيد جدا».، ثم لوح لرشيد فظهرت الكاميرا ثانية ، وبرق الفلاش فى عينى «محمود».

وحين رأى «يوسف» الصورة ابتسم وأومأ برأسه وقال مسرورًا: «هذا ما نحتاجه للخطوة التالية. سوف يستمعون إلينا الآن».

بعدها أخذ «سانيارى» «محمودًا» إلى الغرفة الصغيرة فغسل له وجهه ليزيل عنه آثار الدماء. كانت أصابعه رقيقة حانية كأنه يخشى أن يؤلم محمودًا، وقال له: «هل تشعر بالألم؟»

فقال «محمود» كاذبًا: «لا»

كان فمه قد تورم، وكان الألم حارقًا. وكان يشعر بشعور غريب حين يمر الهواء من الفتحة التى خلفها انكسار أسنانه وهو يتنفس.

وقال «سانيارى»: «ربما كان من الأفضل أن تأخذ شيئًا من الدواء، فقد تشعر بالألم لاحقًا».

وذهب ثم عاد حاملا قرصًا أبيض اللون وكوب ماء، لكن «محمودًا» ظل ينظر إلى القرص والكوب فوق المنضدة دون أن يقربهما. فأى دواء يمكن أن يعطيه إياه هؤلاء؟

لكنه قرر فى النهاية أن يتناول الدواء.. أيا كان.

ومد «سانيارى» يده بقطعة من القماش وضعها تحت ذقن «محمود» وهو يشرب كيلا يتساقط الماء الذى كان يسيل من فمه على ثيابه.

وقال «محمود»: «ماذا سيفعل «يوسف» بالصورة؟»

فأشاح «سانيارى» بوجهه عنه وقال: «سيستخدمها لإخافة أسرتك.. حتى إذا ما خافوا بما فيه الكفاية دفعوا لإنقاذ بقية أسنانك».

وحاول «محمود» أن يتخيل «جى-رى» حين ترى الصورة فلم يستطع فلم تكن تتراءى له إلا مبتسمة، وكان على يقين من أنها لن تكون مبتسمة أبدًا وهى ترى فمه الممتلئ بالدماء.

ثم قال بحزم: «لن تدفع أسرتى لكم».

كانت شفتاه متورمتين حتى إن النطق بتلك الكلمات القليلة قد آلمه كثيرًا، لكنه أجبر نفسه على مواصلة الحديث فقال: «من الخطأ الإذعان للأشرار».

فنظر «سانيارى» إليه بحزن وهز رأسه. كان كلاهما يعلم أن هناك فارقًا شاسعًا بين ما ينبغى أن يحدث.. وما يحدث فعلا فى الحياة.

عابدى

وصلت الصورة الثانية فى صباح اليوم التالى، لكنها لم تصل بنفس الطريقة المفاجئة الصادمة، فلو أن الخاطفين قد حاولوا تكرار ما فعلوه بالأمس لدارت معركة حامية هذه المرة.

كانت «ساندى» غاضبة جدا لفشل الحراس فى السيطرة على الموقف بالأمس، إذ كنت أسمعها تصيح فى وجه «ديفيد» بينما كنا ننظر إلى الصورة، وكانت تقول: «أنا أدفع مبالغ فلكية.. وما المقابل؟ لا شىء! أى بلطجى يمكنه أن يأتى إلى هذه القرية دون أن يوقفه أحد. كان من الممكن أن يقتلونا جميعًا».

وكان من الواضح أن «ديفيد» يحاول تهدئتها فقد سمعته يقول لها بهدوء: «لم يطلقوا النار إلا فى الهواء، وأنا متأكد أنهم لو كانوا حاولوا إطلاق النار علينا حقا فإن حراسنا..».

لكن «ساندى» لم تكن مهتمة بمعرفة ما كان من الممكن أن يفعله حراسنا فى تلك الحالة، إذ إنها أرسلت «ديفيد» للحديث معهم، ثم وجهت إليهم كلمة، بعد أن اعتلت صخرة حتى يراها الجميع.

قالت:

– لقد اختطف قريب «سليمان» الصغير، لكننا لا نعلم أين هو، ولا ما يريد الخاطفون أن نفعله الآن. كل ما نعرفه هو أنهم يريدون مالا كثيرًا. وسوف نحاول جمع المبلغ المطلوب إلى أن يتصلوا بنا ثانية ، وسأحرص على أن يكون حراسنا على أهبة الاستعداد تحسبًا لعودة الخاطفين!»

كان تعبير وجهها شديد التجهم، وبينما كان «سليمان» يترجم ما قالت أخذت هى تنظر حولها فى أرجاء المكان وقد ضيقت عينيها وكأنها تجرى بعض الحسابات فى ذهنها، وما إن انتهت الترجمة حتى قفزت من فوق الصخرة وشرعت تتحدث مع «سليمان» بسرعة وبصوت منخفض وهى تشير يمينًا ويسارًا حتى يقترب الآخرون ويصغوا إليها. وقبل أن يحل الظلام كانت قد توصلت إلى خطة مفصلة للعرض.

ولم أكن قد فكرت أبدًا فى العرض نفسه. ولماذا أفكر؟ ليس العرض إلا مجموعة من الفتيات، يمشين الواحدة خلف الأخرى وقد ارتدين ثيابًا غريبة باهظة الثمن، فهل يحتاج هذا إلى أى تنظيم؟ لا شىء يستحق الإعداد سوى المسائل التقنية الخاصة بالبث الحى.

ولكن ما إن أشرقت شمس الصباح التالى حتى بدأت أكتشف كم كنت مخطئًا فى اعتقادى هذا.

كان الأمر أشبه بالإعداد لعمل مسرحى ضخم، فرغم أن مدة العرض لم تكن لتتجاوز العشرين دقيقة فقد أصرت «ساندى» على إقامة ممشى خشبى على أكمل وجه، كما أصرت على أن تظل الفتيات اللواتى سيقمن بوضع

الماكياج للعارضات فى تدريب مستمر حتى يصلن إلى أقصى حد من الإتقان، وكان من الضرورى -كما أوضحت «ساندى»- أن ينتهى كل شىء فى الموعد المحدد حتى يتفرغ الجميع للبروفة النهائية.. بروفة العرض نفسه.

ولم تكف «ساندى» عن تأكيد أهمية التوقيت، فكانت تقول: «التوقيت مهم جدا.. بل أمر جوهرى، فالناس فى لندن لن يشاهدونا إلا من خلال الشاشة، وهكذا فلو طال العرض أكثر من اللازم أو كان إيقاعه بطيئًا فسرعان ما سيمل الناس ويتوقفون عن المشاهدة قبل النهاية».

وفى دقائق، وبتوجيه منها، كان الجميع يروحون ويجيئون دون توقف فى كل مكان، إذ أمرت «أمينة» بأن تلازم النجارين الذين كانوا يقيمون المشى كى تقوم بالترجمة، كما ذهب «سليمان» مع بعض فنيى الكمبيوتر الذين جاؤوا من إيل لتدبير أمر البث المباشر. وأردت أن أرافقه لكن «ساندى» لم تدعنى أذهب معه إذ قالت: «زوى فى حاجة إلى مترجم.. ولم يبق سواك».

ولابد أن وجهى قد عكس ما شعرت به وأنا أقول: «ألا تستطيع خديجة..».

إذ قاطعتنى «ساندى» قائلة : «لا.. لا تستطيع، فهى مفتاح العرض كله ولا أريدها أن تتشتت».

ووجدت نفسى أقول فى نفسى: «آه لو تعرفين أنها مشتتة بالفعل!»، لكننى لم أجرؤ على قول كلمة واحدة، بل مضيت أجرجر قدمى نحو المنضدة التى كانت «زوى» تضع فوقها معداتها.

ولوحت «زوى» بيدها حين رأتنى وقالت: «مرحبًا أيها العابس! يبدو أنك غير متحمس للمساعدة. ألا تعلم أن ما نفعله نوع عظيم من أنواع الفنون؟ ينبغى أن تجرب بنفسك».

ولم تفهم النساء ما قالته «زوى» لكنهن بالطبع فهمن تعبير وجهى، حتى إنهن غرقن فى الضحك قبل أن أجد الفرصة للرد ولو بكلمة.

ووجدتهن يقلن: «ما رأيك فى أن نضع لك بعض الماكياج؟»، وقالت أخريات: «تعال هنا وسنجعلك جميلا جدا».

وأردت أن أقول شيئًا لاذعًا ذكيا ردًا على سخريتهن، كما أفعل عادة مع الفتيات فى المدرسة، لكنهن كن يتحدثن بسرعة بالغة ولم أفهم نصف حديثهن تقريبًا فلم يكن أمامى سوى أن أجاريهن فى الضحك، والتظاهر بأننى لا أبالى.

ودقت «زوى» المنضدة بيدها لاستعادة انتباههن وقالت: «حسنًا يا جماعة.. فلنبدأ العمل.. إن أساس إطلالة هذا العرض هو العيون»، ثم نظرت إلىّ كى أترجم، قبل أن تضيف: «كل العارضات ينبغى أن يكون مكياجهن واحدًا، لذا سأشرح لكنّ ما ينبغى فعله أولا بطريقة عملية بأن أضع الماكياج لإيميلى، ثم تقلدننى أنتن.. اتفقنا؟»

وترجمت كلامها قدر استطاعتى، وحاولت أن أغض الطرف عن الابتسامات التى كانت ترتسم على وجوه النساء كلما أخطأت فى ترجمة شىء ما.

ثم تراجعت خطوة بعد أن انتهيت، ولكن «زوى» قالت وهى تهز رأسها: «لم ننته بعد فسوف أوجه إليهن بعض التعليمات أثناء وضع الماكياج».

كان ذلك كابوسًا بالنسبة لى إذ بدأت «زوى» تحدثهن عن كل شىء من الأشياء الموجودة أمامها على المنضدة، وأنى لى أنا أن أعرف المرادفات الصومالية لأسماء تلك الأشياء؟ أنى لى أن أستطيع ترجمة كلمة «آى لاينر» بالصومالية؟ أو كلمة «رموش صناعية»؟ واضطررت لاختراع أسماء ثم تذكرها كلما احتجت لتكرارها، وكلما عقدت الأمور ارتفع ضحك النساء.

ثم بدأت «زوى» تريهن ما ينبغى عليهن فعله، وكان ما فعلته مختلفًا كل الاختلاف عن أى شىء أعرفه عن وضع الماكياج، فقد بدت «إيميلى» مبهرة جدا حين انتهت «زوى» من تزيين وجهها، لكننى لم أكن لأقترب قط من فتاة رموشها زرقاء وجفونها على هيئة مثلثات ذهبية اللون.

بعدها ازدادت الترجمة صعوبة، فما إن بدأت النساء يتدربن على وضع الماكياج للفتيات الأخريات حتى انهمر سيل غير منقطع من الأسئلة من أفواههن.. ووجدت نفسى مضطرًا إلى الهرولة بينهن، والنظر إلى وجوه الفتيات لعلى أفهم ما يحاولن فعله بهن مما قد يسهل الترجمة.

وبعد حوالى ساعة جاءت «ساندى» لتفقد سير الأمور. كانت تقف بجوارى مباشرة، تتأكد من لون حاجبى أحد العارضات حين نظرت العارضة خلفها وقطبت فجأة. ثم قالت بتوتر : «من هذا؟ إنه ليس.».

فتوقف العمل ونظر الجميع إلى حيث كانت تنظر. كانت سيارة الخاطفين التى رأيناها بالأمس تتقافز فوق أرض الطريق مقبلة نحونا.

وران صمت كصمت القبور، لم يقطعه سوى ذلك الصوت المعدنى.. صوت البنادق التى تستعد للإطلاق.

كان حراسنا لا يتركون أسلحتهم عادة ، أما فى ذلك اليوم فقد كان كل رجل صومالى يحمل سلاحًا فى يده، بل إن «طونى مورلن» نفسه، ذلك المتلصص، اتضح أنه كان لديه مسدس فى حقيبته. ومد «سليمان» يده تحت سترته وأخرج شيئًا من حامل جلدى كان معلقًا فى كتفه، وسمعت «ساندى» تحبس أنفاسها حين رأته يفعل ذلك.

لكن السيارة الجيب لم تقترب بما يكفى لتكون فى مرمى أسلحتنا، بل توقفت قبل أن تصل إلى القرية، وترجل منها شخص ما وشرع يسير نحونا. كان ضئيلا محدودب الظهر.. وبطيئًا..بطيئًا جدا.

وبينما كان يقترب ببطء بدأت ملامحه تتضح ، فاكتشفنا أنه كان امرأة عجوز تتكئ بكل ثقل جسدها على عصا وهى تسير. كانت طاعنة فى السن.

وغمغمت «زوى» قائلة: «هل هذه خدعة ما؟»

ولم يرد أحد. كانت الفتيات الصوماليات يراقبن ما يجرى باهتمام وقلق، وكنت أسمع أصوات تنفس العارضات السريعة المتلاحقة.. كن يتنفسن بصعوبة وكأنهن على وشك الاختناق. وحدقنا جميعًا فى العجوز الآخذة فى الاقتراب.. وهى تسير خطوة خطوة وكأنها تتألم وتعانى مع كل خطوة تخطوها.

وقالت «ساندى» فى نفاد صبر: « لا يمكننا أن نظل،واقفين هكذا كالأغبياء.. ينبغى أن نعرف فيم كل هذا؟»

ثم أخذت تبحث بعينيها عن «سليمان»، لكنه كان يقف بعيدًا فى الجانب الآخر من الممشى الخشبى، وكان يتحدث بصوت منخفض إلى «ديفيد»،

وترددت «ساندى» للحظة ثم هزت رأسها ونظرت إلىّ وقالت باقتضاب: «تعال»، ثم شرعت تسير دون أن تنتظر إجابتى، وكأنها على يقين من أننى سأتبعها.

وهل كان بوسعى أن أفعل شيئًا غير ذلك؟ كانت «ساندى» فى حاجة إلى من يساعدها لفهم ما تقوله العجوز.

وما إن اجتزنا حدود القرية حتى مدت «ساندى» ذراعيها لأعلى وفتحت كفيها كى يرى الرجال أنها لا تحمل سلاحًا. ووجدت نفسى أحذو حذوها دون تفكير. ربما يبدو الأمر وكأنه لعبة، أو تقليد لما يحدث فى الأفلام، لكن صدقونى، كان ما أشعر به حقيقيا ومخيفًا. كان الرجال القابعون فى السيارة الجيب لا يزالون يصوبون أسلحتهم إلينا، وكان من المؤكد أننا سنصير فى مرمى تلك الأسلحة حين نصل إلى العجوز.

وحين رأتنا العجوز قادمين توقفت واتكأت على عصاها لترتاح. واقتربنا أكثر فرأيت الغضون التى تملأ وجهها ولمعان عينيها الشديد. وظلت تراقبنا فى ثبات حتى توقفنا على بعد متر واحد منها.

ثم قالت: «السلام عليكم».

فقلت: «وعليكم السلام».

وكررتها «ساندى» خلفى وقد وضعت يدها على صدرها وانحنت فى احترام.

عندئذ مدت العجوز يدها بين طيات غطاء رأسها وأخرجت ظرفًا، وقالت: «ساندى دكستر؟»

كانت لكنتها غريبة، لكن الكلمات كانت شديدة الوضوح.

فاقتربت «ساندى» منها لتأخذ الظرف الذى ما إن صار فى يدها حتى قفلت العجوز عائدة ببطئها الشديد إلى السيارة، وقلت: «لنذهب من هنا»، واستدرت وبدأت أسير، إلا أن «ساندى» لم تتبعنى. وحين التفت إليها وجدتها واقفة فى مكانها كالتمثال، تحدق فيما أخرجته من الظرف.

وعدت إليها لأحضرها وأنا أقول: «هيا.. ليس المكان آمنـًا هنا. يمكن لهذا أن ينتظر حتى نعود إلى داخل القرية».

لكنها لم تتحرك قيد أنملة بل مدت يدها بالصورة التى كانت تمسك بها بحيث يمكننى أن أراها.

كانت صورة لنفس الصبى.. «محمود» شقيق «خديجة»، لكن هذه المرة كانت اثنتان من أسنانه الأمامية قد انكسرت، وكان فمه ينزف من ثلاثة مواضع مختلفة. وكان يبدو عليه الذهول والرعب.

وكانت هناك قصاصة ورقية ملتصقة بالصورة مكتوب عليها أربع كلمات «عشرة آلاف دولار غدًا».

وقالت «ساندى» بصوت واهن: «ماذا أفعل؟»

لم تكن توجه حديثها إلىّ بالطبع لكننى أجبتها قائلا: «ألا يمكن أن تكون الصورة مزيفة؟»

فقالت «ساندى» بجفاف: «يمكنهم أن يزيفوا موضوع الأسنان أما نظرة الهلع فى عينيه فلا».

ثم استمرت تحدق في الصورة وكأنني غير موجود، قبل أن تغمغم بعد دقيقة قائلة : «هل تعلم أسوأ ما في الأمر؟ يمكنني دفع المبلغ المطلوب غدًا ولن يسبب لي ذلك أي مشكلة، لكن إن فعلت ذلك فما الذي سيحدث لمن سيخطفونه بعده؟ لابد من وقفة حاسمة».

ثم ضحكت ضحكة واهنة خالية من السرور، وقفلنا عائدين إلى القرية. ظللت واقفًا للحظة أحدق لكن عواء السيارة التي دار محركها استعدادًا للرحيل أيقظني وجعلني اتبع «ساندي» مهرولاً بينما كان الخاطفون يضحكون من خوفي.

خديجة

عدنا أنا و«فيريا» إلى منزل «نور» ثانية لنختبئ من «طونى مورلن». لكن الصمت دفعنا للخروج هذه المرة، إذ فجأة وفى ثوانٍ خرست كل ضوضاء الأصوات فى الخارج .. أصوات الناس وهم يثرثرون، والنجارين وهم يقطعون الأخشاب ويدقون المسامير، وغرق المكان فى الصمت دون مقدمات.

وحين نهضت نظرت «فيريا» إلىّ فى توتر وقالت: «لابد من توخى الحذر فربما كان هؤلاء الرجال قد عادوا».

فقلت: «لهذا علىّ أن أخرج. ينبغى أن أعرف إذا ما كانوا هم أم لا».

لكنها جذبتنى من طرف ثوبى لتمنعنى وقالت: «إذن لن تذهبى وحدك.. انتظرينى».

ثم نهضت فى تردد وشدت غطاء رأسها فى نفاد صبر لتسويه، وقالت: «سنذهب معًا».

حين وصلنا إلى وسط القرية تقريبًا كان «عابدى» و«ساندى» قد بدآ التوجه إلى السيارة الجيب بالفعل، وحين رأتهما «فيريا» حبست أنفاسها وانطلقت تجرى.

لكن والدها كان يراقبها، وما إن جرت قليلا حتى كان إلى جوارها يمسك بذراعها ويقول بصوت منخفض: «لا تفعلى أى شىء. إذا أخفناهم فربما بدءوا يطلقون النار».

فقالت «فيريا» بمرارة: «كيف تركتها تذهب؟ أين كان عقلك حين سمحت لها بذلك؟»

فقطب والدها وقال: «لم أكن أعرف ما ستفعل. لم أعرف إلا بعد فوات الأوان.. لكنها على أى حال تصرفت بحكمة حين أخذت «عابدى» معها».

ورأيت «عابدى» يسير إلى جوارها بقامته المديدة المشدودة، وشعرت بالفخر والخوف فى الوقت نفسه، وكأنه كان أخى حقـا.

لكننى لم أكن خائفة عليه كخوفى على «محمود». وحبست أنفاسى طوال الفترة التى كانا فيها واقفين مع العجوز، وما إن عادت فاستقلت السيارة التى انطلقت بأقصى سرعة حتى اندفعتُ كالسهم..

ولم أكن وحدى التى تعدو، بل كنا جميعًا نعدو. «فيريا» ووالدها وأنا، لكننى كنت فى المقدمة، أمامهما. كنت أكاد أموت لهفة لمعرفة ما يحدث.

ولم أنتظر حتى أصل بل قلت بمجرد اقترابى من «عابدى» و«ساندى»: «ماذا يريدون؟ هل هناك رسالة أخرى؟»

فقالت «ساندى»: «إنهم يطلبون فدية». وكان صوتها صارمًا جافـًا ونبرتها باردة وهى تضيف: «يقولون إنهم يريدون المال غدًا لكنهم لم يذكروا أى شىء عن تفاصيل عملية تسلم المبلغ، لا الطريقة ولا المكان». ثم طوت الرسالة ووضعتها فى جيبها وقالت: «ليس أمامنا إلا الانتظار حتى تصل الرسالة التالية والاستمرار فى العمل على إتمام العرض».

فقال والد «فيريا»: « هل أنت متأكدة؟ هل فكرتِ فى..»

فرفعت «ساندى» رأسها عاليًا وقالت بحزم: «سنستمر فى الإعداد للعرض. ربما لن يعودوا قبل انتهاء العرض أصلا».

وقالت «فيريا» : «لا تكونى سخيفة، بل سيستغلون موضوع العرض للضغط عليك. من المؤكد أنهم يعرفون سبب وجودنا هنا».

فصاحت «ساندى» بحدة: «آه لو أعرف فقط من الذى أخبرهم» ثم استمرت فى السير نحو القرية دون انتظار بقيتنا. وتبعتها «فيريا» ووالدها.

ونظرت إلى «عابدى» وقلت: «أليس هناك أى أخبار عن محمود؟»

فتردد لدقيقة ثم هز رأسه وقال: «لا شىء سوى طلب الفدية، لكن «ساندى» أخبرتنى.».

ثم توقف دون أن يتم جملته.

فقلت وقد عيل صبرى: «تكلم.. بم أخبرتك ساندى؟»

فصمت لثانية، ثم اندفع يقول: «أخبرتنى بأنها يمكنها دفع المبلغ إذا شاءت فلديها مال كثير، لكنها لا تظن أن هذا ما ينبغى فعله».

– ليس هذا ما ينبغى فعله؟ لا ينبغى إنقاذ حياة «محمود»؟

والتفت وكدت أجرى نحو «ساندى» كى أقنعها، لكن «عابدى» قال بحدة: «لا.. إذا حاولتِ الحديث معها فستشعر بالريبة لاهتمامك بالأمر، وستحدس أن الخاطفين يعرفون هويتك. ينبغى أن نثق فى «سليمان» وندعه يتصرف معها».

ثم ابتعد هو أيضًا وعاد إلى «زوى» والماكياج، ولوحت «زوى» لى وهى تدعونى للانضمام إليهم، فذهبت وجلست على مقعد من مقاعدها وحاولت ألا أفكر فى «محمود».

قالت «زوى»: «أحتاج للتدرب على رسم عينيك. لن يكون الأمر سهلا مع وجود نقاب على وجهك، لكن يمكننى أن أقنع «ساندى» بأن تدعك تنزعينه».

لا يهم.. لا شىء يهم. كنت أشعر وكأننى فى حلم غريب، لا يكترث فيه أحد للأشياء الحقيقية، بينما التفاصيل التافهة تقلب كل شىء رأسًا على عقب. أخى اختطفه رجال قساة غلاظ الأكباد، لكن يبدو أنه لا أحد يعبأ عاش أم مات. الشىء الوحيد المهم هو كيف ستبدو عيناى بعد رسمهما. وتجمعت النسوة ليشاهدن كيف ستنجز «زوى» تلك المهمة، ولزمت مكانى وتجمدت كالتمثال بينما كانت تشرح ما تفعله، و«عابدى» يترجم ما تقول بصومالية متعثرة مكسرة.

«سوف نضع لها نفس الماكياج الذى وضعناه للجميع تقريبًا لكننى سأحاول أن آخذ حذرى وأنا أعمل حتى لا يتلطخ النقاب، كما ينبغىً أن أبالغ فى إبراز الإطلالة وأحرص على وصولها للمشاهدين فى المنازل.. لاسيما اللون الذهبى».

أموال طائلة تنفق على تلك التفاهات. أين عقل هؤلاء الناس؟

ومالت «زوى» للأمام وهى تمسك بفرشاتها الصغيرة وقالت: «سأضع طبقة سميكة جدا من اللون الذهبى. نحتاج إلى لمسة ذهبية أخرى هنا.. وهنا..»

لم يكونوا يكترثون لأى شىء عدا الذهب.

فيريا

لم تتقاعس «ساندى» ولو لثانية طوال اليوم فى تنفيذ خططها. لم تتنازل عن تصوراتها، ولم نتوقف عن العمل إلا مضطرين، وذلك حين حل الظلام أخيرًا ونال التعب من الجميع، وقدمت لكل منا وجبة من الأرز مع يخنة مليئة بالبهارات والتوابل والتهمناها ونحن عاجزون تمامًا عن الكلام أثناء الأكل من فرط التعب، ثم توجهنا من فورنا إلى أماكن نومنا.

لكن النوم لم يكن سهلا فقد كان الجو خانقًا شديد الحرارة، والأرضية قاسية. كنا ننام أنا و«خديجة» متجاورتين فى الظلام، بجانب «نور» و«أمينة»، وكنا متلاصقات حتى إنه لم يكن بإمكاننا أن نتقلب دون مضايقة بعضنا البعض. كانت «خديجة» تنام ساكنة هادئة، لكننى كلما كنت أصحو كنت أعلم أنها هى أيضًا مستيقظة رغم سكونها.

وعند منتصف الليل تقريبًا توقفت عن التظاهر بالنوم، وتقلبت بحيث صار فمى قرب أذن «خديجة» وهمست: «ما رأيك فى الخروج قليلا؟»

فأومأت وجلست ومدت يدها لإحضار النقاب، فقلت: «من الذى يمكن أن يراكِ الآن؟»

فتركت النقاب فى مكانه، وانسللنا من الباب ثم درنا فذهبنا إلى خلف البيت. كان الهدوء مخيمًا على المكان، وكنا محجوبتين عن القرية كلها.

كنت أتوقع أن أرى النجوم تزين السماء فى منظر رائع كما يقول عادة من يكتبون كتب الرحلات، لكن السماء كانت مظلمة حالكة الظلمة لا أثر للنجوم فيها. كان الظلام دامسًا لدرجة أننى لم أكن أرى وجه «خديجة» حين مالت لتستند بظهرها إلى الجدار.

وقلت لها: «هل أنتِ قلقة بشأن العرض؟»

– ماذا؟

بدت حيرى وكأن هذا الموضوع لم يخطر لها على بال قط، ثم قالت: «ولماذا أقلق إذا لم يكن علىّ سوى أن أسير جيئة وذهابًا؟»

–هل أنتِ إذن قلقة بسبب موضوع الصبى المخطوف؟ قريب والدك؟ هل تعرفينه جيدًا؟

وساد صمت طويل، ثم قالت أخيرًا: «نعم.. أعرفه.. أعرفه جيدًا».

كان صوتها يرتعش فلمت نفسى بشدة لأننى سألتها مثل هذا السؤال. لكننى تذكرت كيف كان صوت «بن» يرتعش فى المدرسة حين يُذكَر اسم «أليس».. تذكرت أن «بن» كان فى تلك الأوقات يريد الحديث عن «أليس».

فقلت بحرص: «اسمعى..لستِ مضطرة لقول أى شىء، لكن إذا ما كنتِ ترغبين فى الكلام فتأكدى أننى لن أذيع ما ستقولينه لمخلوق. هذا وعد».

ولدقيقة، بل ربما لأكثر من دقيقة، لم تنطق «خديجة» بحرف. خيم الصمت تمامًا وسكنت جميع الأصوات، عدا أصوات الناس وهم يتقلبون فى نومهم. وبدأت أشعر بأننى أخطأت حين قلت لها ما قلت. فلماذا يمكن أن تثق بى أنا؟

لكنها وثقت بى.. ففجأة وبدون مقدمات بدأت تتحدث، وكان صوتها واهنًا جدا حتى إننى اضطررت لأن أميل نحوها كى ألتقط الكلمات بأذنى.

- ليس قريبًا لوالدى، بل هو أخى.

وظننت أننى لم أسمع ما قالته حقا فقلت: «الولد المخطوف.. أخوكِ؟»

- أخى الوحيد.. ابن أبى وأمى.

كنت أستطيع أن أرى جانب وجهها الآن، وكانت الظلال تكسوه وتحجب ملامحه وهو يلوح أمام السماء، وقالت: «وليس لدى والدىّ المال الكافى لافتدائه. ليس لمحمود الآن أمل فى النجاة إلا عن طريقى».

ثم قصت علىّ قصة طويلة لم أفهمها جيدًا، لكن المرء لا يجرؤ على طرح الأسئلة وهو يسمع قصة بهذه الخطورة، بل ينتظر ويصغى.

ومر وقت طويل قبل أن تتحدث ثانية. وحين تحدثت أخيرًا كان صوتها أجش خشنًا كورق الصنفرة، وكأنها تحك الكلمات حكا لتنتزعها من داخل نفسها.

وقالت: «بطريقة ما عرف هؤلاء الرجال بأننى سأعمل عند «ساندى» فاختطفوا «محمودًا».. يقول «سليمان» إنه ينبغى ألا أخبر «ساندى» لأنها ستغضب، لكن هل يمكنها أن تكون بهذه القسوة؟ ألن تفهم موقفى وتساعدنى إذا ما عرفت أنه أخى؟»

كنت أعرف ذلك الشعور..أن يشعر المرء بأن «ساندى» هى خلاصه الوحيد، ويعلق كل آماله عليها وعلى ما يمكن أن تفعله، إذا ما أرادت أن تفعله. كان بودى أن أقول لها كلامًا مطمئنًا لكنني لم أكن متأكدة إلا من شيء واحد.

فقلت: «لن تشغل «ساندى» بالها بأى شيء حتى ينتهى العرض فكل اهتمامها منصب عليه الآن، وإذا ما نجح العرض.. نعم..ربما تساعدك.. فأحيانًا تكون كريمة طيبة جدا».

فقالت «خديجة»: «لكن ربما يكون الأوان قد فات عندئذ، عندئذ. عليّ أن أحدد ما ينبغى فعله، لكن ماذا لو اتخذت قرارًا غير حكيم؟»

كيف أجيبها؟ لم نتحدث كثيرًا بعد ذلك، بل ظللنا واقفين جنبًا إلى جنب نراقب السماء الآخذة فى الشحوب، وحين لاح فى السماء ما يكفى من الضوء كى ترى كل منا وجه الأخرى شدت «خديجة» قامتها ورفعت رأسها وقالت: «وقت تغطية وجهى قد حان».

ثم عادت إلى المنزل، وفى خلال نصف ساعة كانت «ساندى» قد استيقظت وشرعت توقظ الجميع. كانت تنتقل من منزل إلى منزل وتصيح قائلة : «ليس أمامنا سوى خمس ساعات قبل البث المباشر. اخرجوا بأقصى سرعة.. نحتاج إلى التأكد من أن كل شيء على ما يرام، كما نحتاج للتدريب».

إن القيام ببروفة كاملة يعد من قبيل البذخ فى حالة عروض الأزياء العادية، لكن هذا العرض لم يكن عاديا. وفى غضون ساعة كان الجميع فى أماكنهم وكانت العارضات يتبخترن رائحات غاديات وقد غطين وجوههن

وأجسادهن بكريم الوقاية من الشمس، وكن يحاولن أن يبدون هادئات مطمئنات مرتاحات.

كان المشى يمتد من طرف القرية إلى وسطها، وينتهى بمنصة صغيرة مربعة بحيث تدور العارضات حين يصلن إليها ويواصلن السير. وقد وضع أبى كاميرته فوق تلك المنصة بحيث لا يظهر فى لقطاته سوى المشى نفسه والقرية من خلفه. وهكذا فبينما كانت العارضات يمشين نحو الكاميرا كانت ثيابهن تبدو أمام خلفية من الأرض المحمرة الجرداء تعلوها السماء الممتدة. وهذا ما كان الناس سيرونه فى لندن.. لقطات أنيقة رائقة توحى بالانفتاح والامتداد والرحابة والهواء الطلق.

أما بقية المكان فقد كان فوضى، فكل ما يفترض أن يكون فى الكواليس كان أمام أعين المارة.. أدوات التجميل والأحذية والفرش والأمشاط وعلب مليئة بالدبابيس والإبر وجميع أنواع الخيوط تحسبًا للطوارئ.

وكانت الثياب معلقة على مشاجب طويلة فى العراء، وكل ثوب معه أكسسواراته. وكانت هناك صورة مع كل ثوب توضح كيف يبدو الطقم كله، وكانت «أمينة» منهمكة فى توضيح المطلوب من الفتيات اللواتى سيساعدن العارضات فى ارتداء الثياب. وكانت تؤكد لهؤلاء المساعدات أن عليهن أن ينجزن عملهن بسرعة.

ثم التفتت فجأة وهى مقطبة وقالت: «أين المنازل التى ستبدل الفتيات ملابسهن فيها؟»

وكانت «ساندى» منهمكة فى تفقد الثياب، لذا لم تستوعب ما قالت «أمينة» إلا بعد وقت، وحين استوعبتها رفعت رأسها وقد شرد ذهنها وقالت: «ماذا تعنين؟؟؟»

أهم شيء فى عروض الأزياء أن تكون الحركة على المشى سلسة وأن تتغير الإضاءة بسرعة وبراعة. وهكذا فما إن تنزل العارضات من على المشى حتى تهجم المساعدات عليهن يساعدنهن فى خلع ما يلبسنه وارتداء غيره بسرعة. ويكون هناك دائمًا أناس كثيرون يروحون ويجيئون لكن لا أحد يهتم بهذا، أما فى هذه المرة فقد كانت منطقة الكواليس مكشوفة للعيان، وقد افترضت «ساندى» أن الجميع- عدا «خديجة» - سيغيرن ثيابهن فى منطقة الكواليس تلك.

وحين التفتت فرأت الصدمة على وجه «أمينة» كان رد فعلها سريعًا إذ قالت باقتضاب: «فلنضع ساترًا يا سليمان..اجعل الرجال يحجبون منطقة كى تغير الفتيات ثيابهن فيها، ولتكن قريبة قدر الإمكان من المشى، وليست فى مرمى عدسة الكاميرا».

ولم أعتقد أن شيئًا فى القرية كلها يمكن استغلاله كساتر، لكننى كنت مخطئة، ففى خضم العمل القائم على قدم وساق قام النجارون بتفكيك المنازل الواقعة عند أطراف القرية، والتى كانت مصنوعة من فروع الأشجار والحصر، وحمل الرجال الحطام إلى وسط المكان وبدءوا يبنون غرفة تبديل الملابس. كانت غرفة لا سقف لها.

وكأن هذا كله لم يكن كافيًا لإثارة جنون الجميع، فقد ظل «طونى مورلز» يتقافز هنا وهناك ويلتقط الصور. وكنت أتوقع أن يتعثر فيه الناس

أو أن يصطدموا به لكنه كان يتحرك بخفة ورشاقة كبيرة على نحو يثير الدهشة. وقد قضيت معظم اليوم أحاول حماية «خديجة» منه.

لم يكن يومًا سهلا بالنسبة لخديجة التى لم تكن سترتدى سوى ثوبين فى هذا العرض.. واحد فى الافتتاحية والثانى فى الختام، وبالتالى كان لديها وقت طويل للتفكير والقلق. ولم يكن هناك جدوى لهذا فناديتها كى تذهب إلى أبى.

كان أبى يتحدث مع «ماركو» عبر القمر الصناعى. لم ننجح فى تشغيل المعدات التى أحضرناها معنا للبث المباشر فى الحال، لكنهم نجحوا أخيرًا فى الاتصال بلندن وكان هناك أربعة رجال يجرون هنا وهناك حاملين الكاميرات والكابلات ويتفرجون على نتيجة عملهم على شاشات تلفزيونية منتشرة فى المكان.

كان أبى يقول بهدوئه الذى يتمسك به فى أكثر اللحظات إثارة للجنون: «انظر يا «ماركو» وقل لى ماذا ترى».

وصاح «ماركو» يرد عليه عبر الأربعة آلاف ميل التى تفصل بينهما. كان صوته عاليًا جدا حتى إننا- أنا و«خديجة»- استطعنا سماعه يقول: «هذا جنون..الموضوع كله جنون فى جنون. لقد قلت ذلك لساندى حين عرضت علىّ الفكرة. هل تعتقد أن «ساندى» قد بدأت تفقد عقلها؟ لا يمكنها حقا أن تتوقع أن..».

فهمست «خديجة» فى أذنى قائلة : «ألن ينفع بث العرض؟»

فهمست بدورى: «لا تقلقى مما يقوله «ماركو» فهو يحب الضوضاء».

نعم.. صحيح أنه كان يصرخ لكنه لم يكن يتجاهل تعليمات أبى. كنت أعلم أنه بينما كان يصرخ فإن عينيه كانتا بلا شك مثبتتين على الشاشة التى أمامه، تمامًا كما أن عينى أبى مثبتتان على الشاشة التى أمامنا.

وثبتت صحة كلامى بعد ثوان ، إذ توقف «ماركو» عن الصياح فجأة وقال بصوت يبدو فيه الرضا: «آآآه»، ثم «يا إلهى!.. هل المكان عندك بسيط وبدائى إلى هذا الحد يا ديفيد؟»

فقال أبى ساخرًا: «بالطبع لا.. هذه هى حديقة الصومال الوطنية التى تظهر تراث البلد الحضارى!»، ثم ضحك وقال: «أليس المنظر رائعًا؟»

فقال «ماركو»: «ليس سيئًا».

فأومأ أبى إيماءة لا تكاد تلحظ، ثم أضاف: «ليس سيئًا على الإطلاق. إننى أراه على الشاشة الكبيرة الآن، وهى تبدو رائعة!»

ثم التفتنا أنا و«خديجة» لنواجه الشاشات فرأينا «إميلى بيتس» (نعم.. «إميلى بيتس» الشهيرة. كان هذا أول عرض لها) تسير على الممشى نحونا وقد ارتدت بدلة مخططة ذات أكتاف عريضة وتغطى وجهها بنقاب صغير من نفس خامة حقيبتها. كان «ماركو» محقا. كانت فعلا تبدو رائعة.

وهمست قائلة لخديجة: «أليس هذا رائعًا؟»

ولم تجبنى فنظرت إليها لأرى ما الأمر. كانت تحدق فى الشاشات، وكانت عيناها تنتقلان بسرعة من شاشة إلى أخرى، وكانت تبدو مشمئزة.

فقلت لها: «ما الأمر؟»

وأجابتنى دون أن تنظر إلىّ قائلة : «كنت أفكر فى مدى سهولة نقل صورة واحدة على أكثر من شاشة. إذا كان الأمر بهذه السهولة هنا فربما كان بالإمكان فعله أيضًا فى أماكن أخرى.. مثلا فى .. مقهى للإنترنت؟»

– أعتقد أن هذا ممكن. لكن لماذا تشغلين بالك بهذا؟

لكنها لم تقل أى شىء، بل ظلت تحدق فى «إميلى بيتس» التى كانت تتبختر على المشى.

أيقظوا «محمودًا» مبكرًا وأعطوه بعض الأرز والموز ليأكل، ثم ربطوا كاحليه ومعصميه معًا وألقوه فى شاحنة، وكان «سانيارى» إلى جانبه تحسبًا لأى مشاكل قد يسببها، فقال: «إلى أين نحن ذاهبون؟ ما الذى يحدث؟»

لكن «سانيارى» لم يخبره بل ابتسم وبسط كفيه وقال: «لا تخف. أختك طيبة ولن تخذلك».

هل يعنى هذا أن «جى–رى» قد جمعت المال المطلوب لتحريره؟ وشعر «محمود» بالغضب والخوف من هذا، إذ لم يكن هناك– حسب تفكيره– طريقة شريفة لجمع مثل هذا المبلغ من المال.

وقال «سانيارى»: «لا تقلق»، ثم حمل سلاحه على كتفه ومال للخلف فاستند بظهره إلى جانب الشاحنة وأغمض عينيه ليتقى الشمس، ثم قال: «لسنا أشرارًا، بل نحن نحاول فقط فعل ما يمكننا فعله لنعيش. إننا نعيد للصومال بعض الأموال».

فغمغم «محمود» قائلا: «لكن هذا المال ليس حلالا».

فابتسم «سانيارى» دون أن يفتح عينيه وقال: «سوف تفهم كل هذه الأمور ذات يوم، أما الآن فعليك إطاعة أوامر «يوسف».. وإذا أطعته فلن أسمح لمخلوق بإيذائك».

كان «محمود» يريد تصديق تلك الابتسامة والبساطة التى يتحدث بها «سانيارى» عن الأمر والتى توحى بأنهما فى خندق واحد فى مواجهة العالم كله، لكنه كان يعلم أن هذا ليس حقيقيا فقد كان يرى لمعانًا يشع من فتحة صغيرة بين جفنى «سانيارى»، أى إن عينى «سانيارى» لم تكونا مغمضتين تمامًا، بل كان يراقبه خشية أن يباغته بأى محاولة للهرب.

حسنًا.. «محمود» أيضًا يستطيع التظاهر.

وهكذا أخذ يقلد «سانيارى» ويتظاهر بالنوم بينما كانت الشاحنة تتراقص فوق مرتفعات الطريق ومنخفضاته متجهة إلى الصحراء، لكنه كان أيضًا ينظر من فتحة صغيرة بين جفونه. كانت عيناه على سلاح «سانيارى». كان يخطط لاختطافه، ويتحين اللحظة المناسبة، فقد كان أحد أعمامه يملك سلاحًا كهذا وكان «محمود» يجيد استخدامه ويعرف جيدًا كيف يكون ملمس الزناد حين تضغطه الأصابع.

كل ما عليه فقط هو أن يكون مستعدًا.

عابدى

فى ذلك الصباح امتلأت القريةِ بمظاهر الحياة. حين وصلنا كنت أعتقد أننا سنجد أنفسنا فى منطقة ميتة لكن القرية كانت قد تحولت وتبدلت، وكان للحركة الدائبة فيها طنين وأى طنين!

كانت «ساندى» ماهرة فى تحويل أفكارها إلى واقع ملموس، لأنها كانت قادرة على بذل المال. أليس هذا ما قالته حين رأت الصورة.. صورة «محمود»؟ ألم تقل «يمكننى دفع عشرة آلاف دولار ولن تكون تلك مشكلة بالنسبة لى؟»

كنت أفكر فى المحادثة القصيرة الغريبة التى دارت بينى وبين «سليمان بالأمس.

فحين عدنا أنا و«ساندى» إلى القرية بالأمس انتظر قليلا ثم أشار لى بإصبعه إشارة سريعة، وحين وصلت إليه غمغم قائلا: «ممم.. هل ستدفع المبلغ؟»

فقلت مترددًا: «تقصد.. ساندى؟»

فرفع حاجبيه وقال: «ومن غيرها؟ ما الذى أعطته العجوز لها؟»

– لقد أعطتها صورة لشقيق «خديجة» .. صورة أخرى.. لقد ضربوه.

فبدا «سليمان» مندهشًا وهو يقول: «وهل آذوه؟»

– لقد كسروا له سنتيه الأماميتين وجرحوا شفتيه جرحًا بالغًا.

–إذن.. ليس هناك إصابات خطرة؟

وبدا الاطمئنان فى صوته، وفجأة قفز إلى ذهنى صوت «خديجة» وهى تقول إن هناك سلاحًا تحت مقعد «سليمان» فى السيارة.

وللمرة الأولى وجدت نفسى أتساءل إذا كان قد استخدمه. وظل «سليمان» يطرح الأسئلة

– حسنًا.. وماذا قالت «ساندى» حين رأت الصورة؟

فهززت كتفى وقلت: «قالت إن بإمكانها دفع المبلغ لكنها ترى أنه ليس من الصواب الرضوخ للخاطفين».

فبدا «سليمان» وكأنه يفكر ثم قال: «لكن هل غيرت رأيها؟»

وظننت أنه يسألنى سؤالا آخر، لكنه غير رأيه ومضى.

وفى الصباح التالى حين كنت واقفًا فى وسط القرية لم أكن أكاد أصدق أن «ساندى» قد رأت الصورة فعلا، فقد كان من الواضح أن تركيزها كله منصرف إلى العرض ولا شىء سواه. لم يكن يتبقى على موعد العرض سوى ساعة لكنها كانت لا تزال تدخل بعض التعديلات الطفيفة على الثياب، وعلى ترتيب ظهور العارضات.

وفجأة لم يعد هناك أى وقت للتجهيز.

وأخذت «ساندى» تدور هنا وهناك، ثم بدأت تصيح.

–عشرون دقيقة فقط .. سنكون على الهواء بعد عشرين دقيقة! أريدكم جميعًا فى أماكنكم، وأريد كل تركيزكم وانتباهكم. ليست أمامنا سوى فرصة واحدة. لا مجال للإعادة ولا تدارك الأخطاء. إذا فشلنا من البداية لن يصبر علينا الناس فى لندن ولن يمنحونا فرصة ثانية. فبدأ الجميع يتحركون فى الحال، فخرجت العارضات من منطقة تبديل الملابس ووقفن فى صف إلى جوار الممشى. كانت أثوابهن تتماوج وتخفق حول أجسادهن، واتصلت «أمينة» بماركو عبر القمر الصناعى، وتأكد الفنيون من إمكانية البث المباشر للمرة الثالثة، وظل «طونى»، ذلك المصور، يتقافز هنا وهناك ويلتقط الصور خلسة لكل ما يجرى.

ولما لم يتبق سوى عشرة دقائق جاءت «خديجة» فاتخذت مكانها أمام العارضات فى الصف. كنت أتوقع أن أراها ترتدى شيئًا مبهرًا لكن خاب ظنى فقد كانت ثيابها كئيبة سوداء من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، تمامًا كالثياب التى كانت ترتديها ونحن نغادر المنزل، لكن من قماش مختلف. لم تكن ثيابًا قبيحة أو غير محتشمة أو أى شىء من هذا القبيل، لكنها كانت.. عادية. بدا الأمر كله لى كجهد مهدر، إذ لماذا أتعبت «ساندى» نفسها وقطعت كل ذلك الشوط لاستغلال «خديجة» كعارضة أزياء إذا كانت ستجعلها تلبس ثوبًا كهذا؟

إلا أن ذلك لم يحبط «طونى مورلز».. كان يغنى مسرورًا ويتبختر متجهًا إلى «خديجة» ثم قال: «قفى مكانك لحظة يا «قرسون» لألتقط لك صورة هنا..وصورة أخرى...وصورة ثالثة».

واعتقدت أن تصرفاته ستجعل «خديجة» تتوتر ولكنها تصرفت وكأنها تتعامل مع مصورين عالميين طيلة حياتها، فوقفت حيث طلب منها أن تقف وأخذت تتحرك يمنة ويسرة بهدوء وطمأنينة بينما كان يتقافز حولها ليلتقط الصور. وظلت «فيريا» تحوم حولهما، غير بعيد منهما، متحفزة للانقضاض إذا ما حاول «طونى» ارتكاب أية حماقة، ككشف وجه «خديجة» مثلا.

وقالت «ساندى»: «لم يتبق سوى خمس دقائق. فليصمت الجميع الآن.. «أمينة» استعدى لتشغيل الموسيقى.. ثلاثة.. اثنان.. واحد..الآن..».

كانت موسيقى العرض الحقيقية سيتم تشغيلها فى لندن، لكن «أمينة» كان معها كل المقطوعات على جهاز آى-بود حتى تستطيع العارضات الحفاظ على الإيقاع وهن يسرن.. وما إن قالت «ساندى» : «الآن» حتى انسابت من الجهاز نغمات منخفضة سرعان ما وجدت طريقها إلى السماعات لتدوى فى أنحاء القرية.

ثم، ومن بعيد، سمعنا أصوات سيارة المختطفين التى كانت تسير بسرعة متجهة إلينا مباشرةً.

خديجة

التفتنا جميعًا لنرى ماذا هنالك وشخصنا بأبصارنا إلى ما وراء المشى، ثم إلى الصحراء الواسعة الممتدة. هل كان يمكننا ألا نفعل؟ كان العرض على وشك أن يبدأ لكن بالتأكيد لم يكونوا ليبدءوا وحياة «محمود» على كف عفريت.. أليس كذلك؟ لو لم يحصل الرجال على المال الذى يريدون هذه المرة فسوف يقتلونه بلا شك.

لا يمكن أن يكونوا قد أتوا الآن صدفة. لابد أن شخصًا ما قد أخبرهم أن العرض على وشك البدء. وربما اختاروا هذا التوقيت اعتقادًا منهم أن «ساندى» سوف تدفع فى الحال ودون جدال إذا ما أتوا الآن لأن كل همها سيكون التخلص منهم قبل بدء العرض.

لو كان هذا ظنهم فهم مخطئون، فما إن رأت «ساندى» السيارة حتى قفزت هابطة من فوق المشى وصاحت بصوت حاد فى وجوه الحراس قائلةً : «تحركوا.. أنا أدفع لكم المال لتأمين هذا العرض فاذهبوا وقوموا بعملكم! لا يهمنى الطريقة.. افعلوا أى شىء لتظل السيارة الجيب بعيدة حتى انتهاء العرض».

وبدأ «سليمان» و«أمينة» يترجمان، لكن لم يكن هناك داعٍ للترجمة فقد كان الحراس أمسكوا بأسلحتهم بالفعل وبدءوا ينحشرون داخل الشاحنات، وقبل حتى أن تنتهى «ساندى» من الصراخ كانت الشاحنات تعوى وتهدر فى طريقها للخروج من القرية، إلى مكان الخاطفين.

وقال والد «فيريا» وهو ينظر فى الكاميرا: «سيظهرون فى الصورة ولا أستطيع إخراجهم من الكادر».

فصاحت «ساندى» بحدة: «يا للأسف» ثم اتجهت إليه لتلقى نظرة، وقالت: «ضيق الكادر قدر الإمكان واستمر فى التصوير»، ثم التفتت لتصيح فى الجميع قائلة : «لم يبق إلا دقيقتان. لا تلقوا بالا إلى ما يحدث هناك، واهتموا باستعراض ما ترتدونه فقط لا غير. استعدوا».

كان الجو خانقًا حتى شعرت أننى أكاد أختنق من إحاطة قماش الثوب بجسدى. ومن مكانى كنت أرى السيارة الجيب تقترب والشاحنات تسرع لملاقاتها. كانت البنادق فى الشاحنة مصوبة نحو «محمود»، وقلت فى نفسى: «لا يمكننى الصعود على الممشى واستعراض ثيابى وكأن شيئًا لم يكن.. ليس الآن».

– ثلاثون ثانية .. عشرون.. عشرة.

– لا أستطيع!

– الآن!

ووضعت «ساندى» يدها على كتفى ودفعتنى ولم أستطع المقاومة، فقد كنت أنا أمل «محمود» الوحيد فى النجاة. وهكذا وجدت نفسى أسير فوق

. المشى وقد رفعت رأسى عاليًا وقدماى ترتفعان الواحدة تلو الأخرى ثم تحطان على الأرض. يمين شمال.. يمين شمال. كنت أشعر وكأننى أسير فوق نصال الخناجر، ثم صار ظهرى للسيارة الجيب فلم أعد قادرة على رؤية أى شىء مما كان يحدث. لم أعد أستطيع فعل أى شىء سوى السير كما علمتنى «ساندى».. السير بسرعة.. حتى إذا ما وصلت إلى المنصة المربعة التى ينتهى بها المشى أخذت أدور وأدور حول نفسى.

لا أعرف إذا ما كان المشاهدون فى لندن قد شهقوا أم لا، لكننى متأكدة من أن القرية كلها كانت تشهق وهى ترى ثوبى ينفتح وأنا أدور فيبدو وكأن شقًا مائلا قد ظهر فيه، كاشفًا عن لون قرمزى زاه. حتى النقاب نفسه انفتح بالطريقة ذاتها وتحول لونه إلى الأحمر القانى الشبيه بلون دماء متدفقة.

ودرت مرة، ثم مرة، ثم مرة ثم توقفت فاختفت الألوان الزاهية وعاد كل شىء إلى سواده الأول وأنا أسير على المشى محاولة أن أجبر نفسى على عدم النظر إلى السيارة الجيب. لم تكن قد وصلت بعد، وكان علىّ أن أؤدى المطلوب منى على أكمل وجه، تمامًا كما تريد «ساندى»

وهكذا أخذت أفك الأزرار الأمامية الخفية لثوبى وأنا أسير. كنت أفك زرا مع كل خطوة أخطوها، تمامًا كما علمتنى «ساندى»، وحين وصلت إلى نهاية المشى أزحت الثوب عن كتفى فسقط وخطوت خارجه، والتفت كى أعرض ثوبًا جديدًا ونقابًا جديدًا مصنوعين من قماش بنى ضارب إلى

الحمرة، بدا وكأنه جزء من الصحراء الممتدة خلفى. ووقفت لدقيقة ساكنة ثم درت لأستعرض ذلك الزى المموه.. «قرسون» الخفية.. الفتاة التى لا يمكن لأحد رؤيتها، ثم التقطت الثوب الأسود من على الأرض ومضيت لأخرج بينما كانت «إميلى» تنطلق آتية نحوى.

ورغم أننى كنت قد انتهيت فلم يكن هناك وقت للتحديق فى السيارة الجيب، فبمجرد أن صرت بعيدة عن مجال عدسة الكاميرا كان علىّ أن أرفع ذيل ثوبى المتدلى على الأرض وأجرى إلى بيت «نور» مع «فيريا» كى أغير ثيابى استعدادًا لختام العرض.

وهمست قائلة لها: «أرجوكِ أسرعى. ينبغى أن أخرج بسرعة لأرى ما يحدث فى الخارج».

فيريا

ما هذا الذى تفعله «ساندى»؟ كيف يمكن أن تسمح باستمرار العرض فى هذه الظروف؟ شىء فظيع ومخزٍ أن تستمر الفتيات فى التبختر على المشى بينما حياة إنسان فى خطر، لكن «ساندى» أصرت على أن يجرى الأمر كما تريد، بقوة إرادتها التى لا تقهر. كنت واثقة أنها تقول فى نفسها: «لا نحتاج إلا إلى ثمانى عشرة دقيقة فقط لإنهاء العرض.. سبعة عشرة.. ستة عشرة».

وترى ما الذى كان الناس فى لندن يظنونه؟ لابد أنهم هم أيضًا يرون الخاطفين. وتخيلت «مرى» تجلس وسط نجوم عالم الموضة وتشاهد كل هذا. ألن تكون مرتعبة؟ مثلى؟

وقلت لخديجة: «لستِ مضطرة إلى إتمام العرض. اخرجى وقولى لساندى إنك لن تكملى».

لكن «خديجة» هزت رأسها بإصرار وقالت: «وكيف يمكن لذلك أن ينقذ حياة «محمود»؟ أنا مضطرة للاستمرار. أرجوك ساعدينى يا فيريا».

ولم أفهم، لكن إذا كان هذا ما تريده فسوف أساعدها، ولن أخذلها. وبأقصى سرعة ممكنة ساعدتها فى خلع ثوبها المموه والنقاب الناعم ذى

الوجهين، ثم أمسكت «خديجة» بالثوب الآخر، وارتدته ووقفت بقامتها الفارهة المشدودة أمامى بينما كنت أغلق لها الأزرار.

ولم تتعجلنى حتى حين أخطأت فى إدخال أحد الأزرار فى العروة المقابلة له، وكان علىّ أن أفك الأزرار كلها وأعيد العملية من البداية، بل انتظرت فى صبر.

وحين انتهيت ناولتها النقاب حتى تضعه بنفسها. كنت قد تدربت على وضعه لها خمس أو ست مرات، لكن يدى كانتا تتعرقان بسبب الحرارة الشديدة فخفت ألا أنجح فى وضعه لها بالطريقة الصحيحة من أول مرة. كنت أعرف أن «خديجة» تستطيع إنجاز تلك المهمة أسرع منى.

كان من المقرر أن نظل داخل البيت حتى تعطينا «ساندى» إشارة الخروج، لكن كان من المستحيل أن يحدث هذا بالطبع، فما إن أخفت «خديجة» وجهها حتى توجهنا - نحن الاثنتين - إلى الباب، دون حتى أن نحتاج إلى مناقشة الأمر فيما بيننا أولا.

لم نكن قد غبنا إلا ثلاث أو أربع دقائق، إلا أنه حتى فى ذلك الوقت القصير كان كل شىء قد تغير.

كانت السيارة الجيب قد توقفت على بعد مائة متر من القرية، وكان ثلاثة من الخاطفين قد اصطفوا إلى جوارها وقد أحاط بهم حراسنا، وبدا أنه من المستحيل أن يتجاوزهم أحد.

لكن كان اثنان من الخاطفين يسيران نحو الحراس. كانا ملثمين طويلين، ورغم المسافة كنت أرى أن أحدهما يحمل مسدسًا، وقلت فى نفسى: «لم لا يطلق الحراس النار؟ لماذا يسمحون لهما بالمرور؟»

ثم عرفت السبب.

فمع الرجلين كان هناك صبى عمره حوالى اثنى عشر عامًا، يسير ملتصقًا بهما، إذ كانا يستخدمانه درعًا، وتردد الحراس قليلا ثم أفسحوا لهم الطريق.

لم يكن وجه الصبى ملثمًا، ولما اقترب أكثر استطعت رؤية عينيه الواسعتين الخائفتين والجروح التى تملأ شفتيه المتورمتين. ورأت «خديجة» كل ذلك بدورها وحبست أنفاسها وندت عنها آهة غريبة واهنة وكأن أحدًا قد لطمها فجأة، ثم أخذت تعدو.

لكن أبى أدرك ما تنوى فعله فترك الكاميرا تعمل بمفردها ثم انطلق يعدو ليلحق بها ويمنعها.

وحين وصل إليها صاح قائلا: «إياك أن تفعلى أى شىء. لابد أنهما متوتران جدا، وإذا ما وقعت أعينهما عليك وأنت تجرين هكذا فجأة فربما فعلا أى شىء .. تذكرى فقط أنه ليس من مصلحة هؤلاء الرجال قتل الصبى فكل ما يريدونه هو مقايضته بالمال».

وتأوهت «خديجة» وضغطت بكفيها على فمها. وفى وسط كل هذا كانت «ساندى» فوق المشى، عند نهايته، وقد أخذت تدفع العارضات بصرامة- الواحدة تلو الأخرى- كلما حان دور واحدة منهن. وحين انتهى الأمر كله وعدنا إلى لندن أخبرتنى «مرى» كيف بدا المشهد للمشاهدين هناك. قالت لى: «اعتقدنا أولا أن ما يحدث كان جزءًا من العرض. ظننا أنها فكرة من أفكار «ساندى»، وأنها تريد من خلالها نقل وجهة نظر معينة، لكن حين رأينا الصبى أدركنا أن ما يجرى لابد أن يكون حقيقيا، فحتى «ساندى» نفسها لم

تكن لتستطيع فعل شيء كهذا. لقد صار العرض وما حدث فيه حديث الناس طوال الأسبوع، بل في الواقع لقد أفسد ما حدث أسبوع الموضة كله علينا، فأينما كنت أذهب كنت أفكر في ذلك الصبى، وفى النظرة التى كانت تبدو على وجهه.

كانت الأسلحة فى كل مكان.. أسلحة فى السيارة الجيب التى أخذته إلى هناك، وفى الشاحنات التى جاءت لعرقلة السيارة الجيب، وفى يد «سانيارى». كانت فوهة سلاح «سانيارى» تحديدًا منغرسة فى ظهر «محمود» بينما كانوا يتقدمون نحو القرية.

كان الجو خانقًا، وكان محشورًا بين «سانيارى» و«يوسف»، وكان المكان ضيقًا جدا حتى إنه كان يشم رائحة أنفاس «يوسف» ويشعر بملمس الغمد الجلدى الذى يضعه «سانيارى» فى حزامه. لم يكن من مهرب.

كانوا يسيرون نحو جمع من الناس، وكان أغلبهم من النساء والفتيات، وظل «محمود» يجول ببصره فى وجوههم، فقد كان متأكدًا أن «جى-رى» لابد أن تكون بينهم وإلا فلماذا يأخذونه إلى هذه القرية بالذات؟ لابد أنها هناك.

لكنه لم يرها. لم يكن أى وجه من الوجوه وجهها. وإن لم تكن موجودة فمن ذا الذى سوف يدفع فديته؟ وشعر بمذاق الخوف الكريه يملأ فمه.. الخوف.. واليأس.

لكنه رفض الاستسلام للخوف.. فبطريقة ما.. وعند نقطة ما سيكون هناك مهرب.. نعم.. لابد أنه سيجد مهربًا.. سيظل على أهبة الاستعداد، حتى تحين اللحظة المناسبة.

عابدى

كانا رجلين عاديين يرتديان الجينز والتى شيرت.. ناس كأى ناس قد تقابلهم فى أى مكان فى العالم، لا يختلفان عنهم فى أى شىء لولا ذلك اللثام الذى كانا يخفيان به وجهيهما. وحين وصلا إلى المشى قفزا فاعتلياه وهما يجران «محمودًا» معهما.

وصرخت العارضة التى كانت تسير نحوهما صرخة صغيرة خائفة وقفزت مبتعدة عنهما فأفسحت لهما الطريق، وببطء أخذ الرجلان يقطعان المشى وينظران إلينا ونحن نحدق فيهما.

كان بعض حراسنا قد بدءوا يتبعونهما عن بعد، لكن لم يكن بوسعهم فعل أى شىء لإنقاذ «محمود» الذى كان أحد الرجلين قد قبض على ذراعه بقوة بينما كان الآخر يضع مسدسًا فى ظهره.

وحين وصلا إلى المنصة المربعة التى ينتهى بها المشى انفصلا ووقفا متجاورين وكأنهما يستعرضان قوتهما أمام من كانوا ينظرون إليهما من أسفل، إذ رفع الممسك بالسلاح سلاحه ولوح به أمام أعين الجميع، ورفع الآخر ذراع «محمود» ليراه الجميع. لم تكن هناك حاجة للكلمات، فقد قالت حركاتهما كل شىء. كأنهما كانا يقولان: «انظروا جميعًا ما معنا».

ونظرت إلى «محمود».. نظرنا إليه جميعًا. لكننى رأيت شيئًا آخر أيضًا. كان الرجل الأقرب إلىّ– الممسك بالمسدس– يتمنطق بحزام وضع فيه غمدًا جلديا. كان الغمد قديمًا باليًا، وكان على أحد جانبيه خدش طويل غير منتظم.

إننى أعرف ذلك الخدش كما أعرف كف يدى، وأعرف ما الذى بداخل الغمد أيضًا. داخله خنجر قصير ثقيل حاد النصل .. خنجر مميت. له مقبض صغير.. يتوسطه تقريبًا.

إنه خنجر أبى.

كيف حصل حامل المسدس على خنجر أبى؟ لم يكن هناك سوى تفسير واحد.

أنا الآن أنظر إلى الرجل الذى قتل أبى.

ولثانية شعرت وكأننى سأختنق، وكأن الشعور بالغضب والخزى قد صار يدًا أخذت تضغط جسدى وتحرمنى الهواء ، وأنا أرى قاتل أبى أمامى.. يهددنى بمسدسه، بينما صوت زميله يدوى فى أنحاء القرية: «هذا هو الصبى.. لقد التزمنا بجانبنا من الصفقة فأين المال؟»

فقالت «ساندى»: «ماذا يقول؟»

وبدأ «سليمان» يترجم لها، لكننى لم أسمع ما قال، بل لم أكن حتى قادرًا على سماع همسات الناس من حولى. لم يكن فى ذهنى سوى شىء واحد.. شىء واحد فقط هو ما يهمنى.

لا يمكن أن أتسمر فى مكانى هكذا كالجبناء وأدع قاتل أبى ينهانى ويأمرنى.

إن واجبى -بل مسئوليتى الآن- أن أجعل الناس ينظرون إلى عائلتى باحترام.. لا يمكننى الثأر لأبى الآن، فليس معى سلاح، لكن على الأقل يمكننى إماطة اللثام عن وجه القاتل أمام الجميع.. لابد أن أعرف شكله كى أعود وأتعقبه لاحقًا.. نعم سأقتله.. سأقتله ولو اضطررت للبحث عنه سنين وسنين..

وسكت الصياح والتفت الخاطفان إلى الواقفين انتظارًا للرد، لكن «ساندى» كانت الوحيدة التى يمكنها الرد. ورأيتها تتقدم وهى ترتجف من الغضب، وتصيح: «لن أرضخ لعصابة من البلطجية المتنمرين.. اتركا الولد وشأنه حالا».

نظر الرجلان أحدهما إلى الآخر فأدركت أن تلك هى اللحظة المناسبة.. اللحظة الوحيدة المناسبة، فأيًا يكن رد فعلهما.. سواء بدآ يطلقان النار أم هربا.. فستضيع فرصتى للأبد إن لم أتصرف الآن بسرعة.. الفرصة الوحيدة سانحة الآن فالأنظار جميعًا متجهة إلى «ساندى»

الآن!

وقفزت فوق المشى ومددت يدى إلى اللثام الذى يخفى وجه القاتل وحين أطبقت أصابعى عليه أدركت أنه قد يلتفت إلىّ ويطلق النار، وربما قتلنى، لكن الأوان كان قد فات ولم يعد القلق يغنى شيئًا، فشددت اللثام بقوة.

وانتفض الرجل وقفز فالتفت إلىّ وصوب سلاحه إلى صدرى فعرفت أننى ميت لا محالة.. عرفت أنه سيطلق النار فى ثوانٍ.

لكنه لم يقتلنى.. بل اتسعت عيناه دهشة حين وقعتا على وجهي، وأبعد سلاحه عن صدرى، وأخذ كل منا يحدق فى وجه الآخر.

والتفت الآخر ليرى ما الذى يحدث، وبينما كان يلتفت قفز «طونى» المصور من بين الواقفين وقد أشرع كاميرته وسدد الفلاش نحو الواقفين فوق المشى، ثم ضغط زر الفلاش.

ومضة الفلاش المفاجئة تلك أعطت لمحمود الفرصة، فبينما كان «طونى» يلتقط الصورة استطاع «محمود» أن يتملص من قبضة خاطفه ويدور ليواجهه بينما تنتزع يده الأخرى السلاح منه.

فجأة تغير كل شىء. كان «محمود» يتراجع بظهره وقد صوب سلاحه نحو الرجلين الذين أحضراه إلينا. وكان يصيح بالصومالية بأعلى صوته.

أما أنا فكنت لا أزال واقفًا فى مكانى، واللثام فى يدى، محدقًا فى الوجه الذى انكشف لى.

وجه أبى.

خديجة

كان «محمود» شجاعًا جدا.. بارعًا جدا. لم أكد أصدق ما أرى.

كان الجميع يقفون بلا حول ولا قوة.. كل هؤلاء الأثرياء الذين حضروا إلى القرية وقلبوا حالها بأوامرهم كانوا عاجزين عن فعل أى شىء، وكانوا مرتعبين. لعل معظمهم لم ير سلاحًا فى حياته. الوحيدة التى جرؤت على الكلام كانت «ساندى» ولم يزد ما قالته الأمر إلا سوءًا، حتى إننى ظننت أن الخاطفين سيقتلون الجميع بمجرد أن يفهما ما قالت.

لكن «محمودًا» أنقذنا جميعًا.

تحين «محمود» الفرصة التى سنحت له فاستولى على سلاح خاطفه ثم ابتعد عنه ليسيطر على الموقف. وكان يجيد استخدام السلاح حقا، فحين اقترب منه أحد الخاطفين خطوة أطلق النار على قدمه فأصابه.

وصرخ الرجل من الألم ثم استسلم.

كنت أراقب الموقف كله من الخلف، فقد كنت عند نهاية المشى متأهبة لاختتام العرض.

لم أستطع رؤية وجه «محمود» لكننى كنت أرى ظهره المشدود والطريقة الواثقة التى وقف بها ورفع رأسه. كان الجميع ينظرون إليه من أسفل.

كان هذا ما اعتقدته حتى خطوت خطوة جانبية ورأيت «عابدى» والرجل الآخر . كانا يحدقان فى بعضهما البعض وكأن «محمود» والسلاح الذى يرفعه والقرية كلها لا تعنى لهما أى شىء على الإطلاق.

وأشار «مخمود» بالسلاح بعنف وهو يصيح بخشونة فى الرجلين: «انزلا..انزلا من هنا وعودا إلى السيارة قبل أن أطلق النار».

ربما لو كانا منتبهين بما فيه الكفاية لتعاونا معًا وشلا حركته وانتزعا السلاح واستعادا السيطرة، لكن واحدًا منهما فقط هو من كان ينظر إلى «محمود»، وكان مصابًا فى قدمه، وقد تردد ذلك الرجل قليلا ثم جلس على حافة الممشى وترك نفسه ينزلق لينزل، بحرص شديد، على الأرض.

وصاح ينادى زميله: «هيا يا سانيارى».

كان صوته ساخرًا غاضبًا وهو يقول: «هل تريد أن تبقى عندك حتى تلقى الجزاء الذى تستحقه؟»

لكن الرجل الآخر بدا غير عابئ بتلك السخرية فناداه ثانية قائلا: «هيا يا أحمد!»

وما إن سمعت اسم الرجل الحقيقى حتى فهمت. إنه والد «عابدى»، ولهذا يحدق الاثنان فى بعضهما البعض بهذه الطريقة.

وبمجرد أن أدركت ذلك شعرت بأن ما اكتشفت كان واضحًا منذ البداية، ليس فقط للتشابه الشكلى بين الاثنين، بل أيضًا التشابه فى الوقفة والحركات.

وظل الرجل يحدق فى «عابدى» لدقيقة أخرى بدت وكأنها دهر كامل، وكأنه ينتظر شيئًا ما، لكن «عابدى» لم ينطق بكلمة، فقفز الرجل من على المشى وانضم إلى زميله وجعله يتكئ عليه حتى يخرجا من القرية.

وحين أولانا ظهره ازداد شبهًا بعابدى، وكأنه «عابدى» وقد كبر فصار رجلا محبطًا مهزومًا، وكان «عابدى» يشبهه وقد وقف يحدق فى الخاطفين وهما يغادران. وعرفت كيف كان يبدو والد «عابدى» فى شبابه، وعرفت كم هى صعبة هذه الحياة، فحين يفقد المرء والده فكأنه يودع جزءًا من روحه ونفسه إلى الأبد.

ومضى الرجلان نحو الأراضى الجرداء المحيطة بالقرية وتجاوزانى وكأنهما لا يريانى، ودار «محمود» على عقبيه وهو يتبعهما مصوبًا سلاحه إليهما. ولم أشأ أن أشتت انتباهه حتى يخرج الرجلان نهائيا من القرية ويصيرا فى قبضة حراسنا. وما إن تم ذلك حتى قفزت بسرعة من فوق المشى ونظرت إلى «محمود»، وحين رأيت ما فعله هؤلاء الرجال بوجهه أردت أن أخطف منه السلاح وأجرى وراءهما، لكننى بدلا من ذلك أخذت ألوح وأصيح:

«محمود!»

ولدقيقة بدا «محمود» متحيرًا، حتى أدركت السبب فمزقت ذلك النقاب الذهبى السخيف عن وجهى، وحين عرفنى صاح فى سعادة: «جى-رى!»

وبينما كنت أعدو نحوه تلاشى كل الثقل الذى خيم على الجو، وبدأ المطر يهطل، وظللت أجرى فاتحة ذراعى بينما كان المطر يتدحرج فوق كتفى ويتساقط فوق ثيابى.

فيريا

ما حدث كان أجمل بكثير مما يمكنكم تخيله. كانت «خديجة» تجرى فوق ممشى عرض الأزياء وهى تضحك وقد فتحت ذراعيها لمحمود. وهطل المطر.. المطر الجميل النظيف باعث الحياة من السماء فأغرق ثوبها وأخذ يفيض منه حولها.

دمر المطر كل الثياب التى كانت على الشماعات فى غرفة تبديل الملابس، لكن أحدًا لم يهتم على الإطلاق، ولا حتى «ساندى» نفسها، بل كانت تقفز فى سعادة وارتياح بشعرها المنتصب فوق رأسها وقد علت وجهها ابتسامة عريضة.

والشىء المدهش أن الكاميرا كانت لا تزال تعمل وكان البث المباشر متواصلا، فرأى المشاهدون فى لندن «خديجة» تسرع نحوهم كعمود من نور وقد انكشف وجهها وأخذت قطرات الماء الصغيرة تتلألأ فوق كل سنتيمتر من ثوبها.

لا يزال الناس يتحدثون عن هذا المشهد. كانت تلك هى اللحظة التى كتبت النجاح لذلك العرض.

وفى تلك الليلة حين توقف المطر أوقد الحراس نارًا فى وسط القرية واجتمعنا كلنا حولها لتناول طعامنا معًا. كان المفروض أن يكون هذا احتفالا

بانتهاء مهمتنا على أروع وجه ممكن، فقد عرفنا من «ماركو» أن العرض نجح نجاحًا باهرًا، ولما استطاعت «مرى» أن تصل إلى هاتف القمر الصناعى عرضت على «خديجة» عقدًا تحلم به أى عارضة.

لكن لم يكن كل شيء على ما يرام. عرفت ذلك حين رأيت وجه «عابدى» وكيف كان هو و«خديجة» يتجنبان «سليمان». كانا يجلسان بعيدًا يتوسطهما «محمود» وكان «عابدى» متجهمًا حزينًا.

لكن الأمور لم تصل إلى حد المواجهة إلا فى اللحظة التى أخرج فيها «طونى مورلز» كاميرته، بعد انتهائنا من تناول الطعام، وأخذ يعرض الصور التى التقطها على «ساندى» وأبى، وحين أوشك على الانتهاء ابتسم ورفع صوته وقال: «إن الثياب تبدو رائعة لكن اعذرينى يا عزيزتى فهذه هى الصور التى تجلب النقود الحقيقية.. صور «محمود» والأشرار الذين اختطفوه».

وفجأة دوى صوت «عابدى» كالرعد من عند طرف الدائرة الآخر وهو يقول: «ليسوا وحدهم الأشرار! إن أكثر الناس شرا هنا بيننا».

ثم قفز وجرى حول النار حتى وصل إلى حيث كان يجلس أبى و«ساندى». كان «سليمان» يجلس إلى جوار «ساندى» فأشار «عابدى» بإصبعه إليه وصاح كالمجنون: «هذا من خطط لعملية الاختطاف، وهو ليس أبى، ولا والد «خديجة» أيضًا، لكنه يعرف أسرة «خديجة» الحقيقية وقد تجسس عليها وهى تستخدم الإنترنت من مقهى الإنترنت الذى يملكه. لابد أنه هو فلا أحد سواه يعرف كل تلك المعلومات».

وتوقف كل شىء والتفتت كل الوجوه المتحلقة حول النار لتنظر إلى «سليمان» . ونهضت «خديجة» وأسرعت إلى حيث يقف «عابدى»، وخلفها «محمود».

وقالت لسليمان: «هذا صحيح.. لقد راقبتنى وأنا أزور موقع «ساندى» على الإنترنت .. أليس كذلك؟ وقرأت رسالتى إلى «محمود» ثم خططت لعملية الاختطاف، وأعدت لعابدى هاتفه المحمولِ حتى يتسنى للخاطفين الاتصال به ».

وفتح «سليمان» عينيه على اتساعهما وقال: «ما هذا كله؟ لماذا تتهموننى بهذه الاتهامات بعد كل ما فعلته لمساعدتكما؟»

ثم التفت إلى «ساندى» وقال: «لقد تظاهرت بأننى والدهما كى أسهل استعانتك بخديجة فى عرضك، لكن ليس لى أى علاقة بحادثة الاختطاف. يمكنك رؤية المجرم الحقيقى فى الصور التى التقطها طونى».

ورأيت «ساندى» تقطب وهى تنقل عينيها بين «سليمان» و«عابدى» وتحاول أن تفهم الموقف.

وابتسم «سليمان» ابتسامة ظافرة وقال: «لا تكونى قاسية فى حكمك على «عابدى» فهو متضايق الآن لأن واحدًا من المختطفين هو والده الحقيقى.. والده من صغار اللصوص هنا».

فقال «عابدى» بعنف: «ليس لصا».

فرفع «سليمان» حاجبيه وقال: «ليس لصا؟ فلماذا فى رأيك قالت لك أمك إنه مات؟ لقد أخذ المال الذى ادخرتموه لإحضاره إلى إنجلترا واشترى

حصة فى سفينة من سفن القراصنة، لكنها غرقت قبل أن تقتنص أي شىء. ينبغى أن تواجه الحقيقة يا «عابدى». أبوك فاشل».

فتقلص وجه «عابدى» وأشاح بوجهه بعيدًا. كان كل ما قيل يبدو محتملا قابلا للتصديق، وكان ذلك فظيعًا. ونظرت إلى أبى لعلى أعرف ما يدور برأسه فى تلك اللحظات.

كان أبى ينظر إلى «عابدى» وقد بدا على وجهه الشفقة والألم الشديد، ثم قال برقة وهدوء: «لا يمكنك إلقاء الاتهامات جزافًا مالم يكن لديك دليل».

فصاح «عابدى»: «لم يبق إلا «سليمان» ليتهم الناس! إنه يتحدث عن أبى بالسوء رغم أن المفروض أنهما صديقان فكيف يمكن لإنسان أن يتحدث عن صديق له بهذه الطريقة؟ لقد كانا صديقين منذ الطفولة، وطالما حكى لى أبى عن مغامرات «سانيارى» و«سانوينى» أذكى وأبرع طالبين فى المدرسة».

فانتفض «محمود» فجأة ثم مال على أذن «خديجة» وقال لها شيئًا وهو يشير إلى «سليمان».

ولم أفهم ما قاله، لكن أيا كان ما قاله فقد ران صمت رهيب على الجميع ما إن سمعوه. وأخذ الصوماليون جميعًا يحدقون فى «سليمان» وفجأة اعتدلت «أمينة» فى جلستها وبدت غاضبة متشنجة فقالت «ساندى»: «ما الأمر؟؟؟ ماذا قال؟»

فغمغم «سليمان» فى غضب: «إنه يكذب. أو ربما أثرت الأحداث الماضية التى تعرض لها على عقله.. المهم أنه يهذى».

فضيقت «ساندى» عينيها وكررت: «ماذا قال؟»

ولدقيقة ظل الجميع صامتين وكأنها لم تقل شيئًا، ثم وقفت «أمينة» فجأة وقالت: «أنا سأخبرك!»

وكان صوتها أكثر برودًا من صوت «ساندى» نفسها، وكأنه ثلج وهى تكمل: «لقد سمع «محمود» الخاطفين يتصلون بشخص اسمه «سانوينى» وقالوا إنه كان فى إنجلترا. وأنا أصدقه لأننى سمعت الجانب الآخر من المحادثة الهاتفية. سمعت زوجى يومها يتحدث مع رجل اسمه سانيارى».

وفغر «سليمان» فاه وهو يستمع إليها، وكأنها لكمته فجأة، ثم قال: «أنتِ زوجتى! كيف يمكنكِ أن.»

فقاطعته قائلة : «أعرف حقيقتك، ولقد تعبت من التعامى عنها. حين رأيت ما فعلوه بوجه الولد قررت أن أنهى كل شىء بيننا إذا ثبت لى أن لك علاقة بالأمر».

فقال «سليمان» هازئًا: « وماذا ستفعلين؟»

فرفعت «أمينة» رأسها وقالت: «ربما ليس بوسعى فعل شىء هنا، لكن لا تحاول العودة إلى إنجلترا يا «سليمان عثمان هيرسى». لقد خدعتنى وخدعت أباك وأمك أيضًا ولن تعجبك الطريقة التى سيعاملك الناس بها حين يعرفون ما اقترفت».

فقال «سليمان» ببساطة: «لن تجرؤى، فالعار الذى.».

- العار لحقنى بالفعل وكان ما كان.. سأذهب الآن ولا تتبعنى.

ثم دارت ومضت مبتعدة عن الحلقة، وغابت داخل البيت حيث تنام كل ليلة.

ولم يكن ممكنًا أن يستمر حفلنا بعد هذا فبدأ الناس ينسحبون الواحد تلو الآخر، تاركين «سليمان» وحده إلى جوار النار الموقدة. لا أعرف ما حدث له، لكن حين أشرقت شمس اليوم التالى كان قد رحل فى إحدى الشاحنات، ولم يعد ثانية .

وحين انسحب «عابدى» كدت أتبعه. كنت أريد أن أقول له إننى أعرف- نوعًا ما- شعور المرء حين يخذله أحد والديه، لكن أبى كان أسرع منى، فحين مر «عابدى» من أمامه نهض وسار إلى جواره وقال برقة: «ما رأيك فى أن نتمشى قليلا؟»

ولوهلة ظننت أن «عابدى» سيتجاهله، لكنه قرر ألا يفعل ونظر إلى أبى وأومأ بسرعة، وغاب الاثنان فى الظلام وهما يسيران جنبًا إلى جنب.

وظللت أتلكأ قليلا لكنهما لم يعودا فى الحال. لابد أن حديثهما- أيا كان موضوعه- كان طويلا. وفى النهاية نال منى التعب فلم أعد أستطيع انتظارهما أكثر مما انتظرت، فعدت إلى بيت «نور» مع «خديجة».

وحين كنا نستعد للنوم قلت بصوت منخفض: «هل كان «عابدى» يعتقد فعلاً أن والده قد توفى؟»

-هذا ما قالوه له.. حين قفز فاعتلى المشى اليوم كان يظن أنه يواجه قاتل والده. كان تصرفًا غاية فى الشجاعة.

ترى هل كان اكتشافه أن والده حى شيئًا جيدًا أم سيئًا؟

وقلت : «مسكين «عابدى».. لابد أنه يشعر أنه فقد كل شىء».

فمدت «خديجة» يدها وضغطت على يدى ضغطة رقيقة وقالت: «أنتِ طيبة يا «فيريا» وتهتمين بمشاعر الناس».

فقلت: «أنا فقط لا أحب أن يتألم أحد.. لابد أن الأمر كان صعبًا جدا على «عابدى» حين أماط ذلك اللثام».

فقالت «خديجة» بهدوء: «كان بوسعه أن يختار الذهاب مع والده. ألم يخطر ذلك ببالك؟ كان بوسعه البقاء فى الصومال، لكنه لم يفعل».

فقلت فى نفسى: «إنه يعرف أين ينتمى».

ولثانية شعرت أننى أحسده.

وأمطرت السماء ثانية ، تقريبًا طوال اليوم التالى، لكننا تمكنا بطريقة أو بأخرى من جمع المعدات كما دفعنا أجور كل من ساعدونا من أهل القرية، عدا الحراس الذين ظلوا معنا للنهاية. وحين توقف المطر كانت القرية هادئة جدا وشبه خالية.

حتى إذا ما أوشك النهار على الانتصاف ركب «محمود» و«خديجة» فى سيارة جيب ازدحمت بأهل القرية، وتوجه الجميع إلى المخيم حيث يقيم والدا «خديجة» وشقيقاتها، فقد كانت «خديجة» مشتاقة لرؤيتهم قبل

عودتها إلى إنجلترا.

وهكذا لم يبق سوانا أنا و«عابدى» للمساعدة فى إخلاء القرية من آثار العرض، وظللنا نعمل معًا، جنبًا إلى جنب، أغلب اليوم، لكنه لم ينطق بكلمة، ثم فجأة وجدنا أنفسنا قد انتهينا من كل شىء ولم يعد هناك ما يمكن فعله.

ووضع «عابدى» آخر صندوق فى آخر شاحنة ثم غمغم دون أن يلتفت إلىّ: «هل والدك مصور جيد مثل طونى مورلز؟»

فقلت بحماس: «إنه أفضل من «طونى مورلز» بكثير. لكن لماذا؟»

فهز كتفيه ثم التفت إلىّ وهو يلوح بيده ليبدو وكأنه غير مهتم وقال: «لقد قال إنه سيعلمنى التصوير».

– هل تريد أن تصير مصورًا؟ لماذا؟

فقال: «كى أجعل الناس يرون الأشياء كما أراها».

ثم رفع رأسه بحدة وقال: «الجميع سيتذكرون الصور التى التقطها «طونى مورلز».. أليس كذلك؟ سيتذكرون الصوماليين المسلحين فى الصحراء، لكن هذه الصور لا تحكى القصة كاملة . هذه الصور ليست الحقيقة. لو كان معى كاميرا فى تلك اللحظة.».

وأضاء وجهه كما يضىء وجه «ساندى» حين تتحمس لشىء ما، وتساءلت فى نفسى عما إذا كان أبى قد كان مثله هكذا فى يوم من الأيام.. قبل أن يعتزل تصوير ما له أهمية حقيقية.

وفى المساء خرجت أتمشى فى الظلام مع أبى وأمى. كنا نسير متجاورين ناظرين للنجوم، لكننى كنت أشعر وكأننى خلفهما، ثم أحاط أبى بذراعه كتف «ساندى» وقربها منه ليريها مجموعات النجوم، فقلت: «أنتما الاثنان مجنونان. لماذا لا تضعان حدا لمسألة الانفصال هذه؟ إنكما تجعلاننى أشعر وكأننى العاذل الذى يفسد على العاشقين حبهما!»

كنت أقصد أن أمزح، لكن صوتى ارتعش فجأة ولم تعد النكتة مضحكة، وتملصت «ساندى» من أبى والتفتت إلىّ وقالت: «ليس هذا صحيحًا يا «فيريا» صدقينى».

وقال أبى دون مواربة: «هذا صحيح».

وعرفت أنه تذكر ما قاله فى ذلك اليوم وسمعته أنا دون قصد منه.. حين قال لساندى : «هل تعتقدين أننى سأوثر «فيريا» عليكِ؟»

ولثانية خفت أن يحاول أن يعتذر.

لكنه كان أكثر ذكاءً وحصافة من ذلك إذ قال: «دعينى أحكِ لكِ قصة.. إنها قصة صومالية قديمة، يحكيها الجميع فى كل مكان هنا».

ثم صمت لثانية حتى صرنا جميعًا نسمع صوت الصمت، ثم بدأ يحكى بصوت هادئ رقيق فقال: «كان يا ما كان كان هناك رجل له ثلاث زوجات. كن جميعًا قويات جميلات، لكنهن كن غيورات جدا، وظللن يتشاجرن ويتجادلن حول من منهن يفضلها الزوج على الأخريات، ولم يكن يتعبن من الإلحاح عليه لإخبارهن».

وانقبض قلبى بداخلى. كنت أريده أن يكف، وألا يكمل القصة، لكننى لم أكن أستطيع الكلام.

وقال أبى: «حاول الرجل أن يتملص منهن، لكنهن لم يتوقفن عن الإلحاح وحولن حياة الرجل إلى جحيم، فدعاهن وقال: حسنًا سأخبركن.. لكن أولا ينبغى عليكن أن تغمضن عيونكن».

وببطء أغمض أبى عينيه، وقطبت «ساندى» وهى تنظر إليه لثانية ثم أغمضت عينيها بدورها.

«ساندى» وأبى.. أبى و«ساندى»..نظرت إليهما وقلت فى نفسى: «لست مضطرة إلى فعل ذلك»، لكننى قلدتهما فأغمضت عينى.

وهمس أبى قائلا: «حين أغمضت الزوجات الثلاثة عيونهن قال الرجل: سوف ألمس الزوجة الأقرب إلى قلبى من بينكن. ومد يده».

ومر جزء من الثانية دون أن يحدث أى شىء. لم أستطع فعل أى شىء، سوى التنفس، ثم شعرت بيد أبى تلمسنى.. لمسته التى أعرفها، ولا يمكننى أن أخطئها، على خدى الأيسر.

وفى اللحظة نفسها شعرت بأصابع «ساندى» تربت خدى الأيمن.

وقلت فى نفسى: «إنهما يكذبان.. إنهما يحاولان فقط رفع معنوياتى».

لكن أبى قال بهدوء: «هاه يا فيريا؟»

وعندئذ فهمت.. فجأة فهمت كيف يجب أن تنتهى القصة. إن الحل الوحيد الصحيح هو أن يلمس المرء أكثر من يحب.

وهكذا وبينما كانت عيناى لا تزالان مغمضتين مددت يدى بسرعة ولمست وجه «ساندى» بيد ووجه أبى باليد الأخرى.

وماذا عن «محمود»؟

تريدون نهاية سعيدة .. أليس كذلك؟ تريدون أن أقول لكم إن «محمودًا» قد شفى من جراحه وأن أسنانه قد نبتت ثانية وأنه سيصير طبيبًا، لكن الحقيقة ليست هكذا. لقد ضاعت أسنانه ولن تنمو ثانية ، وهو لا يريد أن يدرس الطب، بل يريد أن يقضى حياته فى الصحراء مع قطيع من الجمال، يستمتع بالحرية والترحال أين يشاء، تمامًا ككل أفراد عائلته منذ قديم الزمان.

إن «خديجة» تفعل كل ما بوسعها من أجله.. لقد اشترت لأسرتها منزلا جديدا وعشرين جملا قويا. لكن مهما بلغ ثراء «خديجة» فإنها عاجزة عن إنهاء الصراع الذى يمزق الصومال. لا يستطيع أن ينهى ذلك الصراع سوى القراصنة وأباطرة الحروب.. ولن يكون ذلك إلا بأن يضعوا أسلحتهم جانبًا ويكفوا عن القتال.

ثراء «خديجة» وشهرتها لا يستطيعان أن يضعا حدا لما يفعله العالم الحديث المتحضر بهؤلاء الفتيان الذى يريدون العيش فى سلام.. فى البادية، كما أن «خديجة» لا يمكنها وضع شيء لوضع حد للاحتباس الحرارى الذى يمنع سقوط المطر ويؤدى إلى الجفاف. بمعنى أصح لا يمكنها فعل شيء وحدها، فهذه قضايا كبيرة لا يمكن أن تحل إلا بمشاركة الجميع.

فكما قلت لكم فى البداية..نحن مرتبطون ببعضنا البعض أكثر مما تتصورون.

المؤلفة فى سطور:

جيليان كروس

هى بريطانية اشتهرت برواياتها الموجهة إلى الأطفال والمراهقين، وقد حازت اثنتان من رواياتها جائزة كارنجى للأعمال الأدبية، وهما " الذئب " و"حيث أنتمى"، ومن أشهر أعمالها ،"الطريق الحديدى" و "الهارب" و "منزل الشجرة" و "احذروا أولجا".

المترجمة فى سطور:

سمر طلبة

مدرس بكلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية بجامعة بنى سويف، وقد ترجمت العديد من الكتب الأدبية وغير الأدبية من الإنجليزية إلى العربية، منها كتاب «اختفاء المترجم» لـ «لورنس فينوتى»، و«عن الأدب» لـ «هيليس ميلر» ورواية «الخاطئ» لـ «د.هـ. لورنس» ، ورواية «لهو ولعب » لـ « أولدس هكسلى» وغيرها.

التصحيح اللغوى : غادة كمال

الإشراف الفنى : حسن كامل

هذه قصة عن الأسلحة والعصابات وعارضات الأزياء.. وهى أيضًا عن الجفاف والمجاعة.

هل يزعجكم هذا؟ هل تتساءلون كيف يمكن أن يجتمع كل هذا فى قصة واحدة؟

إذن دعونى أقل لكم إن هذا حال الحياة فى أيامنا هذه. لا تحدث الأشياء بنظام محدد بحيث يقع كل حدث فى مكان منفصل. إننا جميعًا مرتبطون ببعضنا ببعض عن طريق البريد الإلكترونى والهواتف وتلك الشبكة الإعلامية التى تغطى العالم كله كشبكة عنكبوت عملاقة.

أحداث هذه القصة إذن مسرحها العالم.. إنها قصة "عابدى" و "خديجة"" وقصتى أنا أيضًا "فيريا".. قصة ما حدث لنا جميعًا بسبب الصومال.

تصميم الغلاف: نادية كشك